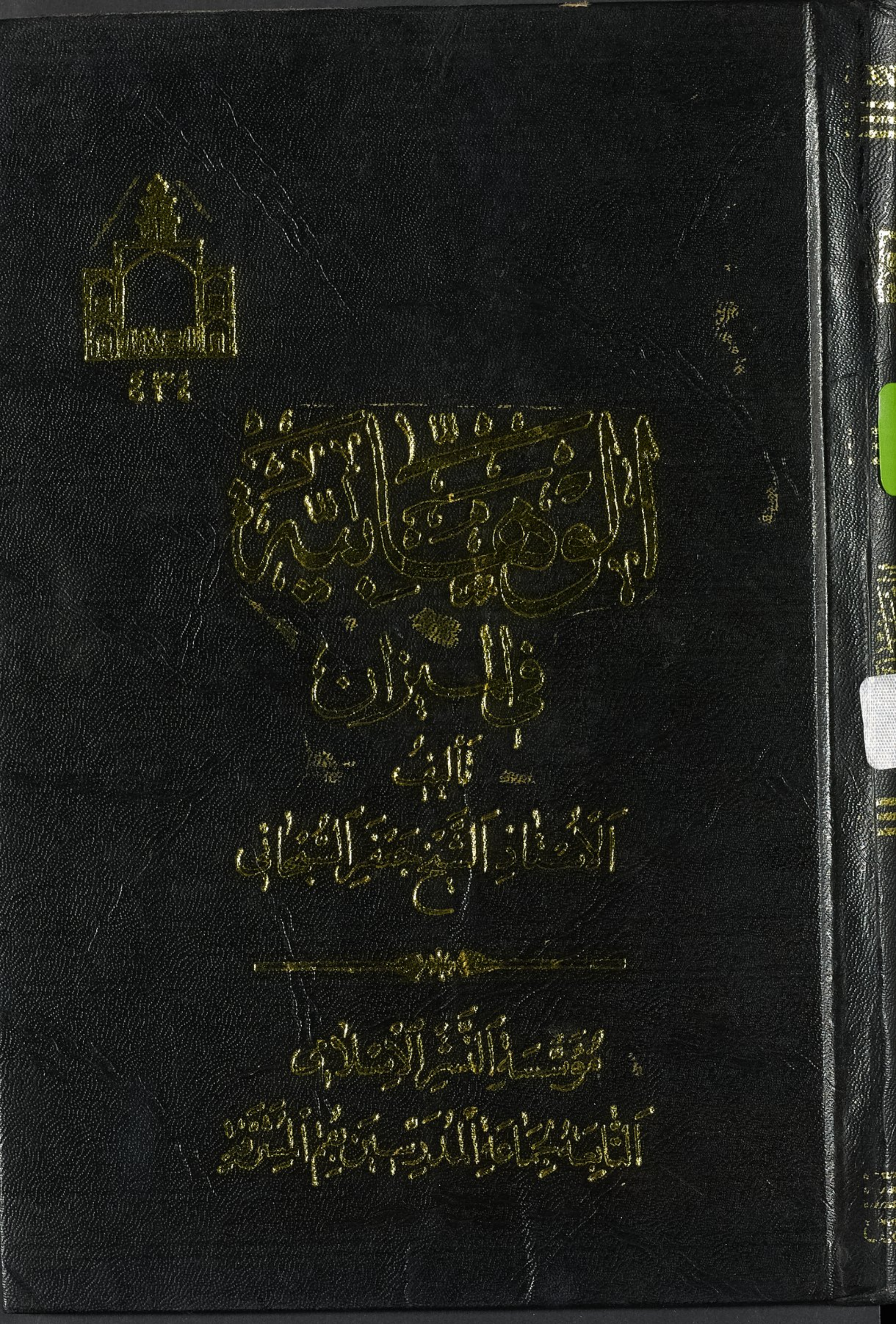
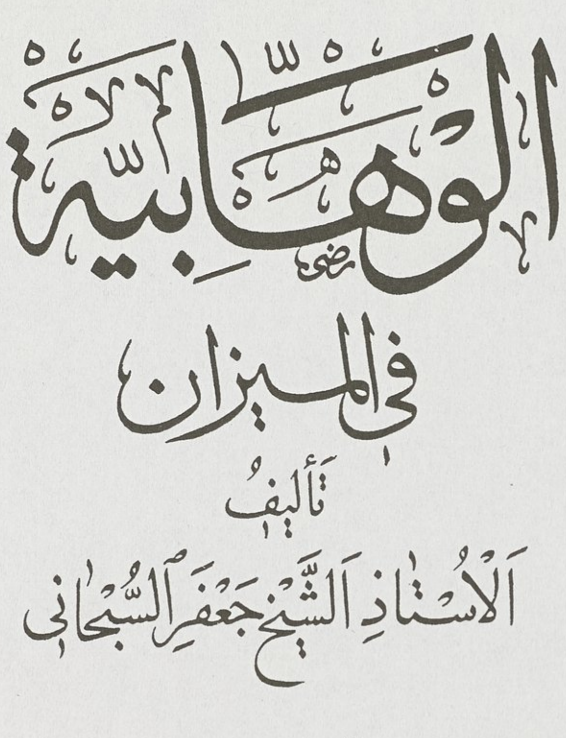

٤٣٤
الوهابية
في الميزان
تأليف
الأستاذ الشيخ جعفر السبحاني
مؤسسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة




٤٣٤



الوهابية في الميزان

تأليف

الأستاذ الشيخ جعفر السبحاني

مؤسسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة

الكتاب: الوهّابيّة في الميزان
المؤلّف: الاستاذ العلّامة الشيخ جعفر السبحاني
الناشر: مؤسّسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة
المطبوع: ٥٠٠ نسخة
التاريخ: شعبان المعظّم ١٤٠٧ هـ. ق



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسّلام على محمّد وآله الطيبين.

و بعد؛ في عصر يشهد فيه العالم الاسلامي إقبالاً متزايداً على الدين ومفاهيمه، ويقظة إسلامية واسعة في جميع الأقطار تصعِّدُ الفرقة الوهّابيّة من جهودها الهدّامة للوقوف في وجه هذه العودة المباركة الى الاسلام.

و الفرقة الوهّابيّة التي ما هي في الحقيقة إلّا فتنة يقف وراءها الاستعمار البغيض ـ كما يدلّ على ذلك تاريخها ـ تستهدف:

١ ـ الحطّ من مكانة و أهميّة الشخصيات الدينية منعاً من التفاف النّاس حولها، وحول آثارها ومبادئها.

٢ ـ إبراز الاسلام في صورة الدين الجاف الجامد الذي لا يقبل التطبيق في العصور المختلفة.

٣ ـ إيجاد الفرقة و الإختلاف في صفوف المسلمين للحيلولة دون وحدتهم، وتآخيهم.

٤ ـ محو آثار الرسالة بهدف تعريض أصالتها للابهام والغموض الذي من شأنه أن يحوّل الإسلام الىٰ قضية أُسطورية لاجذور واضحة لها في التاريخ.

و من هنا تحتم على المفكرين الاسلاميين المخلصين التصدّي لهذا المخطط الاستعماريّ الخطير، الذي تستر وراء قناع مذهبي، واتخذ من «التوحيد» واجهة لمقاصده.

و من هنا قام سماحة الاستاذ العلّامة الشيخ جعفر السبحاني حفظه الله بتأليف هذا الكتاب الذي كشف فيه عن زيف عقائد هذه الفرقة الاستعمارية باسلوب أنيق واستدلال عميق مستمد من الكتاب والسنّة، وسيرة الصحابة.

و مؤسّسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرّسين التي كانت ولا تزال تهتمّ بنشر المعارف الاسلامية تعتزّ بتقديم هذا الكتاب القيّم الى الملأ الاسلامي خدمة منها للحقّ والحقيقه، والله خير معين.

مؤسّسة النشر الاسلاميّ

التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة

مقدّمة الطبعة الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

مع الوهّابيّين في عقائدهم

الحمدلله الأوّل فلا شيء قبله، و الآخر فلا شيء بعده، والظاهر فلا شيء فوقه، والباطن فلا شيء دونه.

و الصلاة و السّلام على نبيّه و خيرة خلقه الذي بعثَهُ والناس ضُلّال في حيرة، وخابطون في فتنة، قد استهوتهم الأهواء، واستزلّتهم الكبرياء، واستخفّتهم الجاهلية الجهلاء، حيارى في زلزال من الأمر، وبلاء من الجهل، فبالغ -صلّى الله عليه وآله- في النصيحة، ومضى على الطريقة، ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة.

بعثه سبحانه لإنجاز عدّته، و تمام نبوّته، مأخوذاً على النبيّين ميثاقه، مشهورة سماته، كريماً ميلاده، وأهل الأرض يومئذٍ مِللٌ متفرّقة، وأهواء منتشرة، وطوائف متشتّتة، بين مُشبّهٍ لله بخلقه، أو ملحدٍ في اسمه، أو مشير إلى غيره، فهداهُم به من الضلالة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة.

و الصلاة عليه و على آله الذين هم موضع سرّه، وملجأ أمره، وعيبة علمه، وموئل حكمه، وكهوف كتبه، وجبال دينه، بهم أقام

انحناء ظهره، وأذهب ارتعاد فرائصه، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

و على أصحابه الذين قرأوا القرآن فأحكموه وتدبّروا الفرض فأقاموه، أحيوا السنّة، وأماتوا البدعة، دُعوا للجهاد فأجابوا، ووثقوا بالقائد فاتّبعوه، لقوا الله فوفاهم أُجورَهم، وأحلّهم دار الأمن بعد خوفهم، ركبوا الطريق، ومضوا على الحق، صلاة دائمة مادامت السماء ذات أبراج، والأرض ذات فجاج(١).

أمّا بعد، فإنّ الأُمّة الاسلاميّة عن بكرة أبيهم أصفقت على التوحيد في مراحله المختلفة، فاتّفقوا على توحيد ذاته، وأنّه واحد لا ندّله، وفاردلامثل له.

كما اتّفقت على أنه الخالق ولا خالق غيره، قال سبحانه «هَل مِن خالِقٍ غيرُ الله»(٢) وقال سبحانه: «قُل الله خالق كُلِّ شَيء»(٣).

كما أصفقت على توحيده في الربوبيّة، وأنّه لا ربّ ولا مدبّر سواه، قال سبحانه: «يُدَبِّرُ الأَمْرَ مامِنْ شَفيعٍ إلاّ مِن بَعدِ إذنِهِ ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُم فاعبُدُوهُ أفَلا تَذَكَّرُونَ» (٤).

كما أجمعَت علىٰ توحيده في العبادة وأنّه الإلٰه الذي يُعبد ولا يُعبدُ غيرُه، قال سبحانه: «قُل يا أهْلَ الكِتابِ تَعالَوا إلىٰ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا

(١) الخطبة مقتبسة من كلمات الإمام علي -عليه السّلام- في مواضع مختلفة في نهج البلاغة.

(٢) سورة فاطر: آية ٣.

(٣) سورة رعد: آية ١٦.

(٤) سورة يونس: آية ٣.

وَبَيْنَكُمْ أنْ لا نَعْبُدَ إلاّ اللهَ وَلا نُشرِكَ بِهِ شَيئاً وَلا يَتّخِذَ بَعضُنا بَعضاً أرباباً مِن دُونِ اللهِ» (١).

بل و هذه هي النقاط المشتركة بين الشرائع السماويّة،وما يُرىٰ من الشذوذ عن هذه الأُصول لدى بعض أتباع الشرائع السابقه فانّما هو من فعل الدسّ والتحريف من قبل الأحبار والرُهبان والقسّيسين.

الوهّابيّة و موقفهم الحقيقيّ من قضايا التوحيد

و العجب ـ و ما عشت أراكَ الدهرُ عَجَباً ـ أنّ الوهّابيّة وليدة فكرة شيخ الضلالة ابن تيميّة الذي عرفنا التوحيد في كتابه بقوله: «إنّه سبحانه فوق سماواته على عرشه، عليٌّ على خلقه»(٢).

و عاد يقول: ينزل ربّنا إلىٰ سماء الدنيا كلّ ليلة حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر فيقول: مَن يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأُعطيه، من يستغفرني فأغفر له»(٣).

هذه ثقافة الرجل، و تنزيه لله سبحانه وهو صريح في القول بالتجسيم وإثبات الجهة لله سبحانه، وقد تمسّك في ذلك بظواهر الآيات والأحاديث النبويّة من دون أن يتعمّق في الآيات الواردة في ذلك الموضوع و من دون أن يحقّق في اسناد الأحاديث

---

(١) سورة آل عمران: آية ٦٤ .

(٢) مجموعة الرسائل الكبرىٰ لابن تيميّة، العقيدة الواسطيّة ص٤٠١.

(٣) المصدر السابق: ص٣٠٩.

ومضامينها فاذا كان هذا رأي الأُستاذ، فكيف بمن يلحس قصاعه و يجلس علىٰ موائده أمثال ابن القيّم ومحمّد بن عبدالوهّاب وهؤلاء يريدون أن يكونوا أساتذة التوحيد ودعاته.

ولله دَرُّ القائل:

ومِنْ عجب الدنيا حكيم مصفرَّ
وأعْمشُ كحّال وأعمىٰ مُنجّم
وقارؤنا تركيّ وهنديّ خطيبنا
تعالوا على الاسلام نبكي ونلطم

هذه عقيدة القوم في الله سبحانه، فاذا أردنا تقييم هذه الأفكار يجب علينا أن نقارن بينها وبين ما روي عن أئمة أهل البيت في ذلك الصدد، ثمّ نرىٰ أيّ الفريقين أحقّ أن يُتَّبع.

أفَهَل من يصف الله سبحانه بالتجسيم والجهة والنزول إلى السماء الدنيا أم من يصفه بقوله: «الحمدلله الذي لا يبلُغَ مدحتَه القائلون، ولا يَحصي نعماءَه العادّون، ولا يؤدّي حقّه المجتهدون، الذي لا يدركه بُعدُ الهمم، ولا يناله غوصُ الفطن، الذي ليس لصفته حدّ محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل محدود، فمن وصف الله فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه،ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشارإليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال: فيمَ فقد ضمّنه، ومن قال: علامَ فقد أخلىٰ منه، كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كلّ شيء لا بمقارنة، وغيرُ كلّ شيء لا

بمزايلة...»(١).

و أنت إذا قارنت ما نُقل عن أصحاب الحديث في مجال توحيده وتنزيهه سبحانه لقضيت منه عَجَباً، فهذا الإمام الأشعريّ ينقل عنهم أنّ معنىٰ توحيده سبحانه في الخالقيّة، أنّ سيّئات العباد يخلقها الله، وأنّ أعمال العباد يخلقها الله عزّوجل، وأنّ العباد لايقدرون أن يخلقوا منها شيئاً(٢).

إنّ ابن تيميّة و مَن لَفَّ لَفّه يصفون أنفسهم بأهل الحديث ويفسّرون التوحيد في الخالقيّة بهذا المعنىٰ، أفهل بعد هذا يمكن لهم تنزيهه سبحانه عن الظلم والجور والتعدّي والتجاوز، فإذا كان هو الخالق لسيّئات العباد، وليس للعباد فيها صنع، لا استقلالاً ولا تَبَعاً،فلماذا يعذّبهم؟ أوَلَيس هذا من مقولة قولِ القائل: «غيري جنا وَأنا المعاقب فيكُمُ».

و أنت خبير بأنّ التوحيد في الخالقيّة ليس بالمعنى الذي ذكره أصحاب الحديث، وفي مقدّمتهم ومؤخّرتهم :الجبريّة وابن تيميّةوأشياعه.

بل معناه، انّ الخالق المستقلّ والمؤثّر الغنيّ عن كلّ شيء هوالله سبحانه، ولكن هناك فواعل ومؤثّرات تؤثّر بإذنه سبحانه، وتخلق بأمره، وتقوم وتقعد بحوله وقوّته، فالانسان هو المسؤول عن أعماله وأفعاله: «كلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَت رَهينَة» (٣).

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة الاولىٰ.

(٢) مقالات الاسلاميّين: ص٣٢١.

(٣) سورة المدّثر: آية ٣٨.

تزلّف علماء الوهّابيّة إلى السلاطين

نرى أنّ علماء الوهّابيّة في السعوديّة، وغيرها يتزلّفون إلى أصحاب السلطات، وخلفاء الجور ويسعون في تبرير أعمالهم الظالمة، ومواقفهم الجائرة، ويجتهدون في إضفاء طابع الشرعيّة على كلّ ما يصدر من حكّامهم وأُولي أمرهم بَرّاً كان أو فاجراً.

و لا عَجَبَ في ذلك لأنهم هم الذين يرون الصلاة خلف كلّ إمام برٍ وفاجرٍ صحيحة، والدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح فريضة، والخروج عليهم عند الانحراف محرّمة(١).

و أينَ هم من قول رسول الله -صلّى الله عليه وآله- حسبما نقله عنه سبطه الحسين بن عليّ أبوالشهداء إذ قال: «أيّها الناس إنّ رسول الله -صلّى الله عليه وآله- قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لِحرَمُ الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنّة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعلٍ ولا قولٍ، كان حقّاً على الله أن يدخلَه مدخله»(٢).

قل لي بربّك أيّ القولين وأيّ المنهجين ينبع من صميم الإسلام، ويُجسّد رؤيته ونظريّته. قال سبحانه: «ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار» (٣).

(١) المصدر السابق: ص٣٢٢. وهو عقيدة أصحاب الحديث وابن تيميّة وأتباعه من هذه الفرقة.

(٢) تاريخ الطبري: ج٤ ص٣٠٤، حوادث سنة إحدى وستين.

(٣) سورة هود: آية ١١٣.

الثورة الإسلاميّة و هجمة الوهّابيّة

لقد أحدث نجاح الثورة الإسلامية في إيران زلزالاً كبيراً في المنطقة، وأقلق جميع الأنظمة الحاكمة فيها، وبالأخصّ ما يتّصل منها بالقوى الكبرىٰ، وتعتمد عليها كلّ الجهات والدوائر الإستعماريّة، ومن هذه الأنظمة النظام الوهّابي الحاكم علىٰ قطر كبير من الأقطار الإسلاميّة يزخر بأضخم الثروات الطبيعيّة، ويتمتّع بموقع جغرافي خاصّ.

فعمد الإستعمار البغيض وَ أذنابه وعملائه وفي مقدّمتهم دعاة الوهّابيّة إلى الوقوف في وجه الثورة الإسلاميّة وتيّارها بشتّىٰ الوسائل من ايجاد القلاقل في داخلها، وإشعال نيران الحرب في وجهها، وفرض الحصار الإقتصادي عليها، ولمّا فشلت جميع هذه المخطّطات المناهضة للثورة عَمَدوا إلى تشويه ثقافة الثورة ومسخ مفاهيمها ورميها بأكاذيب ونسب مفتعلة لمنع الناس من اتّباع نهجها، والاقتداء بها، وبقائدها.

و قد تمثّل هذا المخطّط العدواني على ثقافة الثورة الإسلامية في أُمور:

١ ـ تحريك إذاعات و صحف مختلفة في شتّىٰ أقطار العالم للتحدّث ضدّ الثورة، والتشويش عليها، وتشويه ثقافتها الواقعيّة.

٢ ـ طبع رسائل و كتب كثيرة جدّاً حول ثقافة الثورة بأيدي رجال وكُتّاب مأجورين لايهمّهم إلّا علفهم، وإلّا مناصبهم الدنيويّة، وفي مقدّمتهم كيذبان أشوس هو إحسان إلٰهي ظهير، وهو من مرتزقة السعوديّة في المنطقة.

فقد قام بكلّ ما يملك من القوى، و بكلّ ما تقدّمه السعوديّة من العُدّة بتشويه ثقافة الثورة بين المسلمين، والمسكين فقير في كلّ شيء حتى في مايدّعيه من المعرفة بمذهب الشيعة الإماميّة، فجعل يخلط ويخبط، ولا يميّز بين الأصل والفرع ولا بين العقيدة والرواية، ويستدلّ بالرواية على كونها مذهب الشيعة.

أضف إلىٰ ذلك كثيراً من أكاذيبه وافتعالاته واستنتاجاته الزائفة. فلنا مع الرجل موقف آخر في كتاب مستقل.

٣ ـ نشرُ المذهب الوهّابيّ بين الشباب في المنطقة بأساليب مختلفة، مصرّحين بأنهم هم المسلمون الموحّدون العاملون بالكتاب والسنّة، وغيرهم بُعَداء عن ذلك.

فلأجل ذلك وضعنا تلك الرسالة في تبيين المذهب الوهّابيّ، وأوضحنا فيها قيمة ما تقوله الوهّابيّة ومدى بُعدها عن الكتاب والسنّة وسيرة المسلمين.

و في الختام نقترح على علماء الإسلام المتواجدين في جميع الآفاق والأقطار أوّلاً، وعلى كتّاب الوهّابيّة ثانياً القيام بعقد مؤتمرٍ عالميّ إسلامي يضمّ علماء المسلمين من كافّة الطوائف الإسلاميّة لدراسة هذه المسائل على ضوء الكتاب والسنّة، ونشر نتائج ذلك المؤتمر في الملأ الإسلامي، حتّى يتبيّن الحقّ بأجلى مظاهره، ويُتّبع، والحقّ أحقُّ أن يُتّبع، والله هو الموفّق والمعين.

جعفر السبحاني

قم المشرفة

١/صفر المظفر/١٤٠٥

مقدّمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحاجه إلى مؤتمر عالميّ إسلاميّ
لدراسة التوحيد والشرك

إنّ الكعبة أوّل بيت بُني لعبادة الله و توحيده فيه، وقد وضعت أُسسه وقواعده قبل عهد نوح النبيّ عليه السّلام وينبّئنا عن ذلك قول الله سبحانه: «إنَّ أوّلَ بَيتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ لَلذي بِبَكّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلعالَمينَ»(١).

و لقد تعرّضت الكعبة المعظّمة بعد ذلك ـ وبسبب الطوفان ـ لِما أوهى بُنيانَها، وصَدّع جدرانها، فلّما جاء النبيّ إبراهيم الخليل ـ عليه السّلام ـ عَمَدَ إلى بنائها كما يخبرنا سبحانه عن ذلك إذ يقول: «وَإذْ يَرْفَعُ إبراهيمُ القَواعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإسماعيلُ»(٢).

وبعدَ ما أرسىٰ الخليلُ ـ عليه السّلام ـ قواعدَها وأعاد تشييدَها وَجَّه الدَعوَةَ ـ و بأمرٍ من الله ووحيه ـ إلى كلّ الموحّدين لزيارة هذا البيت والحجّ اليه، قال تعالى: «وَأذِّنْ في النّاسِ بِالحجِّ»(٣).

---

(١) سورة آل عمران: آية ٩٦.

(٢) سورة البقرة: آية ١٢٧.

(٣) سورة الحج: آية ٢٧.

و قد جعل الله بيته الحرامَ مركزاً لاجتماع المؤمنين و دارَ أمنٍ للموحّدين، فيجب أن لا يتوجّسَ أحدٌ عنده خيفةٌ، ولا يخشىٰ خَطراً، ولا يخافَ ظلماً، كما يدلّ عليه قولهُ تعالى: «وَإِذْ جَعَلْنا البَيْتَ مَثابَةً لِلنّاسِ وأمناً» (١).

على أنّه تعالى قد جعل زيارة بيته الحرام ضماناً لاستمراريّة حياة المؤمنين، وصارت إقامة مراسم الحجّ تؤمّن الحياة الفرديّة والاجتماعيّة، المادّية والمعنويّة لهم.

«جَعَلَ الله الكعْبَةَ البيت الحرامَ قِياماً للناس»(٢).

و في ضوء هذه الآية الكريمة يقول الإمام الصادق ـ عليه السّلام ـ:

«لا يَزالُ الدينُ قائماً ما قامَتِ الكعْبةُ»(٣).

إنّ مزايا زيارة بيت الله الحرام اكثر من أن نتحدّث عنها في هذه المقدّمة، ولكنّ الشيء الذي نودّ الإشارة اليه هو الوضع الذي تعيشه «الكعبة» اليوم، وهي في قبضة من يعتبرون أنفسهم «خَدَم الحرمين الشريفين» و يفتخرون بذلك.

إننا ـ وانطلاقاً من المزايا التي خصَّ الله بها الكعبة ـ نتساءل عن أمرين هامّين:

الأوّل: هل تُعتبر مراسم الحجّ ـ اليوم ـ «قياماً للناس» بالفعل؟

---

(١) سورة البقرة : آية ١٢٥، وراجع سورة القصص: آية٥٧.

(٢) سورة المائدة: آية ٩٧.

(٣) وسائل الشيعة: ج٨ ص١٤.

هل إنّ زيارة الكعبة و اجتماع أكثر من مليوني مسلم حولها، أمَّنتِ الحياة الماديّة والمعنويّة لهم وضمنت استمراريّة حياتهم؟

اذا كان الأمر كذلك حقيقة، فتعالوا لنتساءل: في أيّ موسم -من مواسم الحجّ السنويّة- تحدَّث خطباء الحرمين عن المسائل الحيويّة للمسلمين؟!

و هل طُرحت قضايا المسلمين و مشاكلهم على بساط المناقشة والمعالجة في هذه الاجتماعات العظيمة؟!

و متى عالَج خُدّام الحرمين و خطباؤهم قضايا المسلمين ومآسيهم؟!

و كنموذج من الوضع المأساوي الذي تمرّ به الكعبة الشريفة أذكر هذه القضية:

في سنة ١٣٩٦هـ تشرّفتُ لزيارة بيت الله الحرام وأداء العمرة، مع مجموعة من براعم حفّاظ القرآن الحكيم وذلك للمشاركة في مسابقة حفظ القرآن.

في تلك الأيام كانت الإذاعات و وسائل الإعلام تنشر نبأ احتلال إسرائيل لجنوب لبنان، وعمليات القمع الوحشي التي قامت بها إسرائيل على الفلسطينيين وغيرهم.

و في يوم الجمعة حضَرنا في مركز تحفيظ القرآن الكريم الكائن بجنب الحرم الشريف، و بعد انتهاء جلسة المسابقة ارتفع صوت الأذان وحان وقت الصلاة، واستقرّ خطيب الجمعة على المنبر لإلقاء الخطبة.

كنت أتصوَّر أنّ هذا الخطيب سوف يتحدّث عن قضية الساعة ـ وهي احتلال جنوب لبنان وما يجب القيام به على المسلمين تجاه هذاالغزو الصهيونيّ التوسّعي ـ ولكن سرعان ما تبدّل الظنّ الحسَن الى يقين سيّىء، إذ أن الخطيب بدأ يتحدّث عن النظافة و استحبابها وآثارها الحسنة وعن آداب المسجد وصلاة الجمعة وما شابه ذلك، ولم يتحدّث عن قضيّة الساعة حتى بحرفٍ واحد.!!

كان جالساً الى جانبي رجل من شخصيات مصر، من الاخوان المسلمين الهاربين من مصر والملتجئين الى الحجاز، فقلت له: هل كانت هذه الخطبة مناسِبة للوضع الذي يعيشه المسلمون اليوم؟

و لأن الرجل كان مُنصفاً فقد شاركني في الأسف والانزعاج.

و على ما يبدو فانّ خُطَب صلاة الجمعة كلّها تخضع ـ قبل كلّ شيء ـ للرقابة والتفتيش، والحكومة هي التي تعيّن الخطوط العامّة للخطباء، حتى لا يتجاوزوا ذلك النطاق... فلا حديثَ عن الاستعمار و مكائده ضدّ الاسلام، ولا كلام عن أعداء الاسلام و أوضاع المسلمين، ولا... ولا...

أمّا الحديث عن الشيعة و «المجوس!!» فهو الى ماشاء الشيطان!

و قد صدر ـ بعد الثورة في ايران ـ كتاب اسمه: «وجاء دَور المجوس»!!!

بعد ذكر ما سبق، هل يصحّ أن يُقال: إنّ حكّام نجد والحجازهم خدّام حرم الله وأُمناء بيت الله؟!

وهل صارت الكعبة «قياماً» للعالَم الاسلامي في عهدهم؟!

الثاني: هل الحرم الإلٰهي دار أمن وأمانٍ في الوقت الحاضر؟

إنّ القرآن الكريم يعتبر مكّة و نواحيها حرَم «أمن» إلٰهي فيقول سبحانه:

«وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً»(١).

و إنّ إبراهيم الخليل ـ و هو أبو المسلمين جميعاً ـ سأل ربّه أن يجعل الحرم منطقة أمن وأمان فقال عزّ من قائل:

«رَبِّ اجْعَلْ هٰذاَ البَلَدَ آمِناً»(٢).

والآن نتساءل: هل أنّ خدّام الحرمين هم ـ بالفعل ـ حماة لهذا التشريع الإلٰهي؟!

هل يملك المسلمون ـ على اختلاف مذاهبهم واتّجاهاتهم ـ الحريَّة في أن يُعالجوا قضاياهم السياسيّة ويتبادلوا وجهات نظرهم في الحرم الشريف؟!

هل يستطيع المسلمون ـ المجتمعون حول الكعبة ـ من أنْ يبثّوا آلامهم ويُطْلع بعضُهم الآخر على أوضاعهم ومآسيهم؟!

هل الأمر كذلك، أم أنّ حريّة الكلمة و إبداء الرأي تُمنح للمذهب «الحنبلي» فقط من بين المذاهب الإسلاميّة؟!

---

(١) سورة آل عمران: آية ٩٧.

(٢) سورة إبراهيم: آية ٣٥.

ولا يُسمح بنشر الأفكار والمعارف العالية في الإسلام إلّا الأفكار الجوفاء الهزيلة لابن تيميّة وابن القيّم... وبالتالي: أفكار محمّد بن عبدالوهّاب!!

ولا يُتحدّث ـ في خطب الجمعة وغيرها ـ عن أيّ موضوع إسلامي سوىٰ «زيارة القبور» و «تحريم الاحتفال بمولد الرسول» و «حرمة تعظيم أولياء الله تعالىٰ» وكأنَّ الإسلام ينحصر في هذه المواضيع فقط!!

ومن يخالف أفكارهم الباطلة، فجزاؤه الحكم بكفره و شركه، وأنه يجوز شتمه وضربه ولعنه، وأنه كافر.. مشرك... و...

فهل هذا معنى قوله تعالىٰ: «حَرَماً آمِناً»؟!

وهل نخالف الواقع إذا قلنا: إنّ «الكعبة» اليوم ترزح تحت وطأة «...»؟!

إنّ الفكرة الوهّابيّة قائمة على أساس تكفير المذاهب والفِرق الإسلامية، وزرع التفرقة بين المسلمين، وتشويه سمعة الإسلام وتعاليمه السمحة، وسحق آثار الوحي والرسالة، والمصالحة والمجاملة مع كلّ الطغاة والحكّام الفسقة الفجرة.. حتى مثل يزيد بن معاوية!!

والخطباء والمؤلفون ـ الذين تستخدمهم السلطان الوهّابيّة ـ ليسوا إلّا خطباء مستأجرين للبلاط، ووعّاظاً للسلاطين، لا يقولون ولا يكتبون إلّا بما يشتهيه أسيادهم من الوهّابيّين السَلفيّين

الغرباء عن الدين.

أيّها القارىء الكريم: لعلّك تتصوّر أنّنا قد بالَغْنا في التعبير وابتعدنا عن جادّة الحقّ والانصاف فيما ذكرناه عن هذه الزمرة.

و لكي لا تظلّ في التيه، ولا تتّهمنا بالإسراف في التعبير فإنّنا نضع أمام عينيك صورة غلاف إحدىٰ الكتب التي طبعتها الحكومة السعوديّة ونشرتها بصورة واسعة، وهذا الكتاب هو تعظيم وتقديس لرجل رمىٰ جيشُه الكعبة بالمنجنيق! (١) وأباح مدينة رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ لجيشه ثلاثة أيّام كاملة، ينهبون الأموال ويهتكون الأعراض ويقتلون الأنفس!

و ترى بعينيك مكتوباً على الغلاف أنّ وزارة المعارف في الحكومة الوهّابيّة هي التي تكفّلت طبع ونشر هذا الكتاب الباطل.

---

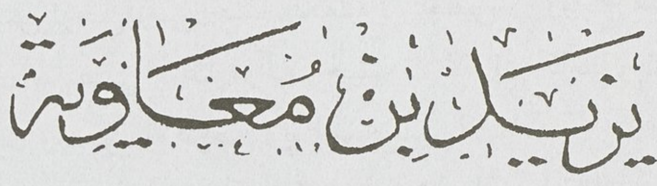
(١) المنجنيق: آلة حربية تُرمىٰ بها الأحجار والقذائف.

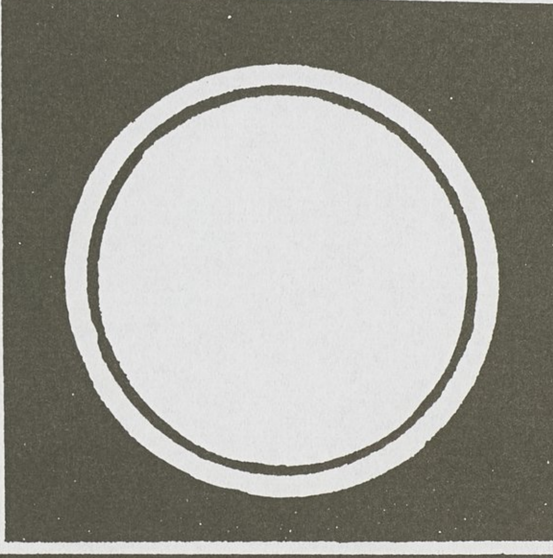
المملكة العربية السعودية

وزارة المعارف

المكتبات المدرسية

حقائق عن أمير المؤمنين





بعد ذكر ما سَبق... نقول: إنّ في الحجاز حريّة مطلقة بلا حدود، وفي نفس الوقت فيه خنْق وقيود بلا حدود.

أمّا الحريّة المطلقة فهي للوهّابيّة وَ من يتعاون معها من المرتزقة، فالكتب والمطبوعات المحشوّة بتمجيد الظالمين وتعظيم الفسقة الأُمويين والعبّاسيّين، هذه الكتب تُطبع وتُنشر بلا أيّ قيد أو شرط، بل انّ الحكومة تساهم في طبعها ونشرها.

و أمّا الخنق والضغط والكبت والمنع والحرمان فهو للمطبوعات التي تتحدّث عن الإسلام - كما نَزل من عند الله تعالىٰ - وعن أهل البيت الذين جَعلهم الله عِدْلاً للقرآن وأنزل القرآن في بيوتهم وطهّرهم من الرجس تطهيراً.

نعم... إنّ كلّ كتاب يدخل الحجاز لابدّ وأن يخضع للرقابة والتفتيش، ولا يُسمح بدخوله في تلك البلاد إلّا بعد موافقة وزارة «الاعلام!!».

إنّني في العام الماضي - سنة ١٤٠٤هـ - تشرّفتُ للحجّ وزيارة المراقد المقدّسة للنبيّ وآله الطاهرين - عليهم السّلام - في المدينة المنوّرة. في مطار المدينة كان معي عشر نُسخ من كتاب «مصدر الوجود» وهو كتاب يبحث عن الأدلّة الفطريّة والعقليّة لوجود الله سبحانه، وكان الهدف من حمل هذه النسخ إلى تلك البلاد هي المساهمة في نشر التوحيد والايمان بالله تعالىٰ هناك. ولكن المؤسف أنّ المسؤول عن المطبوعات في المطار حَكم «بإلقاء القبض» على هذه النسخ وتوقيفها حتى إشعار آخر!!

وقال لي -بعد مطالعة إجماليّة للكتاب-: بالرغم من أن هذا الكتاب مفيد ورائع إلّا أنه لابدّ من إرساله إلى وزارة الإعلام، وعليك باستلامه منهم.

نعم، هذا معنى قوله تعالىٰ: «بَلَداً آمِناً» !!!

* * *

كلمة «الشِرك» تُلاحقك عن يمينك ويسارك

إنّ من جملة الكلمات الرخيصة المتداولة في السعودية هي كلمة «الشرك» وتوجيه هذه التهمة إلى كثير من العلماء والشخصيّات الإسلامية!

اذا التقيتَ برجال «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!» فإنّ أكثر ما تسمعه منهم هي هذه الكلمة القاسية وأمثالها، وكأنّه لا يوجد في قاموسهم سوىٰ هذه الكلمات المنفِّرة البذيئة، وكأنه لا مهمّة لهم سوىٰ توجيه هذه التهمة إلى ضيوف الرحمان وحُجّاج بيت الله الحرام!!

في خلال كتابة هذه المقدّمة، وصلني كتاب «الشيعة والتشيّع» لمؤلّف باكستاني حاقد، من مرتزقة الوهّابيّة اسمه: إحسان إلٰهي ظهير، وقد طبع في السعوديّة، وفيه يكيل المؤلّف التهم والافتراءات على الشيعة، ويزعم أنّه يروي عن كتبهم ومصادرهم.

فترىٰ - مثلاً - في ص ٢٠ من الكتاب، يذكر كلمة للمرحوم الاستاذ الجليل الشيخ محمد حسين المظفّر، ثمّ يشرحها حسب

هواه، وبما تمليه عليه نفسه الأمّارة بالسوء!.

و فيما يلي نَضع نَصب عينيك -أيّها القارئ الكريم- تلك الكلمة مع شرح هذا الوهّابيّ، لترىٰ بنفسك كيف يلجأ الوهّابيّون -المفلسون من الدليل- إلى أُسلوب التهمة والافتراء والكذب على الشيعة.

يقول المرحوم المظفّر:

«... فكانت الدعوة للتشيّع لأبي الحسن -عليه السّلام- من صاحب الرسالة -صلّى الله عليه وآله وسلّم- تمشي منه جَنباً لجنب مع الدعوة للشهادتين».

و معنى كلامه -رحمه الله- إن التشيّع ليس وليد الظروف ولا مذهباً مبتدَعاً، بل هو مذهب أصيل يمدُّ جذوره إلى زمن صاحب الرسالة محمّد -صلّى الله عليه وآله وسلّم- فكان النبي يدعو الىٰ إمامة أمير المؤمنين -عليه السّلام- الى جانب الدعوة للشهادتين.

ثمّ يعمد هذا الوهّابيّ الأثيم إلى التعليق على كلمة الشيخ المظفّر فيقول:

«إنّ النبيّ - حسب دعوىٰ المظفّري- كان يجعل عليّاً شريكاً له في نبوّته ورسالته»!!.

إذا لم يكن هذا الكاتب أسيراً للهوىٰ والعصبيّة، ومرتزِقاً للوهّابيّة، وإذا كان مطّلعاً على مبادئ العقائد الإسلامية الشيعيّة وأوّليّاتها، لما كان يصدر منه هذا التعليق السخيف، ولا انتقد الشيخ المظفَّر العالِم الجليل.

ثمّ إننا نقول: اذا كانت الدعوة الى إمامة علي -عليه السّلام- تُعتبر دعوة الى الشرك أو الىٰ المشاركة في النبوّة، فهذا القرآن الكريم قد سبق الى ذلك، فقد دعا الى طاعة الله ورسوله وطاعة «أُولي الأمر» في سياق واحد، فقال سبحانه:

«أَطيعُوا اللهَ وَأَطيعوا الرّسولَ وأُولي الأمرِ مِنكُم»(١).

فعلىٰ رأي هذا الكاتب الوهّابيّ فإنّ رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- بَدَل أن يدعو الىٰ التوحيد دعا الى الشرك والثنويّة، لأنه قرن بين طاعة أولي الأمر وطاعة الله تعالىٰ، لأن كلمة «أُولي الأمر» -كيفما فسّرناها- تشمل الإمام عليّاً -عليه السّلام- قطعاً، بل هو من مصاديقها البارزة.

و قد ذكر المؤرّخون والمفسّرون والمحدّثون أن رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- لمّا نَزل عليه قوله تعالىٰ: «وأَنذِرْ عَشيرَتَك الأَقرَبينَ»(٢) دعا أقرباءه الى مأدبة طعام في داره، ثمّ أعلن فيهم نبأ نبوّته ورسالته، وبعد ذلك قال:

«فأَيّكُم يُؤازِرُني علىٰ هٰذا الأمر عَلىٰ أن يَكونَ أخي وَوَصيّي وَخَليفتي فيكُم؟».

فلم يقم أحدٌ منهم إلّا الإمام عليّ -عليه السّلام- فقال:

«أنا يا رسولَ الله».

فكرّر النبي -صلّى الله عليه وآله وسلّم- كلامه مرّة ثانية و ثالثة، كي يترك لهم فرصة اتّخاذ القرار.. ولم يجبْه أحد إلّا

(١) سورة النساء: آية ٥٩.
(٢) سورة الشعراء: آية ٢١٤.

أمير المؤمنين -عليه السّلام- فقال النبي:

«إنّ هذا أخي وَوَصِيّي وَخَليفَتي فيكم، فاسْمَعوا له وأَطيعوا»(١).

فانطلاقاً من هذه الحقيقة التاريخية يقول الشيعة بأن من ذلك اليوم الذي أُمر فيه النبي -صلّى الله عليه وآله وسلّم- بالدعوة الى التوحيد والرسالة، أُمر فيه أيضاً بالدعوة الى إمامة علي -عليه السّلام- وخلافته من بعده، فكانت الدعوة الى الايمان بالرسالة مقرونة بالدعوة الى الايمان بالإمامة.

فهل يصحّ أن يُقال: إن الشيعة تعتقد بأن عليّاً كان شريكاً مع النبي في النبوّة؟!!

و هل الدعوة الى خلافة الإمام علي -عليه السّلام- بعد وفاة الرسول -صلّى الله عليه وآله- معناها الدعوة الى النبوّة؟!

الأخطاء في كُتب أهل السُنَّة

نعم، إن النقص و الخطأ في كتب أهل السنّة -وخاصّة الوهّابيّين السلفيّين- يعود الى أمرين:

الأول: عدم توفّر المعلومات الكافية لديهم عن هذا المذهب الحق، وهذا النقص عندهم لا يختصّ بزماننا هذا، بل يعود الى قرون بعيدة في التاريخ، ولعلّ السبب في ذلك هو ما كانت

(١) مصادر هذا الحديث مذكورة في كتب المؤرّخين والمحدّثين والمفسّرين، وهو معروف عندهم بـ« يوم الانذار» و «بدء الدعوة» وممّن رواه: الطبري في تاريخه ج٢ ص٦٣ طبعة مصر.

تمارسه الحكومات الجهنميّة -من أمويّة وعبّاسيّة وغيرها- من الضغط على الشيعة وكبْت حريّاتهم وعدم السماح لهم ببيان عقائدهم الحقّة في المحافل والمجامع العلميّة، كي يتعرّف الناس على التشيّع من أفواه أوليائه لا من مخاريق أعدائه.

إن التاريخ يثبت لنا أن جميع المذاهب كانت تملك الحريّة في إبداء الرأي وتبيان العقيدة إلّا هذا المذهب الحق فإنه كان ممنوعاً من ذلك.

نعم، هبّ على الشيعة نسيم من الحريّة في فترات وجيزة لم تكن كافية لتحقيق هذا الهدف.

وعلى كلّ حال، فالجهل بمذهب الشيعة -والحقد أحياناً- صار سبباً لاختلاف هذه الأكاذيب والافتراءات وملأ الكتب بها وتشويه سمعة هذا المذهب الحق.

ولقد اعترف أحمد أمين المصري -صاحب كتاب فجر الاسلام- بهذا الأمر، بعد أن نشر كتابه مشحوناً بالأكاذيب والافتراءات ضدّ الشيعة، ثمّ زار مدينة النجف الأشرف، فعاتَبه بعض العلماء على هفواته ومغالطاته ضدّ الشيعة، وكان أقصىٰ ما عنده من الاعتذار هو عدم الاطّلاع وقلّة المصادر!

الثاني: تغيّر المناهج التعليميّة في المجامع العلميّة لأهل السُنّة، واستبدال الكتب العميقة -مثل كتاب المواقف وشرح المقاصد- بالكتب السطحيّة القشريّة. وقدأدّى ذلك الىٰ السطحيّة في التفكير والتأليف وغياب التعمّق الفكري، حتى أنه لم يوجد في

كثير من البلاد الإسلاميّة من يُحسن تدريس هذين الكتابين اللذين كُتبا في القرن الثامن الهجري.

من هنا، فليس عجيباً أن نرىٰ «إحسان الهي ظهير» -على سبيل المثال لا الحصر- يخبط هذه الخبطة العشواء، فلا يفرّق بين الدعوة الى الإمامة والدعوة الى النبوّة، وأن يكتب كتاباً حول الفِرق في التأريخ وينشره مدعوماً بأموال البترول الذي تبزّه حكومة الاحتلال الوهّابي في الحجاز، هذا مع العلم أن الكاتب جاهل بمبادئ عقائد الشيعة.

قليلاً من التعمّق في التفكير

يقول حفيد رسول الله الامام الصادق -عليه السّلام-:

«العالِمُ بِزَمانِهِ لا تَهجِمُ عَليهِ اللَوايِسُ».

على ضوء هذا الحديث الشريف، علينا أن نفكّر في الوضع المأساوي والحوادث المُرَّة التي يمرّ بها العالم الاسلامي اليوم، علينا أن نعرف العدوّ الحقيقي للإسلام.

منذ اكثر من مائة عام والحرب الفكريّة ضدّ الإسلام تسعر نارها، والشرق والغرب -بالتعاون مع عملائها في المنطقة- يبذلان قصارىٰ جهودهما من أجل ضرب هذا الدين الحنيف وتشويه سُمعته، ومامن اسبوع أوشهر إلا و يصدر كتاب ضِدّ الاسلام العظيم.

ففي مثل هذه الظروف الأليمة، هل يصحّ ان تُجنّد السعوديّة طاقاتها وإمكانيّاتها ومطبوعاتها في سبيل محاربة التشيّع فقط؟!!

و كأنه ليس في العالم الاسلامي مشكلة سوى التشيّع!!

هذا... ولو كانت تلك الكتب تتحدّث على أساس المنطق والدليل لم نكن نمانع منها ـ في الجملة ـ لأن المنطق مقبول عند علماء الشيعة، فهم إمّا يسلّمون به أو يردّون عليه بالمنطق والبرهان، ولكن ـ ومع كلّ أسف ـ ترى اكثر كتبهم مليئة بالكذب والبهتان والمغالطة والتزوير، ضدّ الشيعة وضدّ علمائهم الأبرار ـ رضوان الله عليهم ـ.

بل ترى في بعضها ما لا يخلو من الإهانة وسوء الأدب تجاه إمام المتّقين وأمير المؤمنين سيّدنا ومولانا علي ـ عليه السّلام ـ.

و خذ مَثلاً من ذلك: كتاب «الشيعة والتشيّع» المشار اليه، فهو نموذج بارز من تلك الكتب المنحرفة، فترىٰ المؤلّف ـ نقلاً عن الطبري وابن كثير وابن خلدون وغيرهم من أعداء الحق ـ يعتبر التشيّع وليدة أفكار عبدالله بن سبأ اليهودي، ثمّ يستشهد بما كتبه أحمد أمين المصري ـ في كتاب فجر الاسلام ـ ضدّ الشيعة، ثم يُكمل الشوط بالاستشهاد بمقالات المستشرقين ـ من يهود ونصارىٰ ـ كـ: «دوزي» و«ملّر» و«ولهاوزن»، ولكنه لا يذكر شيئاً من كتب الشيعة، فهل هذا من الانصاف في شيء؟!

إن علماء الشيعة القدامىٰ ـ كالشيخ الصدوق المتوفّىٰ سنة ٣٨١هـ، والشيخ المفيد المتوفّىٰ سنة ٤١٣هـ وغيرهما ـ قد كتبوا عقائد الشيعة ونشروها بين الناس، وهاهي متوفّرة في المكتبات، وهي تعكس الصورة الحقيقيّة لعقائد الشيعة، فلماذا لا يعتمد عليها في النقل؟!

أليس «أهل البيت أدرىٰ بما فيه»؟!

و هل أحمد أمين المصري ـ الغريب عن التشيّع والجاهل به باعترافه ـ أعرف بهذا المذهب الحقّ من علمائه الأبرار؟!

و ترى هذا الكاتب الوهّابي الأثيم يُحاول ان يُبرّر ما ارتكبه ضدّ الشيعة من الاعتماد علىٰ كتب أعدائهم فيقول: إن هذه الكتب ـ أي كُتب عقائد الشيعة ـ هي كتب إعلاميّة دِعائيّة للشيعة، أمّا عقيدتهم الواقعيّة فليست مذكورة في هذه الكتب!!

و الأسوء من ذلك أنه يأتي الى حديث مذكور في كتاب «بحار الأنوار» و«الأنوار النعمانيّة» ويعتبره دليلاً على عقيدة الشيعة، مع العلم أن ممّا لا شكّ فيه هو وجود أحاديث ضعيفة في كتب السنّة والشيعة، هذا ما نعلمه جميعاً، وذِكر حديثٍ واحد لا يكون دليلاً علىٰ عقيدة قومٍ ـ بأيّ وجه ـ فهناك الراوي الضعيف والكذّاب والمجهول ، فلا يمكن الاعتماد على حديث إلّا بعد التحقيق في سَنده ورواته.

و لنا أن نسأل هذا الوهّابي الأجير و أمثاله من المرتزقة: هل أن كلّ ما جاء في تاريخ الطبري مُعتبر وصحيح بلا تردّد، أم أن الاعتماد على ما يرويه يتوقّف على التحقيق في اسناده؟!

إن ممّا لا شكّ فيه هو وجود رواة كذّابين ووضّاعين في روايات الطبري، ولسنا الآن بصدد التفصيل في هذا الموضوع، ولكننا نذكر نموذجاً من ذلك:

في كتاب «الشيعة والتشيّع» ص٤٩ يتّهم المؤلّفُ الشيعةَ بأنها

استلهمت أفكارها من عبدالله بن سبأ، المتولّد من يهوديّ يَمني، والذي يعتقد فيه الطبري أنه أظهر الإسلام وأبطن اليهوديّة، واتّخذ من محبّة الإمام علي غطاء لنشر أفكاره. ولكنْ: هل أن عبدالله بن سبأ كانت له حقيقة في هذا الوجود يوماً مّا، أم أنه رجل مختلق نسجَتْه أفكار أعداء الشيعة للطعن على هذه الطائفة الحقّة؟! فهذا ما لانبحث عنه الآن.

فترىٰ الكاتب الوهّابي يعتمد على ما يرويه الطبري حول هذا البهتان. أمّا سَند الرواية التي يرويها الطبري فهي كالتالي ـبالنصّـ:

«كَتب إليّ السريّ عن شعيب عن سيف عن عطيّة عن يزيد الفقعسي: كان عبدالله بن سبأ يهوديّاً من أهل صنعاء...»(١).

نحن الآن نضع سَند هذه الرواية على طاولة البحث والتحقيق، لنرى هل يجوز الاعتماد على رواية هؤلاء الرواة ـالمذكورة أسماؤهم هناـ أم لا؟

نظرة عاجلة في كُتب علم الرجال ـالتي كتبها علماء السُنّهـ تكفينا لمعرفة أحوال هؤلاء الرواة . وإليك التحقيق:

١ ـ السري: سواء كان السري بن إسماعيل الكوفي أو السري بن عاصم المتوفّىٰ ٢٥٨ كلاهما من الكذّابين والوضّاعين(٢).

---

(١) و قد رواها أيضاً: ابن خلدون المغربي و ابن كثير الشامي ومن على شاكلة الطبري من أعداء أهل البيت.

(٢) راجع تهذيب التهذيب لابن حجر: ج٣ ص٤٦، تاريخ الخطيب: ج٩ ص١٩٣، ميزان الاعتدال: ج١ ص٣٧، لسان الميزان: ج٣ ص١٣.

٢ - شعيب بن إبراهيم الكوفي: مجهول(١).

٣ - سيف بن عمر: يروي الأحاديث الكاذبة و ينسبها الى رواة ثقات(٢).

٤ - يزيد الفقعسي: مجهول لم يُذكر اسمه في كتب الرجال.

و الجدير بالذكر أن الطبري يروي - في الجزء الثالث والرابع والخامس من تاريخه - ٧٠١ رواية حول الحوادث التي حدثت من سنة ١١هـ الى ٣٧هـ، وهي فترة حكومة أبي بكر وعمر وعثمان، وكلّ تلك الروايات مرويَّة عن هؤلاء الخمسة فقط!!

و نتيجة لذلك فقد زوَّر الطبري كثيراً من تلك الحوادث وذكرها كما تُمليه عليه نفسه!!، فهل يصحّ وهل يجوز الاعتماد على مثل هذه الروايات؟!

و ممّا يثير الدهشة اكثر هو أن روايات هؤلاء الخمسة تنحصر في الجزء الثالث والرابع والخامس من تاريخ الطبري فقط، أمّا الأجزاء الأُخرىٰ فلا ترى فيها ذكراً لأسمائهم ولا رواية منهم سوىٰ رواية واحدة فقط في الجزء العاشر!!.

فهل أن المعلومات التاريخيّة لـ«السري» و «سيف بن عمر» كانت منحصرة في حوادث هذه الفترة الزمنيّة فقط، وكانت محدودة بما يرتبط بالمذهب؟!!

نعم، أن كلّ من يمعن النظر في روايات هؤلاء الخمسة

---

(١) ميزان الاعتدال ج١ ص٤٤٧، لسان الميزان ج٣ ص١٤٥.

(٢) ميزان الاعتدال ج١ ص٤٣٨، تهذيب التهذيب ج٤ ص٢٩٥.

يُدرك ـ بوضوح ـ أنها من وضع رجل واحد، وأن من ورائها هدفاً واحداً.

و يبعُد الظنّ أن يكون هـذا الأمر ملتبساً على الطبـري وغائباً عنه . فلـماذا ذكر الطبري كلّ هذه؟

الجواب: إنه الحبّ و البغض الذي يُعمي و يُصمّ!

و مـن المـؤسف جدّاً أن ثلّة مـن المـؤرخين جاءوا بعد الطبري فرووا عنه واقتفَوا أثره، فأوردوا هذه الروايات الموضوعة المزوّرة في تواريخهم، من دون أدنـىٰ تحقـيق في صحّتها ورجال سَندهـا، ظنّاً منهم أن كلّ ما يرويه الطبري إنما هو عين الواقع و واقع الحقيقة.

أُنظـر تـاريـخ ابن عساكر، والـكـامـل لابـن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير، وتاريخ ابن خلدون وغيرها، ترىٰ صحّة ما قلناه.

و هـكذا لم تَسلـم كـتـب الـتـاريخ الحديـثة من هـذا الـتزوير الفضيع والاختلاف المقيت.

و لـكن من حُسن الحظّ أن رجـال السَنـد في روايـات تاريخ الطبري مذكورة، وذلك ممّـا يفسح المجال لمعرفة الرواية الصحيحة وفرزها مـن الرواية الضعـيفة أو المـوضوعة، كما قدّمـنا لك نموذجاً عابراً من ذلك.

و الآن نـعـود الى الحـديـث عن كـتـاب «الشـيـعـة والتشيّع» فنقـول: إن كتابـاً يـعتـمـد على مصادر رواياتُـهـا موضوعـة ورواتها كذّابون و وَضّاعـون ، هذا الـكـتاب لا يملك أدنىٰ قيمـة، ونحن في عصر الدراسات والتحقيق.

فهل يصحّ أن تُنسب طائـفة إسلاميّة عظيمة ـ لها حظّ كبير في

العلوم الاسلاميّة وإحياء السُنّة النبوّية الشريفة، وهي في طليعة المحاربين لإسرائيل الغاصبة -هل صحيح ان تُنسب الى رجل يهوديّ مجهول، اعتماداً على تواريخ هزيلة ثبت كذب رواتها؟!!

القياس الخاطئ

و نسير مع الكاتب الوهّابي -في كتابه التافه- فنراه ينتقد الإمام علي بن أبي طالب -صلوات الله عليه- في صورة استفهام وسؤال عن سبب تسرّعه -عليه السّلام- في عزْل معاوية فور وصوله -عليه السّلام- الى الحكم، ويتساءل: لماذا و لماذا؟

إن الذي دعاه الى الاعتراض هو مقايسته الإمام أمير المؤمنين -عليه السّلام- بالحكّام المصلحيّين الذين لا يفكّرون إلّا في مصالحهم الشخصيّة ويقدّمونها على الأحكام الشرعيّة والتكاليف الإلٰهية، بل يُضحّون بالجانب الشرعي لهدف المحافظة على الرئاسة والسلطة، فالغاية -عندهم- تبرّر الوسيلة.

هذا التفكير الخاطئ هو الذي دعا الكاتب الوهّابي الى الاعتراض على إمام المتّقين -عليه السّلام- في صورة سؤال واستفهام.

نعم، لو كان الإمام أمير المؤمنين علي -عليه السّلام- كسائر الحكّام المصلحيّين، لكان اعتراض هذا الوهّابي وارداً، وكان المطلوب منه أن يترك الفَسقة الظالمين -كمعاوية ونظرائه- يتحكّمون على رقاب المسلمين بما تشتهيه أنفسُهم الشيطانيّة وأهواؤهم الفاسدة،

ولكن الإمام ـ صلوات الله عليه ـ ليس من هذا النوع من الحكّام، كلّا إنه حاكم مخلص يقول في جواب المغيرة بن شعبة ـ ونظرائه ـ «وَلَمْ يَكُنِ الله لِيَراني أتّخذ المُضلّينَ عَضُداً»(١).

أيّها القارئ الكريم: الى هنا نقطع شريط الكلام، والذي نرجوه هو أن يكون هذا الردّ السريع «النموذجي» قد كشف لك عن اتّجاه هذا الوهّابي الحاقد على آل محمّد وشيعتهم، وعن إفلاسه الشديد في المعلومات الدينيّة والعقائد الإسلاميّة الحقّة، وعن مغالطاته وهفواته المقصودة ورواياته الكاذبة، وسوف يتصدّىٰ علماء الدين وحَمَلة الشريعة الحقّة لهذه الحَملات الوهّابيّة الشرسة . ونأمل أن يصدر قريباً الردّ القاطع على أكاذيب هذا الوهّابي الضالّ المضِلّ ،إن شاء الله تعالىٰ.

الىٰ عقد مؤتمر إسلامي

إن من الضروري جدّاً عقد مؤتمر إسلامي، تُعالَج فيه المسائل المختلَف فيها، على ضوء العلم والمنطق والدليل.

ففي الوقت الحاضر يوجد إختلاف كبير بين الوهّابيّة السَلَفيّة وسائر المذاهب الإسلاميّة حول التوحيد والشرك ، أليس من الجدير ـ لهدف التقريب بين الطرفين ـ عقد مؤتمر علمي تُطرح فيه هذه المسائل على بساط البحث والتحقيق، لهدف إزالة الباطل وإحقاق الحق، عسىٰ أن يشعّ منها نور ينير الطريق للتائهين؟

(١) كتاب واقعة صفيّن: ص ٥٨ طبعة مصر.

و يجب أن يَتّخذ هذا المؤتمر طابع الجِدّ والحقيقة، لا أن يكون مجرّد عمل إعلاني تَتّخذ منه وسائل الإعلام مادَّة دسمة للدعاية لصالح حكومة معيَّنة.

و لكي يتمّ هذا الأمر على ما يرام، ينبغي مراعاة الشروط الآتية:

١ ـ أن توجَّه الدعوة الى المفكّرين الإسلاميّين -من مختلف المذاهب الإسلامية- الذين يمثّلون ذلك المذهب، ويُعتبرون -بحق- علماء ومفكّرين له، وأن لا يقتصر على علماء البلاط السعودي، الذين يتواجدون في الهند و باكستان ومصر المظلومة.

٢ ـ و بالإضافة الى ممثّلي المذاهب الأربعة، يجب أن تُوجَّه الدعوة الى علماء ومفكّري الشيعة الاثني عشريّة، والى الطائفة الزيديّة، حتى ينطبع المؤتمر بطابع الشموليّة والعموميّة للمسلمين جميعاً.

٣ ـ يجب منح الحريّة الكاملة لأعضاء المؤتمر، حتى يستطيع كلّ واحد منهم المناقشة حول المسائل المطروحة في الساحة، ويملك الحقّ في الدفاع الحُرّ عن أفكاره ومعتقداته. و يتجنّب المؤتمر كلّ ما يمسّ بكرامة أعضائه، من كلمات السبّ والإهانة الرائجة في البلاد السعوديّة اليوم.

٤ ـ و يجب أن تكون الإدارة -التي تدُير المؤتمر- محايدة تماماً، لا أن تكون منحازة الى جهة خاصّة، والأفضل أن تكون متشكّلة من مختلف المذاهب المشتركة في المؤتمر.

تمارسه الحكومات الجهنميّة -من أُمويّة وعبّاسيّة وغيرها- من الضغط على الشيعة وكبْت حريّاتهم وعدم السماح لهم ببيان عقائدهم الحقّة في المحافل والمجامع العلميّة، كي يتعرّف الناس على التشيّع من أفواه أوليائه لا من مخاريق أعدائه.

إن التاريخ يثبت لنا أن جميع المذاهب كانت تملك الحريّة في إبداء الرأي وتبيان العقيدة إلّا هذا المذهب الحق فإنه كان ممنوعاً من ذلك.

نعم، هبّ على الشيعة نسيم من الحريّة في فترات وجيزة لم تكن كافية لتحقيق هذا الهدف.

وعلى كلّ حال، فالجهل بمذهب الشيعة -والحقد أحياناً- صار سبباً لاختلاف هذه الأكاذيب والافتراءات وملأ الكتب بها وتشويه سمعة هذا المذهب الحق.

ولقد اعترف أحمد أمين المصري -صاحب كتاب فجر الاسلام- بهذا الأمر، بعد أن نشر كتابه مشحوناً بالأكاذيب والافتراءات ضدّ الشيعة، ثمّ زار مدينة النجف الأشرف، فعاتَبه بعض العلماء على هفواته ومغالطاته ضدّ الشيعة، وكان أقصىٰ ما عنده من الاعتذار هو عدم الاطّلاع وقلّة المصادر!

الثاني: تغيّر المناهج التعليميّة في المجامع العلميّة لأهل السُنّة، واستبدال الكتب العميقة -مثل كتاب المواقف وشرح المقاصد- بالكتب السطحيّة القشريّة. وقدأدّى ذلك الىٰ السطحيّة في التفكير والتأليف وغياب التعمّق الفكري، حتى أنه لم يوجد في

كثير من البلاد الإسلاميّة من يُحسن تدريس هذين الكتابين اللذين كُتبا في القرن الثامن الهجري.

من هنا، فليس عجيباً أن نرى «إحسان الٰهي ظهير» -على سبيل المثال لا الحصر- يخبط هذه الخبطة العشواء، فلا يفرّق بين الدعوة الى الإمامة والدعوة الى النبوّة، وأن يكتب كتاباً حول الفِرق في التأريخ وينشره مدعوماً بأموال البترول الذي تبزّه حكومة الاحتلال الوهّابي في الحجاز، هذا مع العلم أن الكاتب جاهل بمبادئ عقائد الشيعة.

قليلاً من التعمّق في التفكير

يقول حفيد رسول الله الامام الصادق -عليه السّلام-:

«العالِمُ بِزَمانِهِ لا تَهجِمُ عَليهِ اللَوايِسُ».

على ضوء هذا الحديث الشريف، علينا أن نفكّر في الوضع المأساوي والحوادث المُرَّة التي يمرّ بها العالم الاسلامي اليوم، علينا أن نعرف العدوّ الحقيقي للإسلام.

منذ اكثر من مائة عام والحرب الفكريّة ضدّ الإسلام تسعر نارها، والشرق والغرب -بالتعاون مع عملائها في المنطقة- يبذلان قصارىٰ جهودهما من أجل ضرب هذا الدين الحنيف وتشويه سُمعته، ومامن اسبوع أو شهر إلا و يصدر كتاب ضِدَّ الاسلام العظيم.

في مثل هذه الظروف الأليمة، هل يصحّ ان تُجنّد السعوديّة طاقاتها وإمكانيّاتها ومطبوعاتها في سبيل محاربة التشيّع فقط؟!!

الفصل الأوّل

لَمحات عن حياة مؤسّس الوهّابيّة

تُنسب الطريقة الوهّابيّة الى الشيخ محمّد بن عبدالوهّاب النجدي، وباسم أبيه «عبدالوهّاب» تُسمّىٰ طريقته. أمّا السبب في عدم تسميتها بـ«المحمّدية» نسبة الى مؤسّسها: محمّد، فهو ـ كما يقول البعض ـ للحذر من وقوع التشابه بينها وبين المسلمين أتباع رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ والحيلولة دون استغلاله(١).

وُلد الشيخ محمّد عام ١١١٥هـ في قرية «عُيينة» إحدىٰ القرىٰ التابعة لـ«نجد» وكان والده قاضياً فيها.

كان محمّد بن عبدالوهّاب ـ منذ طفولته ـ ذا علاقة شديدة بمطالعة كتب التفسير والحديث والعقائد، وقد درس الفقه الحنبلي عند أبيه الذي كان من علماء الحنابلة. وكان ـ منذ شبابه ـ يستقبح كثيراً من الشعائر الدينية التي كان يمارسها أهالي نجد. ولم يقتصر ذلك على نجد بل تعدّاه الى المدينة المنوّرة بعد ما انصرف من

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي: ج١٠ ص٨٧١ نقلاً عن مجلة المقتطف: ج٢٧ ص٨٩٣.

مناسك الحج، فقد كان يستنكر على الذين يتوسّلون برسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ عند مرقده المقدّس.

ثم عاد الى نجد و بعدها ارتحل الى البصرة ـ وهو في طريقه الى الشام ـ وهناك في البصرة طفق يستنكر على الناس شعائرهم الدينية وينهاهم عنها، فثار عليه أبناء البصرة الغيارىٰ وأخرجوه مدحوراً من ديارهم، فتوجَّه الى مدينة الزبير.

و في الطريق ـ بين البصرة والزبير ـ تعب من المشي و نال منه الحرُّ والعطش نيلاً شديداً بحيث كاد أن يهلك ـ وليتَه هَلك ـ فأدركه رجل من الزبير فعطف عليه عندما رآه مرتدياً زيَّ رجال الدين، وسقاه الماء وأركبه وأوصله الى المدينة.

كان محمّد بن عبدالوهّاب عازماً على السفر الى الشام، لكنه لم يكن يملك ما يكفيه من المال والزاد، فسافر الى الأحساء ومنها الى حريملة التابعة لـ «نجد».

في تلك السنة ـ و كانت سنة ١١٣٩هـ ـ انتقل والده عبدالوهّاب من عُيينة الى حريملة فلازَم الولد والده وتتلمذ على يده، وواصل حَملاته المسعورة ضدّ الشعائر الدينية في نجد، ممّا أدّىٰ الى نشوب النزاع والخلاف بينه وبين أبيه من جهة، وبينه وبين أهالي نجد من جهة أُخرىٰ، واستمرّت الحالة على هذه حتى عام ١١٥٣هـ حيث توفي والده(١).

عند ذلك خلا الجوّ لمحمّد بن عبدالوهّاب، فراح يُعلن عن

(١) اقتطفناه من تاريخ نجد للآلوسي: من ص١١١ الى ص١١٣.

عقائده الشاذّة، ويستنكر علىٰ الناس ما يمارسونه من الشعائر الدينية، ويدعوهم الىٰ الانخراط في حزبه وتحت لوائه، فانخدع بعضٌ ورفَض آخرون، واشتهر أمره في المدينة.

عندها قَفل راجعاً الى «عُيينة» وكان يحكم عليها عثمان بن حمد، فاستقبله واكرمه، ووقع القرار بينهما على أن يُدافع كلٌّ عن صاحبه، باعتبار أن لأحدهما السلطة التشريعية وللآخر السلطة التنفيذية، فحاكم عيينة يمدّه بالقوّة ومحمّد بن عبدالوهّاب يدعو الناس الى طاعة الحاكم واتّباعه.

و وصل الخبر الى حاكم الأحساء بأن محمّد بن عبدالوهّاب يدعو الى آرائه ومبتدعاته، ويعضده حاكم عُيينة فأرسل حاكم الأحساء رسالة تحذيرية الى حاكم عُيينة، فاستدعىٰ الحاكم محمّد بن عبدالوهّاب واعتذر من تأييده، فقال له ابن عبدالوهّاب: لوساعدتني في هذه الدعوة لملكت نجد كلَّها، فرفضه الحاكم وأمره بمغادرة عُيينة مذموماً مدحوراً.

كان ذلك في عام ١١٦٠هـ عند ما خرج ابن عبدالوهّاب من عيينة وتوجَّه الى الدرعية التي كانت من أشهر المدن التابعة لنجد، وكان حاكمها -يومذاك- محمّد بن سعود -الجدَّ الأعلىٰ لآل سعود- فزاره الحاكم واكرمه ووعده بالخير.

و بالمقابل بشَّره ابن عبدالوهّاب بالهيمنة على بلاد نجد كلّها، وهكذا وقع القرار المشؤوم(١).

(١) لقد ذكر أحد المؤلّفين العثمانيين -في كتابه تاريخ بغداد ص١٥٢- بداية العلاقة بين

←

و الجدير بالذكر: أن أهالي الدرعية كانوا يعانون من فقر مُدقع وحرمان فظيع، حتى وصول ابن عبدالوهّاب وعقد الاتفاقية بينه وبين محمّد بن سعود.

يقول ابن بشر النجدي ـ فيما يرويه عنه الآلوسي ـ:

«... وكان أهل الدرعيّة ـ يومئذٍ ـ في غاية الضيق والحاجة، وكانوا يحترفون لأجل معاشهم...

و لقد شاهدتُ ضيقهم في أول الأمر، ثم رأيتُ الدرعيّة بعد ذلك ـ في زمن سعود ـ وما عند أهلها من الأموال الكثيرة والأسلحة المحلّاة بالذهب والفضّة والخيل الجياد والنجائب العُمانيات والملابس الفاخرة، وغير ذلك من أسباب الثروة التامّة، بحيث يعجز عن عدّه اللسان ويكلُّ عن تفصيله البيان.

ونظرتُ الى موسمها يوماً ـ في الموضع المعروف بالباطن ـ فرأيتُ موسم الرجال في جانب، وموسم النساء في جانب آخر، فرأيت من الذهب والفضّة والأسلحة والإبل والغنم والخيل والألبسة الفاخرة وسائر المآكل ما لا يمكن وصفه، والموسم ممتدٌّ مَدّ البصَر، وكنت أسمع أصوات البائعين والمشترين وقولهم: بعتُ واشتريت كدويّ النحل...»(١).

و لكن: من أين كلّ هذه الثروات الهائلة؟

إن «ابن بشر النجدي» لم يتعرّض لذكر مصدر هذه الثروات

محمّد بن عبدالوهّاب وآل سعود بصورة أُخرىٰ، ولكن الظاهر صحة هذا القول الذي ذكرناه.

(١) تاريخ نجد للآلوسي: ص١١٧ ـ ١١٨.

الهائلة، لكن المستفاد من التاريخ هو أن ابن عبدالوهّاب كان يحصل عليها من خلال الهجمات الجبانة التي كان يشنّها -مع أتباعه- علىٰ القبائل والمدن التي ترفض الانجراف اليه، وكان يسلب أموالها وينهب ثرواتها ويوزّعها على أهل الدرعيّة.

و كان محمّد بن عبدالوهّاب ينتهج اسلوباً خاصّاً في تقسيم الغنائم -المسلوبة من المسلمين الرافضين للإنحراف- فقد كان يتصرّف فيها حسب رغبته الشخصيّة، فمرّة كان يُقسّمها- رغم كثرتها- بين اثنين أو ثلاثة من أتباعه، وكان أمير نجد يأخذ نصيبه من الغنائم، بموافقة ابن عبدالوهّاب نفسه.

و من أهمّ نقاط الانحراف في ابن عبدالوهّاب هو هذه المعاملة السيّئة مع المسلمين الذين ما كانوا يخضعون لأهوائه وآرائه، فقد كان يُعاملهم معاملة الكافر المحارب، ويُبيح أموالهم وأعراضهم.

و خلاصة القول: إن محمّد بن عبدالوهّاب كان يدعو الى التوحيد، ولكن لتوحيد خاطىء مِن صُنع نفسه، لا التوحيد الذي يُنادي به القرآن الكريم، فَمن خضع له و «لتوحيده» سلمتْ نفسه وأمواله، ومن أبىٰ فهو كافر حربي، ودمه وماله هَدَر!!

و علىٰ هذا الأساس كان الوهّابيّون يشنّون المعارك في نجد وخارجها - كاليمن والحجاز ونواحي سوريا والعراق- وكانوا يبيحون التصرّف بالمُدن -التي يسيطرون عليها- كيفما يشاؤون، فإن أمكنهم ضَمّ تلك الأراضي الى ممتلكاتهم وعقاراتهم فعلوا ذلك،

وإلا اكتفوا بنهب الغنائم منها(١).

ـ كان قد أمر كلّ من ينخدع بدعوته أن يتقدّم اليه بالبيعة، ومَن رفض البيعة وجب قتله وتوزيع أمواله!!

و لهذا عندما رفض أهالي قرية الفصول ـ من ضواحي الأحساء ـ بيعةَ هذا الرجل الشاذ هَجم عليهم و قتل ثلاثمائة رجل ونَهب أموالهم وثرواتهم!(٢).

و أخيراً.. مات محمّد بن عبدالوهّاب عام ١٢٠٦هـ(٣) ولكن أتباعه واصلوا طريقه وأحيوا بدعه وضلاله.

ففي عام ١٢١٦هـ أعدّ الأمير سعود ـ الوهّابي ـ جيشاً ضخماً يتألّف من عشرين ألفاً وشنّوا هجوماً عنيفاً على مدينة كربلاء المقدّسة بالعراق. وكانت كربلاء ـ ولا زالت ـ مدينة مقدّسة، تتمتّع بشهرة بالغة ومحبّة في قلوب المؤمنين ويقصدها الزوّار ـ بمختلف جنسيّاتهم مِن ايرانيين وأتراك وعرب وغيرهم ـ فحاصر الجيش الوهّابي هذه المدينة المقدّسة ثم اقتحمها ودخلها واكثر فيها القتل والنهب والخراب والفساد.

و قد ارتكب الوهّابيّون ـ في مدينة كربلاء المقدّسة ـ جرائم و فجائع لا يمكن وصفها، فقد قتلوا خمسة آلاف مسلم أو اكثر ـ حتى قيل ٢٠ ألفاً ـ.

---

(١) جزيرة العرب في القرن العشرين: ص ٣٤١.

(٢) تاريخ المملكة العربية السعودية: ج١ ص ٥١.

(٣) الأقوال متعدّدة في سنة ولادة محمّد بن عبدالوهّاب ومماته.

وعند ما انتهى الأمير سعود من العمليات الحربية هناك، عَمد الى خزانة حرم الامام الحسين بن علي -عليهما السّلام- والتي كانت مليئة بالذخائر النفيسة والهدايا القيّمة التي أهداها الملوك والأُمراء وغيرهم الى الروضة المقدّسة فابتزّها نهباً.

وبعد هذه الفاجعة الأليمة اتخذت مدينة كربلاء لنفسها طابع الحزن والكآبة، حتى نظم الشعراء قصائد في رثائها(١).

وكان الوهّابيّون يشنّون بين فترة وأُخرى -وخلال مدّة تتراوح بين اثني عشرة عاماً- هجماتهم وغاراتهم الحاقدة على كربلاء المقدّسة وضواحيها، وعلى مدينة النجف الأشرف، ويعودون ناهبين سارقين، وكانت البداية هي الهجوم على مدينة كربلاء عام ١٢١٦هـ كما سبقت الاشارة اليه.

وقد اتفقت كلمات المؤلّفين من الشيعة على أن ذلك الهجوم كان في يوم عيد الغدير المجيد، ذكرى تعيين النبي -صلّى الله عليه وآله وسلّم- الإمامَ علي بن أبي طالب خليفة له من بعده(٢).

يقول العلّامة المرحوم السيد محمّد جواد العاملي(٣):

«وقد منّ الله سبحانه بفضله وإحسانه وببركة محمّد وآله -صلّى الله عليه وآله- لإتمام هذا الجزء من كتاب مفتاح الكرامة، بعد انتصاف الليل من الليلة التاسعة من شهر رمضان المبارك سنة

---

(١) تاريخ كربلاء للدكتور عبدالجواد الكليدار.

(٢) لمزيد المعلومات عن عيد الغدير المجيد راجع الجزء الأول من الغدير للشيخ الأميني.

(٣) في كتابه الفقهي القيّم: مفتاح الكرامة ج٧ ص٦٥٣.

١٢٢٥هـ على يد مصنّفه... وكان مع تشويش البال واختلال الحال وقد أحاطت الأعراب ـ من عُنيزة القائلين بمقالة الوهّابي الخارجي ـ بالنجف الأشرف ومشهد الإمام الحسين ـ عليه السّلام ـ وقد قطعوا الطُرق ونَهبوا زوّار الحسين ـ عليه السّلام ـ بعد منصرفهم من زيارة نصف شعبان، وقتلوا منهم جماعة غفيرة، واكثر القتلىٰ من العجم، وربّما قيل بأنهم مائة وخمسين، وقيل أقل...».

نعم، إن التوحيد الذي كان يدعو اليه محمّد بن عبدالوهّاب وجماعته ـ و كانوا يبيحون دماء وأموال مَن يرفض دعوتهم ـ هو القول بأن الله جسم ذو أعضاء وجوارح وجوانب.

يقول الآلوسي ـ في حديثه عن الوهّابيّة ـ:

«... ويُصدّقون الأحاديث التي جاءت عن رسول الله ـ ص ـ أن الله ينزل الى سماء الدنيا، فيقول: هل من مستغفر؟!»(١)

الى أن يقول:

«ويُقرّون أن الله تعالىٰ يجيء يوم القيامة كما قال: «وَجاءَ ربُّكَ وَالمَلَكُ صَفّاً صَفّاً»(٢) وأن الله تعالىٰ يَقْرب من خلقه كيف يشاء، كما قال: «ونحنُ أقربُ اليهِ مِن حبلِ الوريدِ»(٣).

ويظهر من كتاب «الردّ علىٰ الأخنائي» لابن تيمية أنه كان يعتبر الأحاديث المرويّة في فضل زيارة رسول الله ـ صلّى الله

(١) تاريخ نجد ص ٩٠ ـ ٩١، ويراجع رسالة العقيدة الحموية لابن تيميّة.

(٢) سورة الفجر: آية ٢٣.

(٣) سورة ق: آية ١٦.

عليه وآله وسلّم- أحاديث موضوعة، ويصرّح بأن من يعتقد بحياة رسول الله بعد وفاته، كحياته زمن حياته فقد ارتكب خطأً كبيراً.

و هذا ما يعتقده محمّد بن عبدالوهّاب وأتباعه، وقد زادوا على ابن تيمية في الانحراف والباطل.

لقد أدّت معتقدات الوهّابيّين الباطلة الى أن يعتبر بعض الباحثين حول الاسلام -ممّن نظروا في كُتبهم وتعرّفوا على الإسلام من مطبوعاتهم- أن يعتبروا الاسلام ديناً جامداً محدوداً لا يُنتفع به في كلّ العُصور والأزمان.

يقول «لوتروب ستودارد» الامريكي:

«... وقام على أثر ذلك عدد من النَقَدة، اتّخذوا الوهّابيّة دليلاً لكلامهم وقالوا: إن الاسلام -بجوهره وطبائعه- غير قابل للتكيّف على حسَب مقتضيات العصور ومُماشاة أحوال الترقّي والتبدّل، وليس إلفاً لتطورات الأزمنة وتغيّرات الأيام...»(١).

و من الجدير بالذكر أن علماء المذهب الحنبلي ثاروا ضدّ محمّد ابن عبدالوهّاب وحكموا بانحرافه و بطلان عقائده منذ البداية.

و أول من تصدّىٰ له و أعلن الحرب عليه هو أبوه الشيخ عبدالوهّاب ثم أخوه الشيخ سليمان وكلاهما من علماء الحنابلة.

و قد كتب الشيخ سليمان كتاباً بعنوان: «الصواعق الإلٰهية في الردّ على الوهّابيّة» ردَّ فيه على أباطيلَ أخيه وخزعبلاته.

يقول زيني دحلان -ما معناه-:

(١) حاضِر العالَم الاسلامي: ج١ ص ٢٦٤.

«... وكان عبدالوهّاب ـ والد الشيخ محمّد ـ رجلاً صالحاً من أهل العلم، وكان الشيخ سليمان ـ أخو محمّد ـ من أهل العلم أيضاً، وبما أن الشيخ عبدالوهّاب والشيخ سليمان كانا من بداية الأمر ـ أي من يوم كان محمّد يواصل دراسته في المدينة المنوّرة ـ على علم بأفكار محمّد الشاذّة، لذلك كانا يلومانه على أقواله ويُحذّران الناس منه...»(١).

ويقول عبّاس محمود العقّاد المصري:

«... واكبر مَن خالف الشيخ في ذلك أخوه الشيخ سليمان ـ صاحب كتاب الصواعق الإلٰهية ـ وهو لا يُسلّم لأخيه بمنزلة الاجتهاد والاستقلال بفهم الكتاب والسنّة... (٢).

ويرىٰ الشيخ سليمان أنّ البدَع التي يمرّ بها الائمة ـ جيلاً بعد جيل ـ ولا يُكفّرون أصحابها، لا يكون الكفر فيها من اللزوم الذي يوجب القطع به ويُستباح من أجله القتال، ويقول الشيخ سليمان في ذلك: إن هذه الأمور حدثت من قبل زمن الإمام أحمد بن حنبل في زمان ائمة الإسلام وأنكرها من أنكرها

(١) الفتوحات الاسلامية: ج٢ ص ٣٥٧.

(٢) هذه الجملة تستدعي التوقّف والتأمّل، فمحمّد بن عبدالوهّاب كان يدّعي بلوغه درجة الاجتهاد والاستقلال بفهم الكتاب والسنّة، ولكن أخاه الشيخ سليمان كان يردّ عليه هذا الادّعاء ويعتبره دون منزلة الاجتهاد والاستقلال بالرأي ـ وأهل البيت أدرىٰ بما فيه ـ إذن: آراء محمّد بن عبدالوهّاب وأفكاره كلّها باطلة وخاطئة ـ بشهادة أخيه الشيخ ـ لأنها نابعة من علم ناقص وفكر هابط.

منهم، ولا زالت حتىٰ ملأت بلاد الإسلام كلّها، وفُعلتْ هذه الأفاعيل كلّها التي تُكفِّرون بها، ولم يُروَ عن أحدٍ من ائمة المسلمين أنهم كفَّروا بذلك ولا قالوا هؤلاء مرتدُّون، ولا أمروا بجهادهم، ولا سمُّوا بلاد المسلمين بلاد شرك وحرب كما قلتم أنتم، بل كفرتم من لم يُكفّر بهذه الأفاعيل وإن لم يفعلها...»(١)

هذا... ولا يخفىٰ أن محمّد بن عبدالوهّاب ليس مبتكراً في آرائه وأفكاره، بل سبقه الى ذلك -قُروناً عديدة- ابن تيميّة الحرّاني وتلميذه ابن القيّم الجوزيّة وأمثالهما، إلّا أن أفكارهم لم تتخّذ لنفسها طابع المذهب كما أحدث ذلك ابن عبدالوهّاب.

مَن هو ابن تيميّة؟

هو أبو العبّاس أحمد بن عبدالحليم، المعروف بابن تيميّة، كان من علماء الحنابلة وتوفّى سنة ٧٢٨هـ.

و نظراً لآرائه السقيمة و أفكاره المنحرفة المخالفة لعقائد المسلمين -على اختلاف مذاهبهم- فقد كان علماء عصره يتصدّون له و يُعلنون الحرب عليه ويحكمون بفسقه وانحرافه، وبخاصّة بعد ما كتب عقائده الباطلة ونشَرها بين الناس.

و قد تلخّصت الحرب الدينية ضدّ ابن تيميّة في نقطتين:

الأُولىٰ: تأليف الكتب و كتابة الردود على أفكاره الباطلة،

---

(١) الاسلام في القرن العشرين:ص١٠٨ - ١٠٩.

وتزييفها على ضوء القرآن والسنَّة الشريفة.

و كنموذج من ذلك نُشير الى بعض ما صدر ضدّه من الكتب:

١ ـ شفاء السقام في زيارة قبر الإمام: بقلم تقيّ الدين سبكي.

٢ ـ الدرّة المضيئة في الردّ على ابن تيميّة: بقلم المؤلّف السابق.

٣ ـ المقالة المرضيّة: تأليف قاضي قضَاة المالكيّة تقيّ الدين أبي عبدالله الأخنائي.

٤ ـ نجم المهتدي و رجم المقتدي: بقلم فخر بن محمّد القرشي.

٥ ـ دفع الشبهة: بقلم تقيّ الدين الحصني.

٦ ـ التحفة المختارة في الردّ على منكر الزيارة:بقلم تاج الدين.

هذه بعض الردود التي كُتبت ضدّ عقائد ابن تيميّة وآرائه السقيمة، وكشفتْ عن سفاهتها وقشريَّتها.

الثانية: هجوم العلماء والفقهاء عليه، و إصدار الحكم والفتوىٰ بفسقه تارةً و بكفره تارةً أُخرىٰ، والتحذير من البدَع التي أحدثها في الدين الحنيف.

و منهم قاضي القضاة في مصر «البدر بن جماعة» فقد كتبوا اليه رأي ابن تيميّة في زيارة النبي ـصلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فكتب قاضي القضاة:

«إن زيارة النبي ـص ـ سُنَّةٌ مستحبة، وقد اتفق العلماء على ذلك، وكلّ

من يرىٰ حرمة زيارته فيجب على العلماء زجره ونهيه عن مثل هذه الآراء ، فإن لم يردعه ذلك لزم حبسُه وفضحه بين الناس حتى لا يقتدوا به».

وليس هذا القاضي الشافعي في مصر وحيداً في فتواه هذه، بل أصدر قضاة المالكية والحنبلية فتاوىٰ مماثلة في تفسيق ابن تيميّة والحكم بضلاله وانحرافه(١).

وبالاضافة الى ذلك كلّه، فقد كتب الذهبي ـ الذي يُعتبر من علماء القرن الثامن الهجري وله تأليفات قيّمة في الحديث والرجال وكان مُعاصراً لابن تيميّة ـ كتب رسالة وديّة اليه ينهاه فيها عن منكراته، وشبَّهه فيها بالحجّاج الثقفي في ضلاله وفساده(٢).

الى أن أهلك الله ابنَ تيميّة في عام ٧٢٨ في سجن الشام، فحاول تلميذه ابن القيّم أن يواصل نهج استاذه، لكنّه لم يفلح في ذلك ، فماتت أفكار ابن تيميّة بموته، وفنيتْ بفنائه، وزالت بزواله، واستراح المؤمنون من بدعه وضلالاته.

الى ان ألقى الشيطان حبائله من جديد، فجاء محمّد بن عبدالوهّاب حاملاً أفكار ابن تيميّة البائدة، واتفق مع آل سعود ليقوم كلّ منهما بتأييد الآخر، هذا في الحكم وذاك في التشريع، فعاد الضلال ينشر خيوطه في «نجد» وانتشرت الوهّابيّة في بلاد

---

(١) للتفصيل راجع كتاب دفع الشبهة تأليف تقيّ الدين الحصني.

(٢) وقد نُشرت هذه الرسالة في كتاب تكملة السيف الصيقل ص١٩٠، كما نَشر نَصّها الشيخ الأميني في كتاب الغديرج٥ ص٨٧ - ٨٩ فراجع.

نجد انتشار السرطان الأثيم في الجسم، فانخدع جمعٌ من الناس، و تحزَّبوا -ومع كلّ أسف- باسم التوحيد للقضاء على أهل التوحيد، وأراقوا دماء المسلمين باسم الجهاد مع المشركين، وراح الالوف من الناس -رجالاً ونساءً وصغاراً وكباراً- ضحيَّة لهذه البدعَ والأباطيل، وتوسّعت شُقّة الخلاف بين المسلمين، وأُضيف على مذاهبهم المتعدّدة، مذهب جديد.

و قد بلغت المصيبةُ ذروتَها عند ما سقط الحَرَمان الشريفان -مكّة والمدينة- في قبضة هذه الزمرة المنحرفة، وعَمد النجديّون الوهّابيّون -وبالتعاون مع بريطانيا الحاقدة التي كانت تهدف تفكيك الدولة الاسلامية الى دويلات صغيرة تحدُّها الحدود الجغرافية- عمدوا الى محو الآثار الاسلامية في مكّة والمدينة، وهدْم قبور أولياء الله وهتك حرمة آل رسول الله، وغير ذلك من الجرائم والمنكرات التي يهتزّلها ضمير المسلم.

يقول بعض المؤرّخين:

«بادر الوهّابيّون -لمّا استولوا على مكّة- بالمساحي فهدموا -أولاً- مافي «المعلّى» -مقابر قريش- من القُباب، وهي كثيرة، منها قُبَّة سيّدنا عبدالمطلب جدّ النبيّ -صلّى الله عليه وآله- وقبّة سيّدنا أبي طالب -رضوان الله عليه- وقبّة السيدة خديجة -رضوان الله عليها- كما هدموا قبّه مولدالنبي -صلّى الله عليه وآله- ومولد أبي بكر، ومولد الامام علي -عليه السّلام- وهدموا قبّة زمزم والقباب التي حول الكعبة، وتتبّعوا جميع المواضع التي فيها آثار الصالحين فهدموها، وكانوا -عندالهدم- يرتجزون

ويضربون بالطبول ويُغنُّون ويُبالغون في شتم القبور.. حتى قيل إن بعضهم بال على قبر السيّد المحجوب!!...»(١).

قال العلّامة السيد صدرالدين الصدر ـ المغفور له ـ:

لعمري إنّ فاجعةَ البقيع
يُشيبُ هولها فؤود الرضيع
وسوف تكون فاتحة الرزايا
إذا لم يُصحَ من هذا الهجوع
أما مِن مسلم لله يرعي
حقوق نبيّهِ الهادي الشفيع

وقال آخر:

تبّاً لأحفاد اليهود بما جَنَوا
لم يكسبوا من ذاك إلا العارا
هتكوا حريم محمّدٍ في آلهِ
ياويلهم قد خالفوا الجبّارا
هَدموا قبور الصالحين بحقدهم
بُعداً لهم قد أغضبوا المختارا

وانطلاقاً من قول النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ:

«اذا ظهرت البِدَع فعلىٰ العالِم أن يُظهر عِلمه، وإلّا فعليه لعنة الله».

فقد تصدّىٰ علماء الشيعة ـ وعلماء السنة أيضاً كما ذكرنا ـ لهذا

(١) كشف الارتياب: نقلاً عن الجبرتي.

الغزو الوهّابيّ الحاقد، وكتبوا الكتب ونشروا المطبوعات، في فضح هذا الرجل ـ الذي جاء يُحقق أهداف بريطانيا في ثوب جديد ـ وكشف القناع عن حقيقته والردّ على آرائه الشاذّة.

و أول كتاب صدر في الردّ على ابن عبدالوهّاب هو كتاب «الصواعق الالهٰية في الردّ علىٰ الوهّابيّة» بقلم أخيه الشيخ سليمان.

كما أن أول كتاب صدر ضدّه من علماء الشيعة هو كتاب «منهج الرشاد» للشيخ الكبير المرحوم الشيخ جعفر كاشف الغطاء ـ المتوفى سنة ١٢٢٨هـ ـ وقد كتب كتابه هذا جواباً علىٰ رسالة بعثها اليه الأمير عبدالعزيز بن سعود ـ أحد الأمراء السعوديّين في وقته ـ وقد زيّف في كتابه أفكار محمّد بن عبدالوهّاب وأثبت بطلانها على ضوء القرآن والسُنَّة. وقد طُبع الكتاب في عام ١٣٤٣هـ في النجف الأشرف في العراق.

ثم تتابَع الردّ والنقد في ظروف مختلفة، وصدرت الكُتب تترىٰ، واحدة تلو الأُخرىٰ، حتىٰ زماننا هذا.

و في عصرنا الحاضر صعَّد الوهّابيّون حَملاتهم المسعورة ضدّ الاسلام والمسلمين، بفعل الثروة الطائلة التي يجنيها آل سعود من أرباح البترول العائدة اليهم فقط.

لقد خصّصت السلطان السعودية المحتلّة جزءً كبيراً من أرباح البترول لترويج هذا المذهب البريطاني ونشره بين المسلمين، ولو لا هذه الأموال الطائلة لما عاش هذا المذهب الواهي الى هذا الوقت.

لقد وَجد الاستعمار ضالَّته في هذا المذهب، واتّخذه خير وسيلة لإلقاء التفرقة بين المسلمين وتشتيت صفوفهم، وضرْب بعضهم البعض.

و قد حقّق هذا المذهب أهداف الاستعمار البريطاني الأثيم، فتراه قد أوجد الفتنة بين المسلمين، هذا يُفسّق ذاك وذاك يُكفّر هذا... ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

أيّها القارئ الكريم: لقد قرَّرنا ـ في هذا الكتاب ـ أن نطرح عقائد الوهّابيّين على بساط البحث والتحقيق، ونرفع الستار عن حقيقتها، حتىٰ يثبت لك أن عقائد المسلمين مستندة الى القرآن والسُنَّة المطهَّرة، وأن عقائد الوهّابيّين مخالفة للقرآن وسُنَّة رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ وقد انتهجنا اسلوب الايجاز والاختصار.

الفصل الثاني

الوهّابيّون و بناء قبور الأولياء

تُعتبر مسألة بناء القبور و تشييد مراقد الأنبياء وأولياء الله الصالحين من المسائل الحسّاسة عندالوهّابيّين، وقد كان ابن تيميّة -وتلميذه ابن القيّم- أول من أفتىٰ بحرمة بنائها و وجوب هدمها.

يقول ابن القيّم:

«يجب هدم المشاهد التي بُنيتْ علىٰ القبور، ولا يجوز إبقاؤها -بعد القدرة على هدمها وإبطالها- يوماً واحداً» (١).

و في عام ١٣٤٤هـ - بعد ما استولىٰ آل سعود على مكّة المكرمة والمدينة المنوَّرة وضواحيها- بدأوا يبحثون عن دليل يبرّر لهم هدم المراقد المقدّسة في البقيع ومحو آثار أهل البيت -عليهم السّلام- والصحابة، فلجأوا الى الاستفتاء من علماء المدينة المنوّرة حول حرمة البناء على القبور، محاولة منهم لتبرير موقفهم أمام الرأي العامّ الاسلامي -وخاصّة في الحجاز- لأنهم كانوا يُدركون جيّداً أن المسلمين في الحجاز هم كالمسلمين في كلّ مكان، يعتقدون

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد: لابن القيّم، ص٦٦١.

بكرامة أولياء الله وقدُسيّتهم وجواز البناء على قبورهم، فحاول الوهّابيّون ان يُلبسوا جريمتهم هذه بلباس الاسلام، دفعاً لنقمة المسلمين! سبحان الله!!

أرسلت السلطة السعودية قاضي القضاة في نجد ـ واسمه: سليمان بن بليهد ـ الى المدينة المنوّرة للاستفتاء من علمائها حول بناء مراقد أولياء الله، ولكن الجدير بالذكر هو أن الأسئلة التي طرحها ابن بليهد كانت تحمل في طوايا الأجوبة المطابقة لآراء الوهّابيّين أنفسهم، وما كان من العلماء إلّا الاجابة بمثل ما هو مذكور في الاستفتاء نفسه، ولم يكن علماؤهم يملكون الشجاعة والبطولة في التجاهر بالحقّ والافتاء بالصواب، بل كانوا ـ وهم كذلك طوال التاريخ ـ يرتزقون على أبواب السلطان، وكانوا يعرفون ـ مسبقاً ـ أن الافتاء على خلاف آرائهم يُعرِّضهم للتهمة بالكفر والشرك، ومن ثم يحكمون عليهم بالقتل إن رفضوا التوبة!!

و قد نشرت جريدة «أُمّ القرىٰ» الصادرة في مكّة ـ في شوال ١٣٤٤هـ ـ تلك الأسئلة والأجوبة، وقد أثارت ضجّة كبرىٰ بين المسلمين ـ الشيعة والسُنّة ـ لأنهم كانوا يعلمون أن وراء هذا الاستفتاء ـ الذي قد صدر تحت وطأة التهديد والترهيب ـ هو الشروع بهدم القباب والبناء المشيّد على قبور قادة الاسلام وعظماء المسلمين.

و هذا ما حصل بالفعل، فبعد ما صدرت تلك الفتوىٰ من خمسة عشر عالماً من علماء المدينة، وانتشر في الحجاز، بدأت

السُلطان الوهّابيّة بهدم قبور آل رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ في الثامن من شوال من نفس العام، وقضت على آثار أهل البيت ـ عليهم السّلام ـ والصحابة، ونهبت كلّ ما كان في ذلك الحرم المقدّس من فُرش غالية وهدايا ثمينة وغيرها، وحوّلت تلك الزمرة الوحشيّة البقيع المقدّس الى أرض قفراء موحشة(١).

و فيما يلي نذكر جانباً من الاستفتاء، لتعرف كيف ضمّن السائل الجواب في سؤاله، وأن الهدف لم يكن السؤال والاستفتاء، بل كان للحصول على مستمسك لتضليل الرأي العام وتدمير آثار النبوّة والرسالة.

ولو كان الهدف هو الاستفتاء الحقيقي ومعرفة رأي الاسلام في ذلك، فما معنىٰ تضمين الجواب في مطاوي الاستفتاء؟!

بل إننا نظن أن الاستفتاء والجواب كانا قد أُعدّا مسبقاً في ورقة خاصّة، ثم أُرسلتْ تلك الورقة الى علماء المدينة للتوقيع عليها فقط، وإلّا فليس من المعقول ان يُغيّر علماء المدينة وجهة نظرهم

---

(١) يقول المؤرّخ الجليل الشيخ آغا بزرگ الطهراني ـ في كتاب الذريعة ج٨ ص٢٦١ ـ: لقد سيطر الوهابيّون على الحجاز في سنة ١٣٤٣هـ وفي الثامن من شهر شوال من نفس العام هدموا قبور الائمة الطاهرين ـ عليهم السّلام ـ والصحابة في البقيع. انتهى كلامه.

أقول: إن جريدة «أمّ القرى» نشرت نصّ الاستفتاء وجوابه في تاريخ ١٧ شوال سنة ١٣٤٤هـ، وحدّدتْ تاريخ صدور الفتوىٰ من علماء المدينة بـ ٢٥ رمضان، لهذا ينبغي القول ان احتلال المدينة وهدم قبور أولياء الله حَدَثا معاً في سنة ١٣٤٤هـ. ويعتقد المرحوم السيد محسن الأمين أن الاحتلال الكامل والهدم قد وقعا في عام ١٣٤٤هـ، راجع كتاب كشف الإرتياب: ص٥٦ ـ ٦٠.

فجأة، ويُصدروا الفتوىٰ بتحريم البناء على القبور ووجوب هدمها، مع العلم أنهم كانوا وآباؤهم ـ طوال سنوات عديدة ـ من الداعين الى حفظ الآثار النبويّة، وكانوا يزورون تلك المشاهد المقدّسة.

يقول ابن بليهد في سؤاله:

«ما قول علماء المدينة المنوّرة ـ زادهم الله فهماً وعلماً ـ في البناء على القبور واتخاذها مساجد، هل هو جائز أم لا؟

و اذا كان غير جائز بل ممنوع منهيٌّ عنه نهياً شديداً، فهل يجب هدمها ومنع الصلاة عندها أم لا؟

و اذا كان البناء في مَسبلة (١) كالبقيع وهو مانع من الانتفاع بالمقدار المبني عليه، فهل هو غصب يجب رفعه، لما فيه من ظلم المستحقين ومنعهم استحقاقهم أم لا؟».

و تحت التهديد و التخويف، يجيب علماء المدينة على سؤال «الشيخ» بمايلي:

«أما البناء على القبور فهو ممنوع إجماعاً، لصحة الأحاديث الواردة في منعه، ولهذا أفتىٰ كثير من العلماء بوجوب هدمه، مستندين بحديث علي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال لأبي الهيّاج: ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول الله أن لا تَدع تمثالاً إلّا طمسْته ولا قبراً مشرفاً إلّا سوّيته».

و يقول الشيخ النجدي ـ في مقال نشرتْه جريدة «أُم القرىٰ» في عددها الصادر في شهر جمادى الثانية سنة ١٣٤٥هـ ـ:

«إن بناء القباب على مراقد الأولياء صار متداولاً منذ القرن الخامس الهجري».

---

(١) مَسْبلة: موقوفة في سبيل الله تعالى.

نعم، هذه نماذج من أقوال الوهّابيّين حول بناء القبور، وترى أن عمدة استدلالهم -في كتبهم ومؤلّفاتهم- على الحرمة تعتمد على أمرين:

١ - إجماع علماء الاسلام على التحريم.

٢ - حديث أبي الهيّاج عن الامام أمير المؤمنين -عليه السّلام- وماشابه ذلك.

نحن الآن نتحدّث فقط عن مسألة البناء على القبور و إقامة الظلال والسُقف والأبنية عليها.

أمّا مسألة زيارة القبور فهو موضوع مستقلّ سوف نتحدّث عنه في فصل خاصّ إن شاء الله تعالى.

بالنسبة الى المسألة الاولى فالحديث عنها في ثلاث نقاط:

١ - ما رأي القرآن الكريم تجاه البناء على القبور، وهل نجد في القرآن بياناً لهذه المسألة؟

٢ - هل صحيح أن الأُمّة الاسلامية متّفقة على حرمة البناء على القبور؟ أم أن البناء كان متداولاً في كلّ العهود الاسلامية، بدء بزمن النبي -صلّى الله عليه وآله وسلّم- والصحابة؟

٣ - ما ذا يعني حديث أبي الهيّاج و حديث جابر وأُمّ سلمة وناعم ممّا يستغلّه الوهّابيّون للاستدلال على باطلهم؟

أ - رأي القرآن في البناء على القبور

لم يتطرّق القرآن الكريم الى حكم البناء على القبور بصورة

خاصّة، إلّا أنه يمكن استنباط حكمه من خلال بعض الآيات الكريمة العامّة، وإليك التفصيل:

١ـ البناء على قبور الأولياء تعظيمٌ للشعائر الإلٰهية

إن القرآن الحكيم يعتبر تعظيم شعائر الله سبحانه دليلاً على تقوىٰ القلوب، فيقول عزّوجل:

«وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَىٰ الْقُلُوبِ»(١).

و نتساءل: ما معنىٰ تعظيم شعائر الله؟

الجواب: إن «شعائر» كلمةُ جمعٍ، و مفردها: «شعيرة» وهي بمعنىٰ الدليل والعلامة، وليس المقصود من «شعائر» ـ في هذه الآية ـ العلائم التي تُثبت وجود الله تعالىٰ، ذلك لأن الكون كلّه دليل على وجوده سبحانه. يقول الشاعر:

وفي كلّ شيء له آيةٌ
تَدلُّ على أنه واحدُ

كما أنه ليس هناك من يقول: إن تعظيم كلّ ما هو موجود في الكون دليل على التقوىٰ، وانما المقصود هو تعظيم شعائر دين الله، ولهذا يقول المفسّرون ـ في هذه الآية ـ إن كلمة «شعائرالله» معناها معالم دين الله(٢).

و اذا كان «الصفا والمروة» وكذلك البعير الذي يُساق الى

---

(١) سورة الحج: آية ٣٢.

(٢) تفسير مجمع البيان: ج٤ ص٨٣ طبعة صيدا، وغيره.

منىٰ للنحر من شعـائرالله(١) فانما هو بسبب كونها من معالم الدين الحنيف وإبراهيم الخليل ـعليه السّلام ـ.

و اذا كـانت «المزدلفـة» تُسمّى بـ«المشعر» فـإنما هو بسبب كونها من علامات دين الله تـعالىٰ، وأن الوقوف في المشعر دليل على طاعة الله سبحانه.

و اذا كانت «مناسك الحج» تسمّى بالشعائر فإنما هي لكونها علامات للتوحيد والدين الحنيف.

و خلاصة القول: إن كلّ ما هو شعيرة لدين الله فان تعظيمه ممّا يُقرّب الى الله تعالىٰ.

و ممّا لاشكّ فيه أن الأنبياء و أولياء الله تعالىٰ هم من اكبر وأبرز علامات دين الله، إذ أنهم كانوا خير وسيلة لإبلاغ رسالة الله ونشره بين الناس.

إن من الثابت لدىٰ كلّ منصف أن وجود النبي والأئمة الطاهرين ـعليهم السّلام ـ هو من علامات الاسلام وشعائر هذا الدين المقدّس، فتعظيمهم تعظيم لله وعلامة على تقوىٰ القلوب.

ولا شكّ أن صيانة آثارهم و المحافظة على قبورهم من المحو والزوال إنما هي نوع من تعظيم شعائر الله سبحانه.

و بعبارة أُخرىٰ: نستطيع أن نُدرك ضرورة تعظيم قبور أولياء الله من خلال هاتين النقطتين:

---

(١) ١/ قوله تعالى: «**إنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ الله**». سورة البقرة: آية١٥٨.

٢/ قوله تعالىٰ: «**والبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ الله**». سورة الحج: آية٣٦.

الف: إن أولياء الله ـ و خاصّة اولئك الذين ضحّوا من أجل الدين ونشره ـ هم من شعائر الله وعلائم دينه.

باء: إن بناء قبورهم ـ بالاضافة الى تخليد ذكرياتهم والسير على نهجهم السديد ـ هو نوع من تعظيمهم واحترامهم.

وعلىٰ هذا الأساس فإننا نرىٰ كافّة الشعوب والاُمم في العالَم تُخصّص مناطق خاصّة لمثوىٰ شخصيّاتهم السياسية والدينية، كي تبقى رمزاً خالداً لأتباعهم الى الأبد، فكأنّ حفظ مراقدهم من المحوِ والاندراس يؤدّي الى خلود ذكراهم وحياة أفكارهم ومناهجهم.

ولكي نعرف هذه الحقيقة جيّداً، لابدّ من أن نتأمّل الآية السادسة والثلاثين من سورة الحج:

«والبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ الله».

إن بعض حجّاج بيت الله الحرام كانوا يسوقون معهم بعيراً من بلادهم «هَدْياً بالغَ الكعبة» كي يُنحر بجوار بيت الله، وكانوا يتركون على عنقه قلادة ـ أوغيرها ـ كناية عن أنه يُساق للنحر في مكّة، فهو لله تعالىٰ لايُباع ولا يُشترىٰ، فكان يتميَّز بهذه القلادة عن بقية الإبل.

لهذا السبب اعتبره الله تعالىٰ «من شعائر الله» ولهذا حكم الاسلام باحترام هذا الهَدي، فلا يجوز ركوبه ـ مثلاً ـ ويجب توفير المأكل والمشرب له حتىٰ ساعة الذبح بجوار الكعبة.

فإذا كان هذا البعير يكتسب هذا الاحترام والإكرام، فقط

لكونه صار من شعائر الله تعالىٰ، فما تقول في الأنبياء والأئمة الطاهرين؟!

أَلا يُعتبر الأنبياء و الأئمة الطاهرون ـ عليهم السّلام ـ والعلماء والشهداء ـ الذين خلعوا على أنفسهم قلادة العبودية لله منذ البداية ونذروا أنفسهم لخدمة دين الله وقاموا بدَور الوسيط بين الله وخلقه في هدايتهم وإرشادهم ـ أَلا يُعتبرون من شعائر الله؟!

ألا يجب تعظيمهم واحترامهم، في حياتهم وبعد مماتهم، التعظيم اللائق بهم؟!

اذا كانت الكعبة و الصفا و المروة و منىٰ و عرفات ـ وما هي إلّا جمادات مركّبة من التراب والحجر ـ تُعتبر من شعائر الله وتستحقّ الاحترام والتعظيم المناسب لها بسبب ارتباطها بالله سبحانه، فلماذا لايكون أولياء الله ـ الذين هم حُماة دين الله و ناشروا أحكامه ـ وما يرتبط بهم، لماذا لا يكونوا جميعاً من شعائر الله؟!

إننا ندعو الوهّابيّين الى تحكيم وجدانهم ـ في هذا المجال ـ ونطرح عليهم هذا السؤال: هل تشكُّون وتتردّدون في أن الأنبياء والرسل هم من شعائر الله؟!

أَلا يحكم الوجدان بضرورة تعظيمهم و تخليدهم والتمسُّك بمناهجهم؟!

هل أن البناء على قبورهم و تنظيف الساحة التي تضم مراقدهم تعظيمٌ واحترامٌ لهم، أم هدْم قبورهم وإهمال الساحة

المحتضنة لمراقدهم وتحويلها الى خربة مهجورة موحشة هو التعظيم ؟!

٢ـ المودّة في القربىٰ

إن القرآن الكريم يأمرنا ـ بكلّ صراحة ـ بالحبّ والمعاملة الحسنة مع أقرباء النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فيقول:

«قُلْ لا اَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ اَجْراً إلّا الْمَوَدَّةَ في الْقُرْبىٰ»(١).

و من الواضح لدىٰ كلّ من يُخاطبه الله بهذه الآية أن البناء على مراقد أهل بيت النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ هو نوع من أنواع إظهار الحبّ والمودّة لهم.

و هذه العادة مُتَّبعة عند كافّة الشعوب و الأُمم في العالَم، والجميع يعتبرون ذلك نوعاً من المودّة لصاحب ذلك القبر، ولذلك تراهم يدفنون كبار الشخصيات السياسية والعلمية في كنائس ومقابر مشهورة، ويزرعون أنواع الأزهار والأشجار حولها.

٣ـ البناء على القبور في الأُمم السابقة

يستفاد من بعض الآيات الكريمة ـ في القرآن ـ أن تعظيم قبور المؤمنين كان أمراً شائعاً بين الأُمم التي سبقت ظهور الاسلام، فبالنسبة الى أصحاب الكهف ـ بعد ما انتشر خبرهم بين الناس وهرعوا الى الكهف لمشاهدتهم ـ وقع الخلاف والنزاع حول مدفنهم

(١) سورة الشورىٰ: آية ٢٣.

وانقسموا قسمين، فقال أحدهما:

«ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً».

و قال الآخر:

«لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً».

هنا نلاحظ أن القرآن الكريم يذكر لنا هٰذين الرأيين، من دون أن ينتقدهما، وعلى هذا يمكن القول بأنه لو كان الرأيان باطلين لانتقدهما، أوقصّ قصّتهما باسلوبٍ رافضٍ مستنكر.

و يقول المفسّرون: إن النزاع ـ حول مدفن أصحاب الكهف ـ إنما وقع بين المُؤمنين والكافرين، أمّا الكافرون فقالوا:

«ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً».

و المؤمنون قالوا:

«لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً».

و كانت الغلبة مع المؤمنين حيث قال سبحانه:

«قالَ الَّذينَ غَلَبُوا عَلىٰ أمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً»(١).

و بُني المسجد و صار قبور أصحاب الكهف مركزاً للتعظيم والاحترام.

و هكذا يظهر لنا أن الهدف من البناء على قبور أصحاب الكهف إنما كان نوعاً من التعظيم لأولياء الله الصالحين.

أيّها القارئ الكريم: بعد ما مرّ عليك من الآيات الكريمة الثلاث، لا يمكن القول بحرمة البناء على قبور أولياء الله ولا

(١) سورة الكهف: آية ٢١.

بكـراهته بأيّ وجه، بـل يمكن اعتباره نوعـاً من تعظيم شعائر الله و مظهراً من مظاهر المودّة الى القربىٰ.

٤ـ الإذن في ترفيع بيوت خاصّة

لقد أذن الله تعالىٰ في ترفيع البيوت التي يُذكر فيها اسمه عزّوجل، فقال عزَّ من قائل:

«فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ...»(١).

و الاستدلال بهذه الآية ـعلى جواز البناء على القبورـ يتمّ ببيان أمرين:

الأول: ما هو المقصود من البيوت؟

الثاني: ما هو المقصود من الرفع؟

بالنسبة الى الأمر الأول: ليس المراد من البيوت هو المساجد فقط، بل المراد منها ما هو الأعمّ من المساجد والأماكن التي يُذكر فيها اسم الله تعالىٰ، سواء كانت مساجد أو غير مساجد، كبيوت الأنبياء والأئمة ـعليهم السّلامـ والصالحين الذين لا تُلهيهم تجارة ولا بيع عن ذِكرالله، فهذه البيوت تُعتبر من المصاديق البارزة للآية الكريمة.

بل يمكن أن يقال: إن المراد من البيوت هو غير المساجد، لأن البيت هو البناء الذي يتشكّل من جدران أربعة وعليها سقف

---

(١) سورة النور: آية ٣٦ ـ ٣٧.

قائم، واذا كانت الكعبة يُقال لها: بيت الله فإنما هو بسبب كونها مُسقَّفة، والقرآن الحكيم يعتبر البيت هو المكان المسقَّف فيقول سبحانه:

«لَوْلا أنْ يَكُونَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ...»(١).

إن المستفاد من هذه الآية الكريمة هو أن البيت لا ينفكّ عن السقف، مع العلم أنه يستحبّ شرعاً أن تكون المساجد غير مُسقَّفة. هذا هو المسجد الحرام تراه مكشوفاً تحت السماء من دون سقف يُظلّله.

و على كل تقدير... فالمقصود من البيوت إمّا هو الأعمّ من المساجد، أو غير المساجد..

هذا بالنسبة الى الأمر الأول.

و أمّا الأمر الثاني -وهو معنىٰ الرفع- فيحتمل أمرين:

أن يكون المراد منه هو الرفع المادّي الظاهري، الذي يتحقّق بإرساء القواعد وإقامة الجدار والبناء، كما قال سبحانه:

«وَإذْ يَرْفَعُ إبْراهيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإسماعيلُ»(٢).

أو يكون المراد منه هو الرفع المعنوي، كما قال: عزَّوجل:

«وَ رَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيّاً»(٣).

---

(١) سورة الزخرف: آية ٣٣.

(٢) سورة البقرة: آية ١٢٧.

(٣) سورة مريم: آية ٥٧.

أي: منحناه مكانةً عالية.

فإن كان المراد هو المعنىٰ الأول، فهو يدلّ ـ بكلّ وضوح ـ على جواز تشييد بيوت الأنبياء والأولياء وتعميرها، في حياتهم وبعد وفاتهم، ومن المعلوم أن مدفن النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ومدفن عدّة من الأئمة الطاهرين والأولياء الصالحين إنما هو في بيوتهم، فتشييد هذه البيوت وصيانتها من الخراب والاندثار عملٌ جائز بنصّ الآية الكريمة، بل هو محبوب ومرغوب فيه.

و إن كان المراد منه هو الرفع المعنوي والعظمة المعنوية، كانت النتيجة من الإذن برفعها هو الإذن بتكريمها وتبجيلها وصيانتها وتطهيرها ممّا لا يليق بشأنها.

و على كلّ حال، فالإذن في الرفع ـ سواء كان ماديّاً أم معنوياً ـ إنما جاء بسبب وجود الرجال الصالحين الذين يذكرون الله سبحانه فيه بالغدوّ والآصال.

بعد هذه الآية و آيات أُخرىٰ مماثلة كيف يجوز للوهّابيّين أن يهدموا بيوت آل رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ التي كانت مهبطاً لملائكة الله ومركزاً لذكر الله ونشر دينه وأحكامه؟!!

كيف يجوز لهم أن يهدموا هذه المراقد المقدّسة التي هي مهوىٰ أفئدة ملايين المؤمنين، وكانوا يزورونها ـ رجالاً ونساءً، صباحاً ومساءً ـ ويذكرون الله فيها بالصلاة والدعاء والتسبيح؟!

لماذا أقدم الوهّابيّون على تحقير هذه البيوت المقدّسة وإذلالها

وإهمالها، وحوّلوها الى قفار موحشة مهجورة، يُرثىٰ لها ويحنّ قلب كلّ مؤمن لوضعها المأساوي؟!

لماذا؟ ولماذا؟

و قد روىٰ الحافظ السيوطي عن أنس بن مالك و بريدة: أن رسول الله -صلّى الله عليه وآله- قرأ قوله تعالىٰ: «في بيوت إذن الله أن تُرفع...» فقام اليه رجل وقال: أيّ بيوت هذه يا رسول الله؟

فقال -صلّى الله عليه وآله وسلّم-: بيوت الأنبياء.

فقام اليه أبوبكر و قال: يا رسول الله و هذا البيت منها؟ -وأشار الى بيت عليّ وفاطمة -عليهما السّلام- فقال النبي: نعم، مِن أفاضِلها(١).

ب - الأُمّة الاسلامية و البناء على القبور

عندما انتشر الاسلام في شبه الجزيرة العربية، و عمَّ نوره منطقة واسعة من الشرق الأوسط، كانت لقبور الأنبياء - التي كانت معروفة يومذاك - بناءً وسقفاً وظلالاً، وكانت لبعضها قباب مشيَّدة وضرائح منضَّدة، لا زال البعض منها موجوداً حتىٰ الآن.

---

(١) تفسير الدرّ المنثور: ج٥ ص٥٠. وفي سؤال أبي بكر عن بيت عليّ وفاطمة -عليهما السّلام- وجواب النبي -صلّى الله عليه وآله وسلّم- مجال للتأمّل والتعليق، لما كان يعلمه النبي بما سيُتعرض له هذا البيت المقدّس بعد وفاته -صلّى الله عليه وآله-.

و في مكّة نفسها ترىٰ قبر النبيّ إسماعيل وأُمّه هاجر -عليهما السّلام- يستقرّان في الحِجْر المعروف بِحِجْر إسماعيل، كما أن قبر النبيّ دانيال يقع في مدينة شوش في ايران، وقبور الأنبياء هود وصالح ويونس وذي الكفل -عليهم السّلام- في العراق، وكذلك قبر النبيّ إبراهيم وأولاده إسحاق ويعقوب ويوسف تقع في القدس المحتلّة، بعد أن كانت في مصر، فنقل النبيّ موسىٰ -بأمر الله تعالىٰ- أجسادهم الطاهرة الى القدس، ولا زالت مُوجودة حتىٰ الآن، ولكلٍّ منها معالم وأبنية مشيَّدة.

و قبر أُمّ البشر السيدة حوّاء يقع في مدينة «جدّة» بالحجاز -على ما هو المشهور- وقد سُمّيت المدينة بـ«جدَّة» نظراً الى مثوىٰ السيّدة حواء فيها، وقد كانت لقبرها آثارٌ مشهودة، ولمّا احتلّ الوهّابيّون الحجاز عمدوا الى محو آثاره وطمس معالمه!

كلّ هذه المراقد و القبور كانت بمرأى من المسلمين يوم فتحوا تلك البلاد، ومع ذلك لم يصدر منهم أيّ ردّ فعل سلبي تجاهها، ولم يأمروا بهدمها وتخريبها، فلو كان البناء على القبور و دفن الموتىٰ في مقابر مسقَّفة عملاً محرَّماً في الاسلام، لكان المفروض على اولئك المسلمين أن يقوموا -قبل كلّ شيء- بهدم تلك القبور التي لا زالت متواجدة، في مناطق متعدّدة من الاردن والعراق، ولكانوا يمنعون من تجديد بنائها أو اعادته على مرّ العصور والأزمان، ولكننا نرىٰ أنهم لم يأمروا بهدمها فحسب بل دأبوا على تعميرها وصيانتها طوال أربعة عشر قرناً.

لقد كانوا يدركون ـ بوحي من العقل ـ أن حماية آثار الأنبياء وصيانتها إنما هي نوع من الاحترام تجاههم، وأن ذلك يُقرّبهم الى الله عزّوجل ويُنيلهم الأجر والثواب.

يقول ابن تيميّة ـ في كتابه الصراط المستقيم ـ:

«عندما تمّ فتح القدس كانت لقبور الأنبياء هناك أبنية ولكن أبوابها كانت مغلقة حتىٰ القرن الرابع الهجري»(١).

فلو كان البناء على القبور حراماً لكان هدمه واجباً، ولم يكن هناك مبرّر لتركها على حالها مغلّقة الأبواب، بل كان الاسراع الى هدمها واجباً ـ على فرض صحة قول ابن تيميّة من اغلاق أبوابها الى القرن الرابع وليس بثابت ـ.

و خلاصة القول: إن بقاء تلك الأبنية والقباب على القبور طوال هذه الفترة، وبمرأى علماء الإسلام وفقهائه دليل واضح على جوازها في الدين الاسلامي المقدّس.

الآثار الاسلامية دليل على أصالة الدين

ممّا لا شكّ فيه أن المحافظة على آثار الأنبياء ـ وخاصّة آثار النبيّ محمّد ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ من قبره وقبور زوجاته وأولاده وأصحابه، وكذلك بيوتهم التي كانوا يسكنون فيها، والمساجد التي كانوا يقيمون الصلاة فيها ـ لا شكّ أن فيها نتائج محمودة وفوائد كثيرة نذكر منها مايلي:

(١) كشف الارتياب: ص٣٨٤.

اليوم و بعد مضي عشرين قرناً ـ تقريباً ـ على ميلاد السيّد المسيح ـ عليه السّلام ـ تحوّل المسيح واُمّه العذراء وكتابه الانجيل وكذلك الحواريّون، تحوّلوا ـ في عالم الغرب ـ الى اُسطورة تاريخية، و صار بعض المستشرقين يُشكّكون ـ مبدئياً ـ في وجود رجل اسمه المسيح واُمّه مريم وكتابه الانجيل، ويعتبرونه اُسطورة خيالية تشبه اُسطورة «مجنون ليلىٰ».

لماذا؟

لأنه لا يوجد أيّ أثر حقيقي و ملموس للمسيح، فمثلاً لا يُدرىٰ ـ بالضبط ـ أين وُلد؟ وأين داره التي كان يسكنها؟ وأين دفنوه بعد وفاته ـ على زعم النصارىٰ أنه قُتل ـ؟

أمّا كتابه السماوي فقد امتدّت اليه يد التحريف والتغير والتزوير، وهذه الأناجيل الأربعة لا ترتبط اليه بصلة وليست له، بل هي لـ«متّى» و «يوحنا» و «مرقس» و «لوقا» ولهذا ترىٰ في خاتمتها قصّة قتله المزعوم ودفنه، ومن الواضح ـ كالشمس في رائعة النهار ـ أنها قد كُتبت بعد غيابه.

وعلىٰ هذا الأساس يعتقد الكثير من الباحثين و المحقّقين أن هذه الأناجيل الأربعة إنما هي من الكتب الأدبية التي يعود تاريخها الى القرن الثاني من الميلاد.

فلو كانت الميزات الخاصّة بعيسىٰ محفوظة، لكان ذلك دليلاً على حقيقة وجوده وأصالة حياته وزعامته، وما كان هناك مجال لإثارة الشكوك والاستفهامات من قبل المستشرقين ذوي

الخيالات الواهية.

أمّا المسلمون فهم يواجهون العالم مرفوعي الرأس، و يقولون: يا أيّها الناس لقد بُعث رجل من أرض الحجاز، قبل ألف وأربعمائة سنة لقيادة المجتمع البشري، وقد حقّق نجاحاً باهراً في مهمّته و هذه آثار حياته محفوظة تماماً في مكّة والمدينة، فهذه الدار التي وُلد فيها، وهذا غار حراء حيث هبط عليه الوحي والتنزيل، وهذا هو مسجده الذي كان يُقيم الصلاةَ فيه، وهذا هو البيت الذي دُفن فيه، وهذه بيوت أولاده وزوجاته وأقربائه، وهذه قبور ذرّيته وأوصيائه -عليهم السّلام-.

و الآن ، اذا قضينا على هذه الآثار فقد قضينا على معالم وجوده -صلّى الله عليه وآله وسلّم- ودلائل أصالته وحقيقته، ومهّدنا السبيل لأعداء الاسلام ليقولوا ما يريدون.

إن هدم آثار النبوّة وآثار أهل بيت العصمة والطهارة ليس فقط إساءة اليهم -عليهم السّلام- وهتكاً لحرمتهم، بل هو عداء سافر مع أصالة نبوّة خاتم الأنبياء ومعالم دينه القويم.

إن رسالة الاسلام رسالة خالدة أبديّة، وسوف يبقىٰ الاسلام ديناً للبشرية جمعاء حتىٰ يوم القيامة، ولابدّ للأجيال القادمة -على طول الزمن- أن تعترف بأصالته وتؤمن بقداسته، ولأجل تحقيق هذا الهدف يجب أن نحافظ -أبداً- على آثار صاحب الرسالة المحمّدية -صلّى الله عليه وآله وسلّم- لكي نكون قد خطونا خطوة في سبيل استمرارية هذا الدين وبقائه علىٰ مدىٰ العصور القادمة،

حتىٰ لا يُشكّك أحدٌ في وجود نبيّ الاسلام -صلّى الله عليه وآله وسلّم- كما شكّكوا في وجود النبيّ عيسىٰ -عليه السّلام-.

لقد اهتمّ المسلمون اهتماماً كبيراً بشأن آثار النبيّ محمّد -صلّى الله عليه وآله وسلّم- وسيَره وسلوكه حتىٰ أنهم سجّلوا دقائق أُموره وخصائص حياته ومميّزات شخصيته، حتىٰ أنهم سجّلوا ما يرتبط بخاتمه وحذائه وسواكه وسيفه ودرعه ورمحه وجواده وإبله وغلامه، وحتى الآبار التي شرب منها الماء، والأراضي التي أوقفها لوجه الله سبحانه، والطعام المفضّل لديه، بل وكيفيّة مشيته واكله وشربه، وما يرتبط بلحيته المقدّسة وخضابه لها، وغير ذلك، ولا زالت آثار البعض منها باقية الى يومنا هذا(١).

و من خلال مراجعة تاريخ المسلمين و تفقّد البلاد الاسلامية الواسعة واستطلاع معالمها وآثارها يظهرلنا -بوضوح- أن البناء على القبور وصيانتها من الزوال والفناء كان شيئاً متداولاً عند كافّة المسلمين في أنحاء الوطن الاسلامي الكبير، ولا زالت هناك الضرائح المشيّدة على قبور الأنبياء والأولياء والرجال الصالحين، ويقصدها المسلمون بالزيارة والدعاء، وتُعتبر تلك الضرائح من الآثار التاريخية الاسلامية، وهناك الموقوفات الكثيرة التي تُصرف عائداتها لحفظ هذه الآثار وصيانتها ونظافة الساحات المحيطة بها وغير ذلك.

و لقد كانت قبور أولياء الله عامرة و مشيّدة حتىٰ في الحجاز

---

(١) راجع طبقات الصحابة لابن سعد: ج١ ص٣٦٠ الى ٥٠٣ حول هذا الموضوع.

نفسه، وكانت -حتىٰ قبل فتنة الوهّابيّة واحتلالها للحرمين الشريفين وضواحيهما- كانت قبورأولياء الله في كافّة أرجاء الحجاز عامرة ومشيَّدة، تحظىٰ باهتمام المسلمين كافّة، ولم يكن هناك أيّ عالم ديني يستنكر بقاءها أو يعترض على بنائها وتعميرها.

و ليست ايران هي البلد الوحيد الذي تتواجد فيه الضرائح المشيَّدة على قبور أولياء الله تعالىٰ، بل إن ذلك منتشر في البلدان الاسلامية، وخاصّة في مصر وسوريا والعراق والمغرب وتونس والاردن، فهناك المقابر المعمورة للعلماء وكبار المسلمين، ويقوم المسلمون بزيارتها أفواجاً أفواجاً، ويبتهلون الى الله تعالىٰ بتلاوة القرآن -وخاصّة سورة الفاتحة- وإهداء ثوابها الى روح صاحب القبر الذي جاءوا لزيارته.

كما أن لكلّ من هذه المراقد المشيَّدة موظّفين يقومون بالخدمة والحراسة والنظافة والصيانة وغيرها.

مع كلّ ماسبق... كيف يمكن اعتبار تعمير القبور حراماً، مع أن العادة المتَّبعة عند المسلمين منذ صدر الاسلام الى يومنا هذا كانت ولا زالت جارية على ذلك، وهذا ما يُسمّيه الفقهاء والعلماء بـ«سيرة المسلمين» وهي التي تمدّ جذورها الى زمن رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- أو زمن أحدٍ من الأئمة الطاهرين من أهل البيت -عليهم السّلام-.

إن هذه السيرة قائمة على جواز البناء على القبور، بل مرغوبيّته ومطلوبيّته، ولم تتعرَّض هذه السيرة -طوال وجودها- لأيّ نقد أو

اعتراض، وهذا يكشف عن أصالتها وصحتها عند المسلمين طوال التاريخ، وأنها كانت من السُنن المتَّبعة عندهم.

و قد اعترف بهذه الأصالة احد الكتّاب الوهّابيّين فكتب يقول:

«هذا أمرٌ عمَّ البلاد، وطبق الأرض شرقاً و غرباً، بحيث لا بلدة من بلاد الاسلام إلّا فيها قبور ومشاهد، بل مساجد المسلمين غالباً لا تخلو عن قبر ومشهد، ولا يسَع عقلُ عاقلٍ أنّ هذا منكَر يبلغ الى ما ذكرت من الشناعة ويسكت علماء الاسلام»(١).

وبالرغم من اعتراف هذا الوهّابي بأن سيرة المسلمين قائمة على تعمير قبور أولياء الله وتكريمها، فإنه لا يكفّ عن عناده وسوء سريرته، فتراه يعتبر ذلك منكراً ويستنكر سكوت العلماء عليه، وأن سكوت اولئك -في تلك الفترة الطويلة- لا يمنع من نهي العلماء عنه في هذه الفترة.

و لكن الردّ عليه واضح: فكيف سكت العلماء سبعة قرون ولم ينطقوا ببنت شفة؟! فهل كان هؤلاء جميعاً -طوال هذه القرون- يسكتون على المنكر ويتحفّظون عن النهي عنه -على مازعم-؟!

و عند ما فتح المسلمون بيت المقدس -في عهد عمر بن الخطاب- لماذا لم يأمر عمر بهدم قبور الأنبياء هناك ؟! فهل تعتبرونه مسالماً للمشركين ؟!

---

(١) تطهير الاعتقاد: ص ١٧، طبعة مصر.

حول جواب علماء المدينة

و أغرب ما في المقام هو الجواب المنسوب الى علماء المدينة... حيث قالوا:

«أمّا البناء على القبور فهو ممنوع إجماعاً، لصحة الأحاديث الواردة في منعه، ولهذا أفتىٰ كثير من العلماء بوجوب هدمه».

كيف يصحّ دعوىٰ الإجماع على تحريم البناء على القبور في حين أن المسلمين قد دفنوا رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ في البيت الذي كانت تسكنه عائشة، ثم دفنوا ـ من بعده ـ أبابكر وعمر الى جواره للتبرّك، وبعدها أقاموا جداراً في وسط البيت، ليصبح نصفها منزلاً للسيّدة عائشة والنصف الآخر مقبرة لرسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وأبي بكر وعمر، وبما أن ارتفاع الجدار كان قليلاً، فقد زيد في ارتفاعه في زمن عبدالله بن الزبير، ثم كان هذا البيت ـ المقبرة ـ يتجدّد أو يُعاد بناؤه بين حين وآخر على مرّ العصور والأزمان، وفقاً للفنّ المعماريّ الخاصّ بكلّ عصر، وفي عهد الأمويّين والعبّاسيّين كان البناء على القبر يحظىٰ باهتمام بالغ، وكان يتجدّد كما يقتضيه الفنّ المعماريّ الخاصّ بكل عصر.

و آخر بناء أُقيم على القبر الشريف ـ والذي لازال حتىٰ الآن ـ كان في عهد السلطان عبدالحميد في عام ١٢٧٠هـ واستغرق أربع سنوات، وبإمكانك ـ أيّها القارئ ـ مراجعة كتاب وفاء الوفا للسمهودي ـ من صفحة ٣٨٣ الى صفحة ٣٩٠ ـ للحصول على

تفاصيل أُخرىٰ حول ما مرّ على مرقد رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ من بناء وتجديد وتعمير، طوال التاريخ الاسلامي، وحتّى عصر السمهودي، ومن بعده في الكتب الخاصّة بتاريخ المدينة المنوّرة.

ج ـ حديث أبي الهيّاج

و الآن قد حان الوقت في أن نبحث في الحديث الذي يتمسّك به الوهّابيّون في حرمة البناء على القبور.

قبل كلّ شيء نذكر نَصّ الحديث بالسَند الذي رواه مسلم في صحيحه:

«حدَّثنا يَحْيىٰ بنْ يَحْيىٰ وَ اَبُوبَكْر بن أبي شَيْبَة وَ زُهَيْرِ بن حَرْب، قال يَحْيىٰ: اَخْبَرَنا ـ وَقال الآخران: حدَّثنا ـ وَكيعُ عَنْ سُفْيانَ عَنْ حَبيب ابن أبي ثابِت عَنْ أبي وائِل عَنْ اَبي الهَيّاج الأسدي قالَ: قالَ لي عَليٌّ ابن أبي طالِب: ألَا أبْعَثُكَ عَلىٰ ما بَعَثَني عَلَيْهِ رَسُولُ الله أنْ لا تَدَعَ تِمْثالاً إلّا طَمَسْته وَلا قَبْراً مُشْرِفاً إلّا سَوَّيْتَهُ»(١).

لقد اتّخذ الوهّابيّون هذا الحديث دليلاً على حرمة البناء على القبور، من دون أيّ تحقيق في رجاله وسَنده.

مُناقشة الحديث

بصورة عامّة اذا أردنا الاستدلال بحديثٍ من الأحاديث

---

(١) صحيح مسلم: ج٣ كتاب الجنائز ص٦١، السُنن للترمذي: ج٢ ص٢٥٦ باب ماجاء في تسوية القبر، السنن للنسائي: ج٤ باب تسوية القبر ص٨٨.

علىٰ حكمٍ من أحكام الله تعالىٰ، فلابدَّ أن يتوفَّر في ذلك الحديث هذان الشرطان.

١ ـ صحة السند: بأن يكون رواة الحديث ورجاله ـ في جميع المراحل والطبقات ـ رجالاً ثقات يمكن الاعتماد عليهم وعلى أقوالهم.

٢ ـ دلالة الحديث: بأن تكون في ألفاظ الحديث وعباراته دلالة كاملة على مقصودنا منه، بحيث يفهمه غيرنا ـ ممّن يُحسن لغة ذلك الحديث ويعرف قواعدها ـ بمثل ما نفهمه نحن ويستنتج ما نستنتجه.

ومن حُسن الحظ أن حديث أبي الهيّاج فاقد لهذين الشرطين، وخاصّة للشرط الثاني، فلا علاقة له بالبناء على القبور إطلاقاً.

توضيح ذلك:

أمّا بالنسبة الى السند، ففيه رواة لم تتّفق كلمة علماء الرجال على وثاقتهم، وفيما يلي نذكر أسماء الرواة ـ في هذا الحديث ـ الذين رفض علماء الرجال أحاديثهم:

١ ـ وكيع.

٢ ـ سفيان الثوري.

٣ ـ حبيب بن أبي ثابت.

٤ ـ أبو وائل الأسدي.

هؤلاء الرواة الأربعة إنتقدهم الحافظ ابن حجر العسقلاني ـ في كتابه تهذيب التهذيب ـ وذكرهم بما يسلب الثقة من حديثهم

هذا وأحاديثهم الأُخرىٰ.

١ ـ فبالنسبة الى «وكيع» يروي الحافظ العسقلاني عن أحمد ابن حنبل ـإمام الحنابلة ـ انه قال فيه:

«إنه أخطأ في خمسمائة حديث»(١).

و يقول أيضاً نقلاً عن محمّد بن نصر المروزي:

«كان [وكيع] يحدّث بالمعنىٰ ولم يكن من أهل اللسان»(٢).

٢ ـ و بالنسبة الى «سفيان الثوري» يقول العسقلاني عن ابن مبارك:

«حدَّث سفيان بحديثٍ، فجئتُه وهو يُدلّسه، فلمّا رآني استحيىٰ»(٣).

إن التدليس ـ بأيّ معنىً كان ـ في الحديث يدلّ على أن الراوي المدلّس كان فاقداً لملكة العدالة والصدق، ولذلك كان يُصوِّر غير الواقع واقعاً ـ كما هو معنىٰ التدليس في اللغة ـ.

و عند ترجمة حياة يحيىٰ القطّان، يقول الحافظ العسقلاني: إن يحيىٰ القطّان قال:

«جَهد سفيان الثوري ان يُدلّس عليَّ رجلاً ضعيفاً فما أمكنه»(٤).

٣ ـ وبالنسبة الى «حبيب بن أبي ثابت»، كتب العسقلاني نقلاً عن أبي حبان: إن حبيب:

---

(١) تهذيب التهذيب للعسقلاني: ج١١ ص١٢٥.

(٢) المصدر السابق: ج١١ ص١٣٠.

(٣) لمصدر السابق ج٤ ص١١٥.

(٤) المصدر السابق ج١١ ص٢١٨.

«كان مُدلّساً»(١).

و كتب نقلاً عن قطّان: إن حبيب

«لا يتابَع عليه، وليست بمحفوظة»(٢).

٤ ـ و أمّا بالنسبة الى «أبي وائل» فقد كان من المنحرفين عن الامام علي أمير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ وممّن نَصب العداء والبغضاء له ـ عليه السّلام ـ (٣)، فكيف يُعتمد عليه وقد قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ:

«يا عَليّ لا يُحِبُّكَ إلّا مُؤمِنٌ، وَلا يُبْغِضُكَ اِلّا مُنافِقٌ»(٤).

والجدير بالذكر: أن راوي حديث أبي الهيّاج ليس له حديث في كلّ الصحاح الستة ـ من أوّلها الى آخرها ـ إلّا هذا الحديث فقط، فماذا تقول في رجل ليست له إلّا رواية واحدة؟!

إن هذا يدلّ على أن الرجل ليس راوياً للحديث، و على هذا الأساس فالاعتماد على حديثه لا يخلو من إشكال.

أيّها القارئ الكريم: هذا سَند حديث أبي الهيّاج، وقد عرفت ضعف رواته وعدم اتفاق علماء الرجال عليهم، فاذا كان الحديث محفوفاً بهذه الاشكالات المتعدّدة، فلا يمكن لأيّ فقيه أن يستند عليه في استنباط الحكم وإصدار الفتوى.

و أمّا دلالة الحديث فلا يقلّ إشكالاً عن السند ذاته، إذ أن

(١ و ٢) تهذيب التهذيب: ج٣ ص١٧٩.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج٩ ص٩٩.

(٤) مجمع الزوائد للهيثمي: ج٩ ص١٣٣، وروى قريباً منه الترمذي في صحيحه: ج٢ ص٣٠١، ومسلم في صحيحه: كتاب الايمان وغيرهم.

النقطة المهمّة التي يستشهدون بها ـ في هذا الحديث ـ هو قوله:

«وَلا قَبْراً مُشْرِفاً إلاّ سَوَّيْتَهُ».

هنا لابدّ من وقفة تأمّل و تحقيق عند كلمتي:

١ ـ مشرفاً.

٢ ـ سوّيته.

١ ـ إن لفظة «المشْرف» معناه: العالي و المرتفع. قال في المنجد:

«المشرف من الأماكن: العالي والمطلّ على غيره».

و قال صاحب القاموس ـ وهو اكثر أصالة في ترتيب معاني الألفاظ ـ:

«الشَرَف ـ محرّكة ـ: العلو، ومن البعير: سنامه».

إذن: معنىٰ «مشرف» هو الارتفاع المطلق، و خاصّة الارتفاع الذي على شكل سنام البعير.

فيجب هنا ـ مع الانتباه و الالتفات الى القرائن ـ أن نبحث عن المعنىٰ المراد من «المشرف» في الحديث.

٢ ـ لفظة «سوّيته» معناها: جعْل الشيء متساوياً، وتقويم المعوج.

سوّىٰ الشيء: جعَله سويّا، يقال: سوّيتُ المعوَجَّ فاستوىٰ: صنعتُه مستوياً.

و جاء في القرآن الكريم:

«اَلّذي خَلَقَ فَسَوّىٰ»(١).

(١) سورة الأعلىٰ: آية٢.

بعد الاطّلاع على معاني المفردات، يجب أن نعلم: ما هو المقصود من هذا الحديث؟

الواقع: لهذا الحديث احتمالان، ولابدّ من تعيين أحدهما على ضوء معاني المفردات والدلائل الأُخرىٰ.

الاحتمال الأول: أن يكون الامام أميرالمؤمنين ـ عليه السّلام ـ قد أمر أبا الهيّاج بهدم القبور المرتفعة، وتسويتها مع الأرض تماماً.

و لكن هذا الاحتمال ـ الذي يتمسّك به الوهّابيّون ـ مردود ومرفوض لعدَّة أسباب:

أولاً: لأن لفظة «التسوية» لم تأت ـ في اللغة ـ بمعنىٰ الهدم والتدمير، ولو كان المقصود به هنا هو ذلك لكان المفروض أن يقال: «ولا قبراً إلّا سوّيته بالأرض» والحديث يخلو من ذلك.

ثانياً: لو كان المقصود منه هو الهدم فلماذا لم يُصدر أحدٌ من علماء الاسلام الفتوىٰ بذلك ؟!

بالاضافة الى أن تسوية القبر بالأرض هي خلاف للسنَّة الاسلامية والاستحباب الشرعي، إذ أنه يُستحب شرعاً أن يكون القبر مرتفعاً عن الأرض، وقد أفتىٰ جميع فقهاء الاسلام باستحباب ارتفاع القبر عن الأرض شبراً واحداً.

جاء في كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ـ الذي يُطابق فتاوىٰ أئمة المذاهب الأربعة ـ مايلي:

«ويندب ارتفاع التراب فوق القبر بقدر شبر»(١).

---

(١) الفقه على المذاهب الأربعة: ج١ ص٤٢٠.

فاذا كان هذا الاحتمال الأول مردوداً، وجب ان نُفسّر الحديث بالاحتمال الآتي.

الاحتمال الثاني: أن يكون المقصود من تسوية القبر هو جعل سطحه مستوياً ومسطّحاً، بعكس القبور التي تُبنىٰ علىٰ شكل ظَهر السَمك وسنام البعير، وعلىٰ هذا الأساس فإن الحديث يعني أن يكون سقف القبر مسطّحاً ومستوياً، ولا يجوز أن يكون كظهر السَمك أو مُسنَّماً، كما هي العادة عند بعض أهل السُنَّة، وقد أفتىٰ أئمة المذاهب الأربعة ـ باستثناء الشافعي ـ باستحباب تسنيم القبر(١).

وبذلك فإن هذا الحديث يؤيّد فتوىٰ علماء الشيعة الذين يقولون بأن القبر ينبغي أن يكون مسطّحاً ومستوياً في نفس الوقت الذي يكون مرتفعاً عن الأرض.

وتجدر الاشارة الى أن مسلماً أورد في صحيحه حديث أبي الهيّاج وحديثاً آخر ـ سنذكره ـ تحت عنوان: باب الأمر بتسوية القبر، وكذلك ذكره الترمذي والنسائي في سُننهما تحت نفس العنوان، والمقصود من هذا العنوان هو أن يكون القبر مسطّحاً ومستوياً، ولو كان المقصود منه تسوية القبر بالأرض لكان

---

(١) الفقه على المذاهب الأربعة: ج١ ص٤٢٠ وفيه «**ويُجعل كسنام البعير، وقال الشافعي: جعل التراب مستوياً مسطّحاً أفضل من تسنيمه**».

أقول: فعلىٰ هذا فإن حديث أبي الهيّاج لا يُعمل به إلّا في المذهب الشافعي والمذهب الشيعي.

المفروض تسمية الباب المذكور بـ«باب الأمر بتخريب القبور وهدمها».

و هذا ما تجده في اللغة أيضاً، فكلمة «تسوية» لو أُطلقت على شيء ـ كالقبر ـ كان معناها أن يكون القبر نفسه مسطّحاً ومستوياً، لا أن يسوّىٰ بشيء آخر كالأرض مثلاً.

وإليك الحديث الآخر الذي ذكره مسلم في صحيحه ـ والذي يحتوي نفس المضمون الذي اخترناه ـ:

«كُنّا مَعَ فَضَالَة بن عُبَيْدٍ بِأَرْضِ الرُّوم بِـ«رَوْدَسٍ» فَتُوُفِّيَ صاحِبٌ لَنا، فَأَمَرَفَضالَة بن عُبَيْدٍ بقبره فَسُوِّيَ، ثُمَّ قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله يَأمُرُ بِتَسْوِيَتِها»(١).

و الخلاصة: إن مفتاح معرفة هذا الحديث يكمن في لفظ «سوّيته» وفيه ثلاث احتمالات، ومع الانتباه الى الدلائل والقرائن لابدّ من انتخاب احتمال واحد. والاحتمالات هي:

١ ـ أن يكون المعنىٰ هو هدم البناء المشيَّد على القبر.

و هذا الاحتمال باطل، لأن القبور التي كانت في المدينة لم تكن لهاقباب وضرائح يومئذٍ.

٢ ـ أن يكون المعنىٰ هو تسوية القبر مع الأرض.

و هذا الاحتمال مردود أيضاً، لأن السنّة القطعيّة تقتضي بارتفاع القبر عن الأرض شبراً واحداً.

٣ ـ أن يكون المعنىٰ هو تسطيح القبر، و تعديل ما فيه من

(١) صحيح مسلم: ج٣ كتاب الجنائز ص٦١.

اعوجاج، والحيلولة دون تسنيمه كظهر السمك وسنام البعير.

و هذا هو المتعيَّن، و علىٰ هذا فلا علاقة له بمقصود الوهّابي الذي استدلّ به.

و الآن تعال الى العلّامة النووي - شارح صحيح مسلم - لترىٰ كيف يشرح الحديث ويقول:

«إن السُنّة أن القبر لا يُرفع عن الأرض رفعاً كثيراً، ولا يُسنَّم، بل يُرفع نحو شِبر ويُسطّح»(١).

يظهر من هذه العبارة أن شارح صحيح مسلم قد استنبط نفس المعنىٰ الذي استنبطناه من هذا الحديث، بأن الامام أميرالمؤمنين -عليه السّلام- أوصىٰ أبا الهيّاج بتبديل القبور المسنَّمة -أو التي على شكل ظهر السمك - الى قبور مسطّحة، ولم يأمر بتسوية القبور بالأرض.

و لم ننفرد نحن في استنباط هذا المعنىٰ من هذا الحديث، بل قال به الحافظ القسطلاني في كتاب «إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري»، فبعدما يذكر أن السُنّة في القبر تسطيحه وأنه لا يجوز ترك هذه السُنّة، لمجرّد أنها صارت شعاراً «للرافض» وأنه لا منافاة بين التسطيح وحديث أبي الهيّاج... يقول:

«... لأنه لم يُرد تسويته بالأرض و إنما أراد تسطيحه، جمعاً بين الأخبار»(٢).

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي.

(٢) إرشاد الساري:ج٢ ص٤٦٨.

بعد هذا كلّه، لو كان المعنىٰ ـ في وصيّة الامام أمير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ لأبي الهيّاج ـ هو هدم القباب والبناءِ المشيَّد على القبور، فلماذا لم يأمر ـ عليه السّلام ـ بهدم القباب التي كانت على قبور الأنبياء في زمانه؟!

مع العلم أنه ـ عليه السّلام ـ كان يومذاك الحاكم المطلق على البلاد الاسلامية كلّها، وكان يعلم بالقباب المشيَّدة على قبور الأنبياء في كلّ من فلسطين وسوريا والعراق ومصر وايران واليمن.

و مع غضّ النظر عن ذلك كلّه، ولو فرضنا أن الامام ـ عليه السّلام ـ أمر أبا الهيّاج بهدم القبور المرتفعة وتسويتها مع الأرض تماماً، فليس في الحديث ما يدلّ على وجوب هدم البناء المشيَّد على القبور، ذلك لأن الامام ـ عليه السّلام ـ قال لأبي الهيّاج ـ على فرض صحة الحديث ـ:

«ولا قبراً إلّا سوّيته».

و لم يقل: «ولا بناءً و لا قبَّة إلّا سوّيتهما» مع العلم أن البحث ليس عن القبر نفسه، وإنّما عن الأبنية المقامة عليه، هذه الأبنية التي يستظلّ المؤمنون بظلالها، لتلاوة القرآن والدعاء وإقام الصلاة، فهل في هذه العبارة ما يدلّ على هدم هذه الأبنية والآثار التي تُساعد الزوّار على العبادة وتصونهم عن الحرّ والبرد؟!

احتمالان... في النهاية

و في النهاية وختام البحث هناك احتمالان آخران، لا

مناصّ من ذكرهما تتميماً للموضوع.

الاحتمال الأول: أن يكون هذا الحديث ـ و أحاديث أُخرىٰ مشابهة ـ إشارة الى ما كان متعارفاً عند بعض الأُمم السابقة، من اتّخاذ قبور الصالحين قبلة لهم يتوجّهون اليها عند العبادة، وكانوا ينصبون صورةً الى جانب القبر، وبذلك يتركون التوجّه الى القبلة التي أمرهم الله تعالىٰ بالتوجّه اليها حال العبادة.

و على هذا الاحتمال فلا يمكن أن تكون لهذا الحديث أيّة صلة بقبور المسلمين، ولم يُعهد من أيّ مسلم أن يتوجّه اليها في الصلاة أويسجد عليها، بل جرت سيرة المسلمين على الصلاة بجوار القبور، من دون أن تكون قبلة لهم، بل وجوهُهم نحو الكعبة، يقيمون الصلاة ويتلون كتاب الله وهم بجوار القبور.

و اذا كان المسلمون يتسارعون الى زيارة قبور أولياء الله الصالحين، ويقضون هناك ساعات في عبادة الله تعالى بجوار تلك المراقد المقدّسة، فإنما هو بسبب ما اكتسبته تلك الأرض من الشرف والقدسيّة بسبب احتضانها لذلك الجسد الطاهر. ولهذا البحث تفصيل قادم.

الاحتمال الثاني: أن يكون المقصود من قوله ـ عليه السّلام ـ لأبي الهيّاج: «أنْ لا تدَع تمثالاً إلّا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلّا سوّيته» أن يكون المقصود من «التمثال» تصاوير الأصنام، ومن «القبر» قبور المشركين التي كانت مشمولة بالعطف والعناية من ذويهم.

والخلاصة: إن حديث أبي الهيّاج لا علاقة له بالبناء على

القبور أصلاً، بل هو بشأن القبور المسنَّمة، أو بشأن قبور المشركين وتماثيل الأصنام.

و فيما يلي نذكر فتوىٰ أئمة المذاهب الأربعة حول البناء على القبور:

«يكره أن يُبنىٰ القبر ببيتٍ أو قبّة أو مدرسة أو مسجد»(١).

فما دام أئمة المذاهب الأربعة متّفقين على كراهية البناء على القبور.. فكيف يتجرّأ قاضي نجد على الفتوىٰ بحرمة البناء؟!!

«إنْ هذا إلّا اختلاق».

مع العلم أن الحكم بالكراهة لا دليل صحيح عليه، و خاصّة اذا كان البناء مساعداً للزائر لإقامة الفرائض الدينية وتلاوة القرآن الحكيم عند القبر الذي يُقام عليه البناء.

د ـ حديث جابر

يُعتبر حديث جابر من جملة الأدلّة التي يتمسّك بها الوهّابيّون على حرمة البناء على القبور، وقد روي هذا الحديث في الصحاح والسُنن بألفاظ مختلفة، ويوجد في جميع أسنادها ورواتها رجلان:

١ ـ ابن جريح.

٢ ـ أبو الزبير.

و التحقيق في صحة هذا الحديث يتوقّف على معرفة أحوال رواته ورجال سَنده، وفيما يلي نذكر الحديث بألفاظه المتعدّدة المختلفة:

---

(١) الفقه على المذاهب الأربعة: ج١ ص٤٢١.

جاء في صحيح مسلم - باب النهي عن تجصيص القبر و البناء عليه- حديث جابر مروياً بثلاث طُرق وفي صورتين:

١ - حَدَّثَنا أَبُوبَكْربن أبي شَيْبَة، حَدَّثنا حَفْصُ بن غِياث، عَنْ ابن جُرَيح، عَن أَبي الزبير، عَنْ جابِرقالَ: نَهىٰ رَسُولُ الله أَنْ يُجصَّصَ القَبْرُ وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ وَأَنْ يُبْنىٰ عَلَيْهِ.

٢ - حَدَّثني هارُونَ بن عَبْدِالله، حَدَّثَنا حَجّاجُ بن مُحمَّد، وَحَدَّثني مُحَمّد بن رافِع، حَدَّثنا عَبْدالرَّزّاق، جَميعاً عَنْ ابن جُرَيْح قالَ: أَخْبَرَني أبوالزبير أنّه سَمِعَ جابِرُبن عَبْدالله يَقُولُ: سَمِعْتُ النبيَّ بِمِثْلِهِ.

٣ - حَدَّثنا يَحْيىٰ بن يَحْيىٰ، أَخْبَرنا إسْماعيلُ بن عُلَيَّه، عَنْ أَيُّوب، عَنْ أَبي الزُبَيْر، عَنْ جابر قال: نَهىٰ عن تجصيصِ القُبُور(١).

و جاء في صحيح الترمذي - باب كراهة تجصيص القبور والكتابة عليها- حديث واحد عن طريق واحد هو:

٤ - حَدَّثنا عَبْدُ الرَّحْمٰن بن الأَسْوَد، أَخْبَرَنا مُحَمّد بن رَبيعَة، عَنْ ابن جُريج، عن أَبي الزُّبير، عَنْ جابِر قالَ: نَهىٰ رَسُولُ الله عَنْ تَجصيصِ القُبُورِ وأَنْ يُكْتَبَ عَلَيْها وَ أَنْ يُبْنىٰ عَلَيْها وَ اَنْ تُوطأ.

ثم يذكر الترمذي عن الحسن البصري و الشافعي أنها أفتيا بجواز تجصيص القبور(٢).

و جاء في صحيح ابن ماجة -باب ما جاء في النهي عن البناء على القبور وتجصيصها والكتابة عليها- هذا الحديث بطريقين

(١) صحيح مسلم: كتاب الجنائزج٣ ص٦٢.

(٢) السنن للترمذي: ج٢ ص٢٠٨ تحقيق عبدالرحمٰن محمّد عثمان طبعة المكتبة السلفية.

وصورتين هما:

٥ - حَدَّثَنا أزهربْن مَرْوانَ، وَمُحَمّد بن زِياد قالَ: حَدَّثَنا عَبْدُالوارث، عَنْ أيّوب، عَنْ أَبي الزُبَيْر، عَنْ جابِرٍ قالَ: نَهى رَسُولُ الله عَنْ تَجْصيصِ القُبُور.

٦ - حَدَّثَنا عَبْدُالله بن سعيد، حَدَّثَنا حَفْصُ، عَنْ ابن جُريح، عَنْ سُلَيْمان بن مُوسىٰ، عَنْ جابِرٍ قالَ: نَهىٰ رَسُولُ الله اَنْ يُكْتَبَ على القَبرُ شَيء(١).

و بعد ذكر هذا الحديث يقول السندي -شارح الحديث- نقلاً عن الحاكم النيسابوري أن الحديث صحيح ولكنه غير معمول به، لأن قادة الاسلام -في شرق الأرض وغربها- جرت سيرتهم على الكتابة على القبر،خَلَفاً عن سَلَف.

و جاء في صحيح النسائي -باب البناء على القبر- هذا الحديث بطريقين وصورتين هما:

٧ - أخبَرَنا يُوسُفُ بن سَعيدٍ قالَ: حَدَّثَنا حَجّاج عِنْ ابن جُريح قالَ: أَخْبَرَني أبو الزُبَيْر أَنّه سَمِعَ جابِراً يَقُول: نَهىٰ رسُولُ الله عَنْ تَجْصيصِ القُبُورِ أَوْيُبْنىٰ عَلَيْها أَوْيَجْلِسَ عَلَيْها أحَد.

٨ - أخبَرَنا عِمْرانُ بن مُوسىٰ قالَ: حَدَّثَنا عَبْدُ الوارِث قالَ: حَدَّثَنا أيّوبُ، أبي عَنْ الزُبير، عن جابرقال: نهىٰ رَسُولُ الله تُجْصيصِ القُبُور(٢)

و جاء في سنن أبي داود ج٣ ص ٢١٦ -باب البناء على القبر-

(١) صحيح ابن ماجة: ج١ كتاب الجنائز ص٤٧٣.

(٢) صحيح النسائي: ج٤ ص ٨٧ - ٨٨ المطبوع مع شرح الحافظ السيوطي.

حديث جابر بطريقين وصورتين هما:

٩ ـ حَدَّثَنا أحْمَد بن حَنْبَل، حَدَّثَنا عَبْدُالرَزّاق، حَدَّثَنا ابن جُريح، أَخْبرني أبو الزُبَيْر أنّهُ سَمِعَ جابِراً يَقُول: سَمِعْتُ النَبِيّ نَهىٰ أَنْ يُقْعَد عَلىٰ القَبْرِ وَأَنْ يُجصَّص وَيُبْنىٰ عَلَيْهِ.

١٠ ـ حَدَّثَنا مُسَدَّد، وَعُثْمانُ بن أبي شَيْبَة قالَ: حَدَّثَنا حَفْصُ بن غياث، عَنْ ابن جُرْيحَ، عَنْ سُلَيْمان بن مُوسىٰ، وَعَنْ أَبي الزُبَيْر، عَنْ جابِر بهٰذا الحَديث.

قالَ أَبُوداوُد: قالَ عُثْمان: «اَوْيُزادُ عَلَيْهِ». وَزادَ سُلَيْمان بن مُوسىٰ: «اَوْ أَنْ يُكْتَب عَلَيْهِ».

أمّا أحمد بن حنبل ـ إمام الحنابلة ـ فقد روىٰ الحديث في مسنده على الشكل التالي:

١١ ـ عَنْ عَبْدِ الرَزّاق عَنْ ابن جُرَيْح: أَخْبَرَني أبو الزُبَيْر أنّه سَمِعَ جابِر ابن عَبْدالله يَقُول: سَمِعْتُ النَبّي يَنْهىٰ أن يَقْعُد الرَّجُلُ عَلَى القَبْرِ وَأَنْ يُجَصَّص وَأَنْ يُبْنىٰ عَلَيْهِ(١).

هذا ما روي عن جابر في هذا الموضوع، ذكرناه بألفاظه المختلفة وأسانيده المتعدّدة. والآن يأتي دور البحث والتحقيق فيها، لنرىٰ هل تصلح للاستدلال أم لا؟!

نقاط الضعف في الحديث

حديث جابر هذا، فيه مجموعة كبيرة من نقاط الضعف،

(١) مسند أحمد: ج٣ ص ٢٩٥ و ٣٣٢، و رواه أيضاً مُرسَلاً عن جابر في ص٣٩٩.

بحيث تسقطه عن الحجيّة والاعتبار، ولا يمكن الاستدلال به بأيّ وجه. و فيما يلي نذكر نقاط الضعف فيه:

أولاً: لقد جاء في جميع أسانيده اسم ابن جُريح(١) وأبو الزبير(٢) كلاهما معاً، أو بصورة منفردة، فاذا عرفنا هويّة هٰذين الراويين وأحوالهما، فلاحاجة الى معرفة حال الرواة الآخرين فيه، بالرغم من وجود مجهولين أو ضعّاف الحديث فيه.

في كتاب تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني تقرأ رأي علماء الرجال في ابن جُريح فيمايلي:

سُئل يحيىٰ بن سعيد عن حديث ابن جُريح فقال: ضعيف. فقيل له: إنه يقول: أخبرَني، قال: لا شيء... كلُّه ضعيف(٣).

و قال أحمد بن حنبل: اذا قال ابن جُريح: قال فلان و قال فلان وأُخبرتُ، جاء بمناكير(٤).

أي: أحاديثه منكرة و مجهولة، أو أنها منكرات.

وقال مالك بن أنس: كان ابن جُريح حاطبَ ليل(٥).

«وقال الدارقطني: تجنّب تدليس ابن جُريح، فانه قبيح التدليس، لا

---

(١) هو عبدالملك بن عبدالعزيز بن جُريح الأُموي.

(٢) هو محمّد بن مسلم الأسدي.

(٣) تهذيب التهذيب: ج٦ ص٤٠٦.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تهذيب التهذيب: ج ٦ ص ٤٠٤. و (حاطب ليل)، -في أصل معناه-: جامع الحطب في الليل، حيث لايرىٰ ما يجمع، ويُضرب به المثَل لمن يجمع كلّ شيء لا يُميِّز الجيّد من الرديّ.

يُدلّس إلاّ فيما سمعه من مجروح.

وقال ابن حبان: كان ابن جريح يُدلّس في الحديث(١).

بالله عليك ـ أيّها القارئ ـ هل يجوز الأخذ برواية هذا الرجل مع ما ورد فيه من الذمّ والقدح والتضعيف من علماء الرجال؟!!

و هل يجوز أن نُعرض عن سيرة المسلمين ـ القائمة على بناء قبور أولياء الله واحترامها ـ استناداً الىٰ حديث هذا الراوي المدلّس؟!!

و هل يجوز أن نرمي المسلمين بالشرك و الكفر والزندقة، لأنهم يُحيون السُنّة الاسلامية وينتهجون سيرة السلف الصالح في البناء على القبور وزيارتها واحترامها؟!

هذا بعض ما يتعلّق بابن جُريح.

و أمّا أبو الزبير، فهذا ابن حجر يذكر أقوال علماء الرجال فيه فيمايلي:

«عن عبدالله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه إمام الحنابلة، عن أيّوب أنه كان يعتبر أبا الزبير ضعيف الرواية».

و عن شُعبة أن أبا الزبير ما كان يُحسن الصلاة

و عن شعبة أيضاً أنه قال:

«لم يكن في الدنيا أحبّ اليّ من رجل يقدم فأسأله عن أبي الزبير، فقدِمتُ مكّة فسمعتُ منه، فبينا أنا جالس عنده إذجاءه رجل فسأله عن مسألةٍ، فردَّ عليه فافترىٰ عليه».

(١) تهذيب التهذيب: ج ٦ ص ٤٠٢ وص ٥٠٦ طبعة دار المعارف النظامية.

فقلت: يا أبا الزبير تفتري على رجل مسلم؟!

قال: إنه أغضبني.

قلت: وَمن يُغضبك تفتري عليه؟! لا رويتُ عنك شيئاً».

وعن ورقاء قال:

«قلت لشعبة: مالك تركت حديث أبي الزبير؟

قال: رأيته يَزِنْ ويسترجع في الميزان».

وقال ابن أبي حاتم:

«سألتُ أبي عن أبي الزبير؟

فقال: يُكتب حديثه ولا يُحتجُّ به».

قال: وسألت أبا زرعة عن أبي الزبير؟

فقال: يروي عنه الناس.

قلت: يُحتجُّ بحديثه؟

قال: إنما يُحتَجُّ بحديث الثقات(١). «كناية عن أنه ليس بثقة».

نعم يا أخي... هذا حال ابن جُريح وأبي الزبير، وهما من رواة حديث جابر في جميع أسانيده، فهل يمكن الاستدلال بحديثٍ فيه هٰذان الراويان؟!

وقد سبقت الاشارة الى أن في سند هذا الحديث رواة ضعافاً غير ابن جُريح وأبي الزبير، كعبدالرحمٰن بن أسود المتَّهم بالكذب والوضع.

(١) تهذيب التهذيب، في ترجمة أبي الزبير.

فهل يجوز هدم آثار أهل بيت النبوّة والرسالة -عليهم الصلاة والسّلام- وهدم آثار الصحابة، ونسبة الخطأ والانحراف الى المسلمين طوال أربعة عشر قرناً، كلّ ذلك اعتماداً علىٰ هذا الحديث الضعيف المردود المرفوض الساقط؟!

ثانياً: إن حديث جابر مضطرب جداً من حيث المتن والألفاظ، وهذا الاضطراب يدلّ على أن رواة هذا الحديث كانوا فاقدين للضبط والتدقيق في الرواية، مع العلم أن الضبط شرطٌ في الراوي، وهذا الاضطراب يمنع الاطمئنان بهذا الحديث ويسلب الثقة والاعتماد عليه.

وإليك تفصيل البحث:

لقد روي حديث جابر بسبع صوَر، مع العلم أن النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- نطق به بصورة واحدة، وإليك توضيح الصوَر السبع:

١ - نهىٰ رسول الله عن تجصيص القبر والاعتماد عليه. الحديث رقم ١، ٢، ٩.

٢ - نهىٰ رسول الله عن تجصيص القبر. الحديث رقم ٥، ٨.

٣ - نهىٰ رسول الله عن تجصيص القبر والكتابة عليه والبناء عليه والمشي عليه. الحديث رقم ٤.

٤ - نهىٰ رسول الله عن الكتابة على القبر. الحديث رقم ٦.

٥ - نهىٰ رسول الله عن الجلوس على القبر وتجصيصه والبناء والكتابة عليه. الحديث رقم ١٠.

٦ - نهىٰ رسول الله عن الجلوس على القبر وتجصيصه والبناء عليه. الحديث رقم ١١.

و الفرق بين هذه الصورة والصورة الأُولىٰ هو أن الأُولىٰ منعت الاعتماد والاتّكاء على القبر، وهذه تمنع الجلوس عليه.

٧ - نهىٰ رسول الله عن الجلوس على القبر وتجصيصه والبناء عليه والزيادة عليه والكتابة عليه، ونلاحظ في هذه الصورة - مضافاً الى الجلوس والتجصيص والبناء - إضافة الزيادة على القبر والكتابة عليه.

و بعد هذا كلّه انظر الىٰ الاختلاف والتباين في متون الحديث وعباراته، ففي الصورة الأُولىٰ يقول: «الاعتماد» وفي الثالثة: «الوطأ» وفي الخامسة والسادسة: «القعود».

و من الثابت أن الاعتماد غير الوطأ وغير القعود فمع هذا الاضطراب والاختلاف - في الحديث - لا يمكن - لأيِّ فقيه - أن يثق به ويعتمد عليه.

ثالثاً: إن هذا الحديث - على فرض صحته والغضّ عن اضطرابه - لا يدلّ على اكثر من نهي النبي - صلّى الله عليه وآله وسلّم - عن البناء على القبور، ولكن النهي لا يدلّ على الحرمة، لأنه قسمان: نهي تحريم ونهي كراهة، والقسم الثاني كثير جداً في أحاديث النبي والأئمة الطاهرين - عليهم السّلام -.

صحيح أن الأصل في النهي التحريم، وأنه حقيقةٌ فيه حتى يثبت دليل يصرفه عن التحريم الى الكراهة، ولكن العلماء

والفقهاء لم يستنبطوا من ذلك إلّا الكراهة فقط، فترىٰ -مثلاً- الترمذي يذكر هذا الحديث في صحيحه تحت عنوان: كراهية تجصيص القبور و... وأوضح شاهد على الكراهة هو أن السندي -شارح صحيح ابن ماجة- يذكر عن الحاكم النيسابوري أنه قال: لم يعمل بهذا النهي أحد من المسلمين، فهو لم يعتبر النهي تحريماً، بدليل أن سيرة المسلمين قائمة على الكتابة على القبور.

و ممّا يشهد أيضاً على أن النهي نهي كراهة هو اتفاق المذاهب الاسلامية على جواز البناء على القبر إلّا اذا كانت الأرض موقوفة شرعاً.

يقول شارح صحيح مسلم -في شرح هذا الحديث-:

«أمّا البناء فإن كان في مِلك الباني فمكروه، وإن كان في مقبرة مُسْبَلة(١) فحرام، نصّ عليه الشافعي والأصحاب»(٢).

و ممّا لا يحتاج الى بيان هو أن الشيء المكروه قد ترتفع كراهيّته بالنظر الى بعض الأُمور الأُخرىٰ، فمثلاً: اذا صار البناء على القبر سبباً لحفظ أصالة الاسلام و إظهار المودّة لصاحب ذلك القبر الذي فَرَض الله تعالىٰ محبّته ومودّته أو يكون سبباً لصيانة الشعائر الاسلامية أو يؤدّي الى تجمّع الزوّار -تحت البناء- لتلاوة القرآن والصلاة والدعاء، فبالقطع واليقين أن الكراهة لا ترتفع فحسب، بل يكون ذلك أمراً مستحبّاً محبوباً مطلوباً مرغوباً فيه،

---

(١) مُسْبَلة: موقوفة في سبيل الله تعالىٰ.

(٢) صحيح مسلم: ج٣ ص٦٢ طبعة مصر.

من باب إحياء التراث الديني وإقامة الشعائر الاسلامية.

إن ممّا لا شكّ فيه: أن الحكم المكروه أو المستحب قد يتغيَّر بسبب عناوين أُخرىٰ، وبالنظر الى عوامل أُخرىٰ، فكم من المكروهات التي ينتقل حكمها الى الاستحباب لعوامل خاصّة، وكم من المستحبّات التي تنقلب مرجوحة لنفس السبب، ذلك لأن استحباب الشيء وكراهيَّته ليس معناه إلّا المقتضي للمحبوبيّة أو المرجوحيَّة، وهذه المقتضيات تكون نافذة مع عدم المانع من الاقتضاء والتأثير، أو كان المانع أقوىٰ من المقتضي، فمثلاً: النار تقتضي الإحراق بشرط أن لا يكون الحطب رطباً، والدواء يقتضي برء المريض بشرط عدم المانع ، وهذه بحوث واضحة لمن له إلمام بالفقه الاسلامي.

الاستدلال بحديثين آخرين

تتميماً للبحث نذكر حديثين آخرين تمسّك بها الوهّابيّون في هذا المقام وهما:

روىٰ ابن ماجة في صحيحه مايلي:

١ ـ حَدَّثَنا مُحَمَّد بن يَحيىٰ، حَدَّثَنا مُحَمَّد بن عَبْدُالله الرِقاشي، حَدَّثنا وَهَب، حَدَّثنا عَبْدُالرَّحْمٰن بن يَزيد بن جابِر، عَنِ القاسِمِ بن مُخَيْمَرة، عَنْ اَبي سَعيد: اِنَّ النَبّي نَهىٰ اَنْ يُبْنىٰ عَلَى القَبْر(١).

و يذكر أحمد بن حنبل حديثاً آخر بسَندين هما:

(١) صحيح ابن ماجة: ج١ ص٤٧٤.

٢ ـ حَدَّثَنا حَسَن، حَدَّثَنا ابن لَهيعَة، حَدَّثَنا بُريد بن أبي حَبيب، عَنْ ناعِم مَوْلىٰ أُمّ سَلَمة عَنْ أُمّ سَلَمة قالَتْ: نَهى رَسُولُ الله أَنْ يُبْنىٰ عَلَى الْقَبْر أوْ يُجَصَّص.

٣ ـ عَليُّ بن إسْحاق، حَدَّثَنا عَبْدُالله بن لَهْيعَة، حَدَّثني بَريد بن أَبي حَبيب عَنْ ناعِم مَوْلىٰ أُمَّ سَلَمة اَنَّ النَّبيّ نَهىٰ اَنْ يُجَصَّص قَبْرٌ اَوْ يُبْنىٰ عَلَيْهِ اَوْ يُجلَسَ(١).

بالنسبة الى الحديث الأول فيكفي في ضعفه أن من رواته رجل اسمه «وهب» وليس معلوماً حاله، لأن هناك ١٧ رجلاً كلّ واحد منهم اسمه «وهب» من دون تميز أو تشخيص، وفيهم الوضّاعون والكذّابون(٢) وليس واضحاً أن وهب ـ في هذا الحديث ـ مَن هو؟ فالرواية ساقطة.

و أمّا الحديث الثاني و الثالث فهما ساقطان أيضاً، لوجود عبدالله بن لهيعة في سَنده.

و فيه يقول الذهبي:

قال ابن معين: ضعيف لا يُحتجّ به.

قال الحميدي، عن يحيىٰ بن سعيد: انه كان لا يراه شيئاً(٣).

نحن لا نناقش سَند هذين الحديثين، و نكتفي بالاشارة الى نقطة هامّة وهي: أن جميع المؤرّخين والمحدّثين وأهل السِيَر ذكروا

---

(١) مسند أحمد: ج٦ ص٢٩٩.

(٢) ميزان الاعتدال: ج٣ ص٣٥٠ ـ ٣٥٥.

(٣) ميزان الاعتدال: ج٢ ص٤٧٦ تحت عنوان: عبدالله بن لهيعة، تهذيب التهذيب: ج١ ص٤٤٤

بأن جسد رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قد دفن في بيت عائشة، بموافقة الصحابة، وقد تمَّ انتخاب بيتها للدفن استناداً الى ما روي عنه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ بأن كلّ نبي يُدفن في المكان الذي يموت فيه(١).

و الآن... يأتي هذا السؤال: اذا كان النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قد نهىٰ عن البناء على القبر، فكيف دفنوا جسده الطيّب الطاهر في بيتٍ مسقَّف، ثم أقاموا جداراً في وسط البيت، فصار للقبر الشريف بناء يقصده المؤمنون ويزوره المسلمون؟!

و من المضحك ـ في هذا المجال ـ هو قول أحد الكتّاب الوهّابيّين الحائدين عن الحق، حيث يقول:

إن الحرام هو البناء على القبر لا الدفن تحت البناء، وقد دفنوا النبي تحت البناء، ولم يبنوا على قبره شيئاً(٢).

إن هذا الكاتب اضطرّ الى هذا القول السخيف، لكونه يرىٰ قبر رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ مُشيَّداً بالبناء والقبَّة، ولولا ذلك لَحَكم بحرمة الدفن في البيت أيضاً.

فانظر كيف يُفتي من تلقاء نفسه بغير ما أنزل الله، إرضاءً لهواه وتجاوباً مع اتجاهه المنحرف!!!

و نحن نسأل هذا الوهّابي الضالّ: هل أن الحرام هو البناء

---

(١) مسند أحمد: ج١ ص٧، صحيح الترمذي: ج٢ ص١٣٩ ، طبقات ابن سعد: ج٢ ص٧١ وغيرها.

(٢) كتاب رياض الجنة: بقلم مقبل بن الهادي الوادي/ طبعة الكويت.

علىٰ القبر فقط، لكن إبقاء البناء ليس حراماً؟!

أم أن البناء ـ ايجاداً و إبقاءً ـ حرام؟!

اذا كان الحرام هو البناء فقط فنحن نسأل: لماذا أقدمت حكومة الاحتلال السعودي ـ ظلماً وزوراً ـ على هدم آثار النبوّة ومراقد الأئمة الطاهرين ـ عليهم السّلام ـ وقبور الصحابة وأبناء رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ مع العلم أن الحرام ـ عندكم ـ هو إقامة البناء فقط لا الإبقاء على البناء؟!!

وبالاضافة الى ذلك... إن هذا الحكم هو خلاف ما أفتىٰ به أسلافكم ـ كابن القيّم وابن تيميّة ـ حيث يقول الأول:

«يجب هدم المشاهد التي بُنيت على القبور ولا يجوز إبقاؤها ـ بعد القدرة على هدمها وإبطالها ـ يوماً واحداً».

فعلىٰ هذا الأساس لا يستطيع هذا الوهّابيّ الأثيم أن يقول بحرمة البناء فقط، كي لا يُخالف من سبقوه الى النار، ولا مناصّ له من الحكم بحرمة البناء ايجاداً وإبقاءً.

هنا يأتي هذا السؤال: لماذا دفن المسلمون جسد رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ تحت البناء؟

صحيح أنهم لم يقيموا على قبره البناء، إلّا أن الدفن هناك أدّى الى أن يكون للقبر بناءً وسقفاً.

و ترىٰ هذا الوهّابيّ المعاند يحاول الفرار والتخلّص من هذا السؤال فيفتي من نفسه بغير ما أنزل الله ـ كما هو عادتهم ـ ويقول ـ مامعناه ـ إن الإبقاء الحرام هو للبناء الذي بُني على القبر، أمّا اذا

كان البناء سابقاً على الدفن فليس الإبقاء عليه حراماً.

فانظر كيف يُفرّق في الحكم ويفتي من تلقاء نفسه، تبريراً لما قام به المسلمون يومذاك، ومحاولاً التملّص من الحقّ الذي يُلاحقه ويصدمه.

التناقض بين الوهّابيّة وسيرة المسلمين

هذه النقطة ـ التي سبق الحديث عنها ـ ليست هي النقطة الوحيدة التي يتجلّىٰ فيها التناقض بين الوهّابيّة وسيرة المسلمين طوال أربعة عشر قرناً.

بل أن التناقض في موارد أُخرى كثير جداً، فمثلاً: يعتبر الوهّابيّون التبرّك بآثار النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ حراماً، وينهون عنه بشدّة ويقولون ـ دائماً ـ إن الحجر والطين لاينفعان شيئاً، ولكنك ترىٰ المسلمين يتزاحمون على الحجر الأسود لتقبيله ولمسه والتبرّك به، ويتهافتون على كسوة الكعبة للتمسّح بها وبالكعبة وتقبيلهما ووضع الخدّ عليهما، فالمسلمون يقبّلون الحجر والطين ويخالفون الوهّابيّة التي تقول بأن الحجر والطين لاينفعان.

وكذلك يحرّم الوهّابيّون بناء المساجد بجوار مراقد الأولياء، في حين أنه توجد في كلّ البلاد الاسلامية مساجد مشيّدة بجوار المشاهد، حتى في أرض «أُحُد» كان مسجد بجواز قبر سيّدنا حمزة ـ رضوان الله عليه ـ ولمّا احتلّ الوهّابيّون تلك البقاع المقدّسة عمدوا الى هدم المسجد وطمس آثاره!!.

والآن ترى المرقد الطاهر لرسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ

واقعاً في وسط المسجد، والمسلمون يقيمون الصلاة لله من أطرافه وجوانبه الأربعة. وكم لهذه القضايا من نظير ومثيل، فانظر الى البون الشاسع بين الوهّابيّة وسيرة المسلمين، ممّا يدلّ على أن انفصال الوهّابيّة عن الاسلام، وانفصال الوهّابيّين عن المسلمين.

اختلاق الأدلّة الواهية تبريراً للجريمة

لقد لجأ الوهّابيّون الى اختلاق الأدلّة الواهية التي تبرّر لهم هدم المراقد الطاهرة والقباب الشريفة للأئمة الطاهرين ـ عليهم السّلام ـ في البقيع، وممّا قالوا ـ في هذا المجال ـ: إن البقيع أرض موقوفة، ويجب أن يُستفاد منها لنفس الغرض الذي وقفها صاحبها، ويجب القضاء على كلّ ما يوجب الحدّ من الاستفادة عن الغرض المقصود، والبناء ونصب الأعمدة والجدران في هذه الأرض يوجب الحدّ من الاستفادة من جزء منها، فأرض البقيع موقوفة لدفن الموتىٰ، ومن الواضح أن نصب الأعمدة والجدران ـ للبناء ـ يحتلّ جزء من الأرض، إذ لا يمكن الدفن تحت الأعمدة والجدران، وهذا يؤدّي الى الحدّ من الاستفادة للغرض المقصود، ولهذا تجب إزالة ما علىٰ هذه الأرض من بناء كي يمكن الدفن في كلّ بقعة فيها.

الجواب و الردّ:

لا شكّ أن هذا النوع من الاستدلال ليس إلّا تسرّعاً في

الحكم وابتعاداً عن الحق، يريد به القاضي الوهّابي القضاء على آثار أهل البيت ـ عليهم السّلام ـ بأيّ وجه كان، وحتى لو أفلَس من الأدلّة فإنه يأمرُ بالهدم بحكم القوة والعنف والزور، وما هذا الدليل إلّا للتمويه على عوام المسلمين وبسطائهم بأنه يفتي بما أنزل الله، ولهذا تراه يعتبر البقيع أرضاً موقوفة للدفن.

ولكن هذا الدليل ـ كسائر أدلّتهم ـ باطل من عدّة وجوه:

الأول: لم يَرد في أيّ كتاب ـ من كتب التاريخ و الحديث ـ ما يشير الى أن أرض البقيع موقوفة، ولم يصرّح به أحد من المؤرّخين والمحدّثين. هذه كُتب التاريخ بين يديك، لا ترىٰ فيها أثراً لهذا القول، بل أنه يُحتمل قويّاً أن البقيع كان أرضاً مواتاً متروكاً كسائر الأراضي الموات، وكان أهل المدينة يدفنون موتاهم فيها، وعلى هذا فأرض البقيع كانت من «المباحات الأوّلية» التي يجوز التصرّف فيها مطلقاً، بأيّ شكل كان.

لقد كان الناس ـ في العهود السابقة ـ غير حريصين على تملّك الأراضي البائرة الموات، إذ لم تكن الامكانيّات متوفّرة لديهم للقيام بالبناء والعمران إلّا قليلاً، كما لم تبدأ ـ يومذاك ـ هجرة أهل القرىٰ الىٰ المُدن، ولم تكن هناك مشكلة باسم مشكلة «الأرض» وأفراد باسم «محتكري الأرض» ومؤسّسات عقاريّة باسم «بورصة الأراضي» ولهذا فإن أراضي واسعة كانت متروكة بلا مالك، وهي ما يُعبّر عنها في الشريعة الاسلامية بـ «المباحات» و «الأراضي الموات البائرة».

و قد جرت العادة ـ في المدن والقرىٰ ـ بأن يُخصِّص الناس قطعة من الأرض لدفن الموتىٰ فيها، أو كان واحد منهم يَدفن فقيده في أرض، ويتبعه الآخرون في ذلك، من دون التفات الى الوقف أصلاً.

و أرض البقيع ليست مستثناة من هذه القاعدة، فلم تكن الأرض ـ في الحجاز والمدينة ـ ذات قيمة، ومع وجود هذه الأراضي الموات المحيطة بالمدينة لم يكن يُقدم إنسان على وقف أرض زراعية ـ مثلاً ـ لدفن الموتى، لأن الأراضي الزراعية كانت قليلة، بعكس الأراضي الموات فإنها كانت كثيرة ومن المباحات الأوّلية.

والجدير بالذكر أن التاريخ أيضاً يؤكّد هذه الحقيقة. يقول السمهودي في كتاب وفاء الوفا:

«أول من دَفن رسول الله بالبقيع: عثمان بن مظعون... ولـمّا توفى إبراهيم بن رسول الله أمر أن يُدفن عند عثمان بن مظعون، فرغب الناس في البقيع وقطعوا الشجر، فاختارت كلّ قبيلة ناحية، فمن هنالك عَرفت كلُ قبيلة مقابرها...»

كان البقيع غرقداً(١) فلما هلك عثمان بن مظعون ودُفن في البقيع قُطع الغرقد عنه»(٢).

لقد ظهر ـ من كلام السمهودي ـ أن أرض البقيع كانت مواتاً، وتمّ تقسيمها الى عدّة قِطع بعد ما دُفن أحد الصحابة فيها،

---

(١) الغرقد: شجر مخصوص وهو يتواجد كثيراً في صحاري المدينة المنوّرة وأطرافها.

(٢) وفاء الوفا: ج٢ ص ٨٤.

وخُصّصت كلّ قطعة منها لقبيلة من القبائل وبيتٍ من البيوتات، أمّا أن تكون موقوفة فلا ترى لها أثراً في التاريخ، بل يُستفاد من التاريخ أن البقعة التي تحتضن أجساد الأئمة الطاهرين ـعليهم السّلام ـ في البقيع كانت داراً لعقيل بن أبي طالب، وأن تلك الأجساد الطاهرة إنما دُفنت في دار تعود الى بني هاشم.

يقول السمهودي:

«دُفن العبّاس بن عبدالمطّلب عند قبر فاطمة بنت أسد ابن هاشم في أول مقابر بني هاشم التي في دار عقيل».

و يقول أيضاً:

«عن سعيد بن محمّد بن جبير أنه رأى قبر إبراهيم ابن رسول الله عند الزوراء... وهي الدار التي صارت لمحمّد بن زيد بن علي...

و أن سعد بن معاذ دفنه رسولُ الله في طرف الزقاق الذي يلزق دار المقداد بن الأسود... وهي الدار التي يقال لها: دار ابن أفلح، في أقصى البقيع، عليها جُنبذة(١ و٢).

هذه العبارات بمجموعها تؤكّد على أن أرض البقيع لم تكن وقفاً، وأن أجساد الأئمة الطاهرين ـعليهم السّلام ـ إنما دُفنت في بيوتهم المملوكة.

بعد كلّ ما سَبق، هل يصحّ هدم آثار آل رسول الله ـصلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وتسويتها مع الأرض بحجّة أنها لا تنسجم مع

---

(١) الجنبذة: القُبّة.

(٢) وفاء الوفا: ج٢ ص ٩٦.

الوقف؟!

ولو فرضت ـ جَدَلاً ـ أن أرض البقيع موقوفة، فهل هناك ما يُثبت كيفية وقفها؟! ولعلّ مالك الأرض قد سمح بإقامة البناء والقباب على قبور الشخصيّات المرموقة التي تُدفن فيها؟!

نحن لا نعلم تفصيل الموضوع، الشيء الذي نعلمه هو أن المسلمين أقاموا البناء والقباب على تلك القبور، ويجب حمل فعل المسلم على الصحة والابتعاد عن اتّهامه ونسبة المعصية اليه.

و على هذا الأساس فإن هدم تلك القباب المقدّسة والأبنية المحترمة يُعتبر حراماً بيّناً ومخالفةً قطعيّة للأحكام الشرعيّة.

و كان القاضي ابن بليهد و أتباعه يعلمون جيّداً أن فكرة وقفيّة البقيع ليست إلّا استدلالاً مصطنعاً، وحتى لو لم يرسم لهم الشيطان هذا الدليل الواهي، لكانوا يهدمون آثار آل رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ بلا تردّد، ذلك لأن هذه المرّة ليست هي المرّة الأُولى التي تقوم فيها الوهّابيّة البريطانيّة بهدم آثار الرسالة والاسلام، بل إن المرة الأُولى كانت فيه سنة ١٢٢١هـ عند ما سيطروا ـ لأول مرة ـ على المدينة المنوّرة وهدموا تلك الأبنية والآثار، ثم أُعيد بناؤها بعد دحْر الوهّابيّين وطردهم من المدينة على يد القوات العثمانية.

الفصل الثالث

بناء المسجد بجوار المراقد المشرَّفة

هل بناء المسجد على قبور الصالحين أو بجوارها جائز أم لا؟

و اذا كان جائزاً فما معنىٰ ما روي «أن النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ لَعن اليهود والنصارىٰ لأنهم اتخذوا قبور الأنبياء معابد» ألا يُعتبر بناء المسجد بجوار قبور الأولياء ملازماً لما قد ورد في هذا الحديث؟!

الجواب: إن بناء المساجد بجوار قبور الصالحين لا مانع فيه أبداً، لأنه يندرج تحت الاصول الاسلامية العامّة المجوّزة، ذلك لأن الهدف من بناء المسجد هناك إنما هو عبادة الله تعالىٰ بجوار مثوىٰ أحد أحبّائه وأوليائه الصالحين الذي منَح البركة والشرف لتلك الأرض التي دُفن فيها.

و بعبارة أُخرىٰ: إن الهدف من تشييد المساجد هناك هو التشجيع على أداء الفرائض الشرعية والعبادات، قبل زيارة ذلك القبر أو بعده.

و على أساس أن زيارة القبور ليست محرَّمة ـ حتى عند الوهّابيّين ـ وكذلك إقامة الصلاة قبل الزيارة أو بعدها، فلا معنىٰ

للقول بحرمة بناء المسجد ـ بجوار قبور الصالحين ـ لعبادة الله وأداء فرائضه الشرعية.

إن التأمّل في قصة أصحاب الكهف يكشف لنا عن أن بناء المسجد بجوار القبر كان سُنَّة متَّبَعة عند الأُمم والشرائع السابقة، والقرآن الكريم يشير الى تلك السُنَّة من دون أيّ ردّ أو نقد.

و قد سبقت الاشارة الى أن أصحاب الكهف عندما انكشف خبرهم ـ بعد ثلاثمائة وتسع سنين ـ اختلف الناس في نوعيّة احترامهم وتكريمهم وانقسموا الى قسمين:

١ ـ قسم قالوا: «أبنوا عَلَيهِمْ بُنْياناً».

و ذلك لكي يكون تخليداً لذكراهم.

٢ ـ والقسم الثاني ـ الذي كسب الموقف في النهاية ـ دعا الى بناء المسجد على الكهف كي يكون مركزاً لعبادة الله تعالىٰ، بجوار قبور اولئك الذين رفضوا عبادة غيرالله وخرجوا من ديارهم هاربين من الكفر، ولاجئين الى توحيدالله وطاعته.

و قد أجمع المفسّرون على أن الاقتراح الأول كان من المشركين، بينما الاقتراح الثاني كان من المؤمنين الموحّدين(١) ولهذايقول القرآن الكريم:

«قالَ الّذينَ غَلَبُوا عَلىٰ اَمْرِهِمْ لَنَتّخِذَنَّ عَلَيهِمْ مَسْجِداً».

و جاء في التاريخ أن العثور على أصحاب الكهف وانكشاف أمرهم كان في عصر انتصار التوحيد على الشرك ، وكان قادة

(١) راجع تفسير الكشاف: للزمخشري، وغرائب القرآن: للنيشابوري وغيرهما.

المشركين ـ الداعين الى عبادة الأصنام ـ مندحرين مغلوبين، فاقتراح بناء المسجد جاء من المؤمنين بالله الموحّدين له سبحانه. فاذا كان بناء المسجد علىٰ قبور الصالحين أو بجوارها علامة على الشرك فلماذا صَدر هذا الاقتراح من المؤمنين؟!

و لماذا ذَكر القرآن اقتراحهم من دون أيّ نقدٍ أو ردّ؟!

أليس ذلك دليلاً على الجواز؟

و ليس صحيحاً ـ قطعاً ـ أن يذكر الله تعالىٰ كلاماً للمشركين ويمرّ عليها بدون ردٍّ ونقدٍ إجمالي أو تفصيلي.

إن هذا «تقرير» من القرآن على صحة اقتراح اولئك المؤمنين، ومن الثابت أن تقرير القرآن حجّة شرعية ـ كما هو ثابت في علم أُصول الفقه الديني ـ.

و هذا يدلّ على أن سيرة المؤمنين الموحّدين في العالم كلّه كانت جارية على هذا الأمر، وكان يُعتبر عندهم نوعاً من الاحترام لصاحب القبر وتبرّكاً به.

لقد كان الأَولىٰ للوهّابيّين أن يعرضوا المسألة على القرآن أولاً، ثم يبحثوا هنا وهناك عن حديث من الأحاديث الشريفة.

و فيما يلي نذكر ما تمسّكوا به في هذا المجال، لنقف على ضَعفه وبطلانه:

أدلّة الوهّابيّين على حرمة بناء المساجد بجوار قبور الصالحين

لقد تمسّك الوهّابيّون بمجموعة من الأحاديث على حرمة بناء

المسجد عند قبور الصالحين، وفيما يلي نذكر تلك الأحاديث مع المناقشة والتحقيق:

ذكر البخاري في صحيحه ـ باب كراهة اتخاذ المساجد على القبور ـ هذين الحديثين:

١ ـ لَمّا ماتَ الْحَسَنُ بن الْحَسَن بن عَلِيّ، ضَربَتْ امْرأتُه القُبَّةَ عَلىٰ قَبْره سَنَه، ثُمَّ رَفَعَتْ، فَسْمِعُوا صائِحاً يَقُول: ألا هَلْ وَجَدوُا ما فَقَدوُا؟ فَأَجابَهُ الآخَر: بَلْ يئسُوا فانْقَلَبُوا.

٢ ـ لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَ النَصارىٰ اِتَّخذُوا قُبُور أَنبيائِهِمْ مَسْجِداً.

قالَتْ عائِشَة: وَلَوْلا ذٰلِكَ لأَبْرزوُا قَبْرَه، غَيْرَ أنّي اَخْشىٰ أنْ يُتَّخذ مَسْجِداً(١).

و قد ذكر مسلم في صحيحه هذا الحديث الثاني مع اختلاف يسير، وذكر أيضاً:

٣ ـ ... ألا وَإنَّ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ كانُوا يُتَّخذُونَ قُبُورَ أنبيائِهِمْ وَ صالِحيهِمْ مَساجِدَ، ألا فَلا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَساجِدَ، إنّي أنْهاكُمْ عَنْ ذٰلِكَ (٢).

٤ ـ إنَّ أُمَّ حَبيبَةَ وَ أُمَّ سَلَمَة ذَكَرَتا كَنيسَةً رَأيْنَها في الحَبَشَة، فيها تَصاوير لِرَسُولِ الله. فَقالَ رَسُولُ الله: إنَّ أُولئكَ إذا كانَ فيهِمُ الرَّجُلَ الصّالحَ فَماتَ، بَنوُا عَلىٰ قَبْرِهِ مَسْجِداً وَصَوَّرُوا فيهِ تِلْكَ الصُوَر،

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الجنائز ج٢ ص١١١، السُنن للنسائي: ج٢ ص٨٧١ كتاب الجنائز.

(٢) صحيح مسلم: ج٢ ص٦٨.

أولئِكَ شِرارُ الْخَلقِ عِنْدَالله يَوْمَ الْقِيامَةَ(١).

و يروي النسائي -في سُننه باب التغليط في اتخاذ السُرج على القبور- عن ابن عبّاس:

٥ - لَعَنْ الرَّسُولُ زائِراتُ القُبُورِ وَ الـمُتَّخِذينَ عَلَيْها الْمَساجِدَ و السُّرج(٢).

و ترى ابن تيميّة -الذي يعتبر المؤسّس لهذه العقائد الباطلة، ومحمّد بن عبدالوهّاب إنما يأكل من فضالته -تراه يستند الىٰ هذه الأحاديث في حرمة بناء المسجد على قبور الصالحين أو بجوارها، فيقول:

«قال علماؤنا: لا يجوز بناء المسجد على القبور» (٣).

تحقيق في معنى الأحاديث

و الآن يجب التحقيق والتأمّل في نصوص هذه الأحاديث، لنقف على مدلولها الصحيح.

قبل كلّ شيء، يجب أن نعلم -كأصلٍ عام- أنه كما تكون آية قرآنية مفسِّرة لآية اُخرىٰ، كذلك الأحاديث يكون أحدها مفسِّراً للآخر وموضّحاً وكاشفاً عن غموضه.

لقد تمسّك الوهّابيّون بظاهر حديثٍ واحد، واستنتجوا منه

---

(١) صحيح مسلم: كتاب المساجد ج٢ ص٦٦.

(٢) السُنن للنسائي: ج٣ ص٧٧ طبعة مصطفىٰ الحلبي.

(٣) زيارة القبور: ص ١٠٦.

حرمة بناء المسجد على قبور الصالحين أو بجوارها، في حين أنهم لو كانوا يصهرون الأحاديث كلَّها في بوتقة واحدة، لكانوا يفهمون ما عناه الرسول الأكرم ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ.

هؤلاء أغلقوا على أنفسهم باب الاجتهاد، ممّا ادّىٰ بهم الى تفسير كثير من الأحاديث تفسيراً خاطئاً.

أقول: إن ما تمسّك الوهّابيّون به ـ علىٰ حرمة بناء المسجد عند القبر ـ من أحاديث إنما يكون مقبولاً اذا كانت أسانيدها صحيحة ورواتها ثقات، وفي غير هذه الصورة فلا تصلح تلك الأحاديث للاستدلال أبداً.

و بما أن التحدّث عن أسناد كلّ هذه الأحاديث يؤدّي الىٰ اطالة الكلام، لهذا نختصر الحديث عمّا تضمّنته تلك الأحاديث فنقول:

أمّا الحديث الأول وهو: «لمّا مات الحسن بن الحسن ضَربتْ امرأته القبَّة على قبره...» الى آخره، فهو نقيضٌ لمذهب الوهّابيّين، إذ أنه دليل على جواز نصب المظلّة والقبّة علىٰ القبر، والوهّابيّون يُحرّمون مطلق الظِلال، سواء كان مظلّة أو قُبّة و بناء.

فهذا الحديث يدلّ علىٰ جواز نصب المظلّة وإقامة القبّة على القبر، ولو كان ذلك حراماً لما صدر من امرأة الحسن بن الحسن، لأنه كان بمرأىٰ ومسمع من التابعين وفقهاء المدينة.

و لعلّها نَصبت تلك القبّة لأجل تلاوة القرآن على القبر، وقاية من الحرّ والبرد وغيرهما.

و أمّا قول الراوي: «فسمعوا صالحاً يقول...» فهو أشبه بقول غير الصالحين، لأنه نوع من الشماتة ـ والشماتة ليست من أخلاق الصالحين ـ ومثله في ذلك ما أجابه الصالح المزعوم.

إن إقامة تلك المرأة على قبر زوجها الفقيد لم يكن على أمل عودته الى الحياة، حتى يقال: إنها يئست، بل كان لتلاوة القرآن وغيره.

و الخلاصة: إن قول ذلك الصالح المزعوم و جواب الآخر ليس حجّة شرعية، إذ ليس من كتاب الله ولا من السُنَّة الشريفة ولا هو كلامُ معصوم.

و أمّا بالنسبة الى الأحاديث التي تلعن اليهود والنصارىٰ وتُحذّر المسلمين من التشبّه بهم، فنقول:

إن معرفة مقصود هذه الأحاديث يتوقّف على معرفة ما كان يقوم به اليهود والنصارىٰ عند قبور أنبيائهم، ذلك لأن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ إنما نهىٰ عن القيام بما كان يقوم به اليهود والنصارىٰ، فاذا عرفنا عمَلهم، عرفنا ـ بالتَتبع ـ الحرام المنهيّ عنه.

وتوجد في الأحاديث قرائن شاهدة على أن اليهود والنصارىٰ كانوا يتّخذون قبور أنبيائهم قبلةً لهم تَصْرفهم عن التوجّه الى القبلة الواجبة، واكثر من ذلك... كانوا يعبدون أنبياءهم بجوار قبورهم بدَل أن يعبدوا الله الواحد القهار، أو كانوا يجعلون أنبياءهم شركاء مع الله سبحانه في العبادة.

فإذا كان المعنىٰ ـ في تلك الأحاديث ـ : أن لا تتخذوا قبور الصالحين قبلة لكم، أو: لا تجعلوهم شركاء مع الله تعالىٰ في العبادة، فلا يمكن الاستدلال ـ بأيّ وجه ـ على حرمة البناء على قبورهم أو عندها، لأن الزائرين لا يتّخذون تلك القبور قبلة لهم ولا يعبدونهم ولا يجعلونهم شركاء في العبادة، بل كلّهم مؤمنون بالله موحّدون له، ويتوجّهون ـ في صلواتهم ـ الى الكعبة المقدّسة، والهدف من بناء المسجد عند تلك القبور هو التبرّك بالأرض التي احتضنت أجسادهم الطاهرة.

فالمهم هو أن يثبت لنا أن هدف هذه الأحاديث من عدم اتخاذ القبور مساجد هو ما ذكرناه، وإليك القرائن الدالّة على ذلك :

١ ـ الحديث المذكور في صحيح مسلم ـ وهو الحديث رقم ٤ ـ يُوضّح الأحاديث الأُخرىٰ، فحينما قالت أُمّ حبيبة وأُمّ سلمة ـ زوجتا النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ بأنهما رأتا تصاوير النبي في إحدىٰ كنائس الحبشة، قال النبي:

«إن اولئك اذا كان فيهم الرجل الصالح فمات، بنَوا على قبره مسجداً وصوَّروا فيه تلك التصاوير...».

فالهدف من وضع صوَر الصالحين بجوار قبورهم إنما كان لأجل السجود عليها وعلى القبر، بحيث يكون القبر والصورة قبلة لهم، أو كانتا كالصنم المنصوب يُعبدان ويُسجدان لهما.

إن هذا الاحتمال ـ اللائح من هذا الحديث ـ ينطبق مع ما

عليه المسيحيّون من عبادة المسيح ووضْع التصاوير والتماثيل المجسّمة له و للسيّدة مريم -عليهما السّلام-.

ومع هذا المعنىٰ فلا يمكن الاستدلال بهذه الأحاديث على حرمة بناءالمسجد على قبور الصالحين أو بجوارها من دون أن يكون في ذلك أيّ شيء يوحي بالعبودية، كما عليه المسيحيّون.

٢ - يروي أحمد بن حنبل في مسنده ومالك بن أنس في «الموطّأ» تتمّة لهذا الحديث، وهو أن النبي -صلّى الله عليه وآله وسلّم- قال -بعد النهي عن اتخاذ القبور مساجد-:

«اَللّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْري وَثَناً يُعْبَد»(١).

إن هذا يدلّ على أن اولئك كانوا يتّخذون القبر والصورة التي عليها قبلة يتوجّهون إليها، بل صنماً يعبدونه من دون الله سبحانه.

٣ - إن التأمّل في حديث عائشة -الحديث الثاني- يزيد في توضيح هذه الحقيقة، حيث إنها يعد الرواية عن رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- تقول:

«لولا ذلك لأبرزوا قبره، غير أني أخشىٰ أن يُتَّخذ مَسجداً».

و نتساءل: إقامة الجدار حول القبر يمنع عن أيّ شيء؟

من الثابت أن الجدار يمنع من الصلاة على القبر نفسه وأن يتّخذ وَثناً يُعبد، وعلى الأقل لا يكون قبلة يُتوجّه اليها.

أمّا الصلاة بجوار القبر -من دون عبادة القبر أو جعْله قبلة للعبادة- فلا مانع منها، سواء كان هناك حاجز يحجز القبر عن

(١) مسند أحمد: ج٣ ص٢٤٨.

الرؤية أم لا، وسواء كان القبر بارزاً عن الأرض أم لا، وذلك لأن المسلمين ـ منذ أربعة عشر قرناً ـ يُصلّون بجوار قبر رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ في حين أنهم يتوجّهون الى الكعبة ويعبدون الله تعالىٰ، فوجود الحاجز لم يمنع من هذا كلّه.

و الخلاصة: ان تتمّة الحديث الثاني ـ التي هي من كلام عائشة ـ تُوضّح معنىٰ الحديث، لأنها تذكر السبب الذي منع من إبراز قبر رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ بأنه للحيلولة دون اتّخاذه مسجداً، ولهذا أُقيم الجدار الحاجز حول القبر الشريف.

فالحاجز يمنع من شيئين:

١ ـ من أن يتحوّل القبر الى وثن يقف الناس بين يديه يعبدونه، فمع وجود الحاجز لا يمكن رؤية القبر فلا يمكن اتّخاذه وثناً للعبادة.

٢ ـ من أن يُتَّخذ قبلة، ذلك لأن اتّخاذه قبلة فرع من رؤيته.

فإن قال قائل: إن الكعبة قبلة للمسلمين في حين أن اكثر المسلمين لا يرونها وقت العبادة.

فالجواب: لا تصحّ المقارنة و المقايسة بين الكعبة والقبر، لأن الكعبة قبلة عامّة وعالمية لجميع المسلمين في كافّة أرجاء الكرة الأرضية، وليست قبلة للعبادة فقط، بل للعبادة وغيرها كالذبيحة والدفن وماشابه، فهي قبلة في جميع الأحوال، ولا علاقة للرؤية فيها بأيّ وجه.

أمّا اتّخاذ قبر النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قبلة، فإنما يمكن

للذين يتواجدون في مسجده ويقيمون الصلاة منه، فإبراز القبر الشريف يمهّد لهذا الاحتمال ـ على رأي عائشة طبعاً ـ بينما مساواته مع الأرض ليس كذلك.

٤ ـ و من القرائن الدالَّة على أنّ نهي النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ إنما هو عن عبادة القبور هو أن الكثير من شارحي صحيح البخاري ومسلم فسَّروا الحديث بمثل ما فسَّرناه، وفهموا منه مثل ما فهمناه... فمثلاً:

يقول القسطلاني ـ في كتاب إرشاد الساري ـ :

«إنما صوَّر أوائلُهم الصوَر ليستأنسوا بها ويتذكّروا أفعالهم الصالحة، فيجتهدون كاجتهادهم ويعبدون الله عند قبورهم، ثم خَلَفهم قوم جهلوا مرادهم، ووسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصوَر ويُعظّمونها، فحذَّر النبي عن مثل ذلك».

الى أن يقول:

«قال البيضاوي: لمّا كانت اليهود والنصارىٰ يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم ويجعلونها قبلة يتوجّهون في الصلاة نحوها واتّخذوها أوثاناً، مُنع المسلمون في مثل ذلك، فأمّا من اتخذ مسجداً في جوار صالح وقَصَد التبرُّك بالقرب منه ـ لا للتعظيم ولا للتوجّه اليه ـ فلا يدخل في الوعيد المذكور»(١).

---

(١) إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري. وقد مال الى هذا المعنىٰ ابن حجر ـ في فتح الباري: ج٣ ص٢٠٨ ـ حيث قال: إن النهي إنما هو عمّا يؤدّي بالقبر الى ما عليه أهل الكتاب، أمّا غير ذلك فلا إشكال فيه.

و ليس القسطلاني منفرداً في هذا الشرح بل يقول به السندي ـشارح السُنن للنسائي ـ حيث يقول:

«اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» أي: قبلة للصلاة و يُصلّون اليها، أو بنَوا مساجد عليها يُصلّون فيها. ولعلّ وجه الكراهة أنه قد يُفضي الى عبادة نفس القبر (١).

و يقول أيضاً:

«يُحذّر (النبي) أُمّته أن يصنعوا بقبره ما صنع اليهود والنصارىٰ بقبور أنبيائهم من اتّخاذهم تلك القبور مساجد، إمّا بالسجود اليها تعظيماً لها، أو بجعلها قبلة يتوجّهون في الصلاة اليها»(٢).

و يقول النَووي ـ في شرح صحيح مسلم ـ:

«قال العلماء: إنما نهىٰ النبي عن اتّخاذ قبره وقبر غيره مسجداً، خوفاً من المبالغة في تعظيمه والافتتان به، فربّما أدّىٰ ذلك الى الكفر، كما جرىٰ لكثير من الأُمم الخالية، ولمّا احتاجت الصحابة والتابعون الى زيادة في مسجد رسول الله ـ ص ـ حين كثُر المسلمون وامتدّت الزيادة الى أن دخلت بيوت أُمّهات المؤمنين فيه، ومنها حجرة عائشة، مدفن رسول الله ـ ص ـ وصاحبيه بنَوا على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله، لئلّا يظهر في المسجد فيصلّي اليه العوام...

و لهذا قالت «عائشة» في الحديث: ولولا ذلك لأبرزوا قبره، غير أنه خُشي أن يُتَّخذ مسجدا».

---

(١) السُنن للنسائي: ج٢ ص٤١ مطبعة الأزهر.

(٢) السُنن للنسائي: ج٢ ص٤١.

ويقول شارح آخر:

«إن حديث عائشة يرتبط بالمسجد النبوي قبل الزيادة فيه، أمّا بعد الزيادة وإدخال حجرتها فيه، فقد بَنوا الحجرة بشكل مثلَّث كي لا يتمكن أحد من الصلاة على القبر...

إن اليهود والنصارىٰ كانوا يعبدون أنبياءهم بجوار قبورهم أو يجعلونهم شركاء في العبادة»

أقول: مع هذه القرائن ومع ما فهمه شُرّاح الحديث لابدّ من القول به، ولا يمكن استنتاج غير ذلك أو الفتوىٰ بغيره.

ومع غضّ النظر عن هذه القرائن، فإننا نعالج المسألة بمايلي:

أولاً: إن مورد الحديث هو ما اذا كان المسجد مبنيّاً فوق القبر، فلا علاقة له بالمشاهد المشرَّفة، لأن المسجد ـ في كلّ المشاهد ـ إنما هو بجوارها لا عليها، بشكل ينفصل أحدهما عن الآخر.

وبعبارة أُخرىٰ: هناك حَرم وهناك مسجد، فالحرم خاصٌّ للزيارة والتوسّل الى الله تعالىٰ بذلك الوليّ الصالح، والمسجد ـ بجواره ـ للصلاة والعبادة، فالمشاهد المشرَّفة ـ في هذه الحالة ـ خارجة عن مفاد الحديث ومعناه ـ على فرض أن يكون مفاده ما يدَّعيه الوهّابيّون ـ.

وبعد هذا كلّه... كيف يمكن القول بحرمة بناء المسجد بجوار القبر أو كراهته في حين أننا نرىٰ بأعيننا أن مسجد رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ يقع بجوار قبره الشريف؟!

اذا كانت الصحابة كالنجوم ويجب الاقتداء بهم، فلماذا لا

يُقتدىٰ بهم في هذا المجال؟! إن اولئك زادوا في المسجد زيادات كثيرة بحيث استقرَّ قبر النبي ـصلّى الله عليه وآله وسلّم ـ في وسط المسجد، بعد أن كان المسجد في الجانب الشرقي من القبر الشريف وبسبب الزيادات الكثيرة دخل الجانب الغربي من القبر أيضاً في المسجد.

فاذا كان بناء المسجد بجوار قبور الصالحين حراماً فلماذا أحدث المسلمون هذه الزيادات فيه من جميع أطرافه؟!

فهل معنىٰ الاقتداء بـ«السَلف» و «السَلفية» ـالتي ينادي بها الوهّابيّون ـ هو الاقتداء بهم في موضوع واحد وترك الموارد الأُخرىٰ؟!

و من هنا نعرف أن ماقاله ابن القيّم من «أن القبر والمسجد لا يجتمعان معاً» مخالف لسيرة المسلمين السَلَف ولا أساس لكلامه من الصحة أبداً.

ثانياً: إن كلّ ما يستفاد من هذه الأحاديث ـعلى فرض صحَّتها ـ هو أن النبي ـصلّى الله عليه وآله وسلّم ـ نهىٰ عن بناء المسجد على قبور الصالحين أو بجوارها، ولكن لا يوجد دليل قطعي يثبت أن هذا النهي هونهيٌ تحريمي، بل يحتمل أن يكون نهياً تنزيهيّاً ـوبالاصطلاح ـ كراهيّاً، وهذا بالضبط ما استنبطه البخاري في صحيحه حيث ذكر هذه الأحاديث تحت عنوان: «باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور»(١).

---

(١) صحيح البخاري: ج٢ ص١١١.

ويشهد لذلك أيضاً أن النهي مقرون بلعن «زائرات القبور»(١).

ومن الثابت أن زيارة القبر للمرأة مكروه ـ بسبب بعض الأُمور ـ لا حرام.

فاذا كان النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ يلعن زائرات القبور، فلا يدلّ اللعن على الحرمة، لأن كثيراً من المكروهات ورَد اللعن على مرتكبها ـ في الأحاديث ـ والهدف من اللعن هو شدّة الكراهية والبُعد عن رحمة الله تعالىٰ، فمثلاً جاء في الحديث:

«لَعن الله ثلاثة: آكل زاده وحده، والنائم في بيت وحده، وراكب الفلاة وحده».

مع العلم أن هذه الثلاثة ليست محرَّمة.

و في ختام هذا الفصل نؤكّد علىٰ أن بناء المساجد على قبور الصالحين كانت سُنّة رائجة في صدر الاسلام.

يقول السمهودي ـ في حديثٍ ذكر فيه وفاة السيّدة فاطمة بنت أسد أُمّ الامام أميرالمؤمنين علي ـ عليه السّلام ـ:

«فلّما توفيتْ خرج رسول الله ـ ص ـ فأمر بقبرها فحُفر في موضع المسجد الذي يُقال له اليوم: قبر فاطمة»(٢).

و يقصد السمهودي أن موضع قبر فاطمة بنت أسد تحوّل بعد ذلك الى مسجد. ويقول ايضاً:

---

(١) السُنن للنسائي: ج٣ ص٧٧ طبعة مصر.

(٢) وفاء الوفا: ج٣ ص٨٩٧ تحقيق محمّد محي الدين.

«إن مصعب بن عمير وعبدالله بن جحش دُفنا تحت المسجد الذي بُني على قبر حمزة»(١).

وقد كان ذلك المسجد موجوداً حتى احتلال الوهّابيّين لهذه البقاع المقدّسة، حيث عمدوا الى هذا المسجد ـ ومساجد وآثار كثيرة ـ فهدموها بمعاول الاستعمار البريطاني الأثيم.

(١) وفاء الوفا: ج٣ ص٩٢٢ ـ ٩٣٦.

الفصل الرابع

زيارة القبور
على ضوء الكتاب والسُنَّة

لقد أفتى علماء الاسلام و فقهاء الشريعة بجواز زيارة القبور ـ وخاصّة قبور الأنبياء والصالحين ـ استناداً الى مجموعة من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وبالاضافة الى الجواز فإنهم أفتوا باستحبابها وفضيلتها.

أمّا الوهّابيّون فإنهم ـ كما يبدو ـ لا يحرّمون أصل الزيارة، بل يحرّمون السفر وشدَّ الرحال الى زيارة قبور الصالحين. فالبحث هنا في مرحلتين:

١ ـ الزيارة.

٢ ـ السفر للزيارة.

زيارة القبور

ممّا لا شكّ فيه أن زيارة القبور تنطوي على آثار أخلاقية وتربوية هامَّة، نشير اليها ـ مختصراً ـ فيمايلي:

إن مشاهدة هذا الوادي الهادئ الذي يضمّ في أعماقه مجموعة كبيرة من الذين عاشوا في هذه الحياة الدنيا ثم انتقلوا الى الآخرة،

وهم سواء... الغني والفقير، والقوي والضعيف، ولم يصحبوا معهم سوىٰ ثلاث قِطَع من القماش فقط، إن مشاهدة هذا المنظر يهزّ الانسان قلباً وروحاً، ويخفّف فيه روح الطمع والحرص على الدنيا وزخارفها وشهواتها، ولو نظر الانسان اليها بعين الاعتبار لغيّر سلوكه في هذه الحياة، واعتبر لآخرته، وراح يخاطب نفسه: إن هذه الحياة المؤقتة لابدّ أن تزول، وإن الفترة التي أعيشها لابدّ أن تنتهي ويكون مصيري الى حفرة عميقة، تتراكم عليّ تلال من التراب، وهناك الحساب، إمّا ثواب وإمّا عذاب، فلا تستحقّ هذه الحياة المؤقّتة أن يجهد الانسان نفسه من أجل المال والجاه والمنصب، فيظلم هذا ويؤذي ذاك، ويرتكب الجرائم والمنكرات.

إن نظرة تأمّل الى هذا الوادي الساكن يُرقّق القلب مهما كان قاسياً، ويُسمع الانسان مهما كان صُمّاً، ويفتح العيون مهما كانت حالكة، وكثيراً ما تدفع بالانسان الى إعادة النظر في سلوكه وحياته، والشعور بالمسؤوليات الكبيرة أمام الله تعالىٰ والناس.

يقول الرسول الأعظم ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ:

١ ـ «زُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّها تُذَكِّرُكُمُ الآخِرَةَ»(١).

بالرغم من أن مسألة زيارة القبور ليست بحاجة الى إقامة الدليل والبرهان على صحتها وضرورتها، ولكننا نضطر الى التحدّث عنها لأُولئك الذين يتوقّفون فيها.

---

(١) صحيح ابن ماجة: ج١ ص١١٣ باب ماجاء في زيارة القبور.

القرآن و زيارة القبور

إن الله تعالىٰ ينهىٰ حبيبه محمّداً ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ عن الصلاة على جنازة المنافق والقيام على قبره، فيقول سبحانه:

«وَلا تُصَلِّ عَلىٰ اَحَدٍ مِنْهُمُ ماتَ اَبَداً، وَلا تَقُمْ عَلىٰ قَبْرِهِ، إنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَ رَسُولِهِ وَماتُوا وَهُمْ فاسِقُونَ» (١).

فالآية تسعىٰ لهدم شخصية المنافق، وهزّ العصىٰ في وجوه حزبه ونظرائه، والنهي عن هذين الأمرين بالنسبة للمنافق معناه ومفهومه: مطلوبية هذين بالنسبة لغير المنافق.

و الآن يجب أن ننظر في قوله تعالىٰ: «ولا تَقُمْ على قَبرِهِ» ما معناه؟

هل المعنىٰ هو القيام وقت الدفن فقط حيث لا يجوز ذلك للمنافق ويستحب للمؤمن؟ أم المعنىٰ أعمّ من وقت الدفن وغيره؟

الجواب: بعض المفسّرين نظروا الى الآية نظرة ضيّقة فقالوا بالقول الأول، ولكن بعضاً آخرين ـ كالبيضاوي وغيره ـ نظروا اليها نظرة واسعة فقالوا: إن النهي في «لا تَقُمْ على قَبرِهِ» هو عن الدفن والزيارة. والتدقيق وإمعان النظر في الآية الكريمة يسوقنا الى هذا المعنىٰ الأعم، وذلك لأن الآية تتشكّل من جُملتين:

الأُولىٰ: لا تُصَلِّ عَلىٰ اَحَدٍ مِنهُمْ ماتَ أبَداً».

---

(١) سورة التوبة: آية ٨٩.

إن لفظة «أَحَدٍ» بحكم ورودها في سياق النفي تفيد العموم والاستغراق لجميع الأفراد، ولفظة «أبَداً» تفيد الاستغراق الزمني، فيكون معناها: لا تُصلّ على أحدٍ من المنافقين في أيّ وقتٍ كان.

فمع الانتباه الىٰ هذين اللفظين نعرف -بوضوح- أن المراد من النهي عن الصلاة على الميّت المنافق ليس خصوص الصلاة على الميّت عند الدفن فقط لأنها ليست قابلة للتكرار في أزمنة متعدّدة، ولو أُريد ذلك لم تكن هناك حاجة الىٰ لفظة «أبَداً»، بل المراد من الصلاة في الآية مطلق الدعاء والترحّم سواء كان عند الدفن أم غيره.

فإن قال قائل: إن لفظة «أبداً» تأكيد للاستغراق الأفرادي لا الزماني.

فالجواب: ١ ـ إن لفظة «أحدٍ» أفادت الاستغراق والشمول لجميع المنافقين.

٢ ـ إن لفظة «أبداً» تُستعمل في اللغة العربية للاستغراق الزماني، كما في قوله تعالىٰ:

«وَلا أنْ تَنكِحُوا أزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أبَداً»(١).

فالنتيجة: إن المقصود هو النهي عن الترحُّم على المنافق وعن الاستغفار له، سواء كان بالصلاة عليه أو بغيرها.

الثانية: «لا تَقُمْ علىٰ قَبرِهِ».

(١) سورة الأحزاب: آية ٥٣.

إن مفهوم هذه الجملة ـ مع الانتباه الى أنها معطوفة على الجملة السابقة ـ هو: لا تقم على قبر أحدٍ منهم أبداً، لأن كلّ ما ثبت للمعطوف عليه من القيد ـ أعني «أبداً» ـ يثبت للمعطوف أيضاً، ففي هذه الحالة لا يمكن القول بأن المقصود من القيام على القبر هو وقت الدفن فقط، لأن المفروض عدم إمكان تكرار القيام على القبر وقت الدفن، كما كان بالنسبة للصلاة، ولفظة «أبَداً» المقدَّرة في هذه الجملة الثانية تفيد إمكانية تكرار هذا العمل، فهذا يدلّ على أن القيام على القبر لا يختصّ بوقت الدفن.

و إن قال قائل: إن لفظة «أبَداً» المقدَّرة في الجملة الثانية معناها الاستغراق الأفرادي.

قلنا: قد سبق الجواب عليه، و أن لفظة «أحَدٍ» للاستغراق الأفرادي، لا لفظة «أبَداً» فهي للاستغراق الزماني.

فيكون معنىٰ الآية الكريمة: إن الله تعالىٰ ينهىٰ نبيَّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ عن مطلق الاستغفار والترحُّم على المنافق، سواء كان بالصلاة أو مطلق الدعاء، وينهىٰ عن مطلق القيام على القبر، سواء كان عند الدفن أو بعده.

و مفهوم ذلك هو أن هذين الأمرين يجوزان للمؤمن.

و بهذا ثبت جواز زيارة قبر المؤمن و جواز قراءة القرآن على روحه، حتى بعد مئات السنين.

هذا بالنسبة الى المرحلة الاولىٰ وهي أصل الزيارة من وجهة القرآن، وأمّا بالنسبة اليها من ناحية الأحاديث فإليك بيانها:

الأحاديث الشريفة و زيارة القبور

يستفاد من الأحاديث الشريفة ـ التي رواها أصحاب الصحاح والسُنن ـ أن النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ نهىٰ عن زيارة القبور نهياً مؤقّتاً لأسباب خاصّة، ثم رَفع النهي وحبَّذ الى الزيارة.

و لعلّ علّة النهي المؤقّت هي أن الأموات كانوا مشركين وعَبَدة للأصنام، وقد قطع الاسلام كلّ العلاقات مع الشرك وأهله، فنهىٰ النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ عن زيارة الأموات(١).

و يحتمل أن تكون العلّة شيئاً آخر، وهو أن المسلمين كانوا حديثي عهد بالاسلام، فكانوا ينوحون على قبور موتاهم نياحة باطلة تُخرجهم عن نطاق الشريعة، ولمّا تمركز الاسلام في قلوبهم وأنِسُوا بالشريعة والأحكام، ألغىٰ النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ بأمر الله تعالىٰ النهي عن زيارة القبور، لما فيها من الآثار الحسنة والنتائج الطيّبة، ولهذا روىٰ أصحاب الصحاح والسُنن أنه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قال:

٢ ـ «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زيارَةِ الْقُبُور، فَزُورُوها فَإنَّها تُزَهِّدُ في الدُّنْيا وَ تُذَكِّرُ الآخِرَة»(٢).

---

(١) و يؤيّد هذا الاحتمال ما كان يقوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ عند زيارته لأهل القبور: «دار قوم مؤمنين» كما سيأتي تفصيله.

(٢) السُنن لابن ماجة: ج١ ص١١٤ طبعة الهند باب ماجاء في زيارة القبور، صحيح ←

وعلىٰ هذا الأساس كـان ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ يزور قبر أُمّه السيّدة آمنة بنت وهب ـ رضوان الله عليها ـ وكان يأمر الناس بزيارة القبور، لأن زيارتها تُذكّر بالآخرة.

وقد روىٰ مسلم في صحيحه:

٣ ـ «زارَ النَبِيُّ قَبْرَ أُمِّهِ، فَبَكىٰ وَأبكىٰ مَنْ حَوْلَهُ... وَقالَ: اسْتَأذَنْتُ رَبّي في أنْ أزورَ قَبْرَها، فأَذِنَ لي، فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإنَّها تُذَكِّرُكُمُ الْمَوْتَ»(١).

وقالت عائشة:

٤ ـ «إنَّ رسول الله رَخَّصَ في زِيارَةِ الْقُبُور»(٢).

وقالت: إن النبيّ قال:

الترمذي: أبواب الجنائز ج٣ ص٢٧٤ المطبوع مع شرح ابن العربي المالكي.

يقول الترمذي ـ بعد نقل هذا الحديث عن بريدة ـ: «حديث بريدة صحيح والعمل علىٰ هذا عند أهل العلم، ولا يرون بزيارة القبور بأساً، وهو قول ابن المبارك والشافعي وإسحاق».

وفي هذا المجال يحسن مراجعة المصادر الآتية:

١ ـ صحيح مسلم: ج٣ باب استئذان النبيّ ربّه عزّوجل في زيارة قبر أُمّه ص٦٥.

٢ ـ صحيح أبي داود: ج٢ كتاب الجنائز باب زيارة القبور ص١٩٥.

٣ ـ صحيح مسلم: ج٤ كتاب الجنائز باب زيارة القبور ص٧٣.

(١) سُنن أبي داود: ج٢ كتاب الجنائز ص ١٩٥ طبعة مصر، صحيح مسلم: ج٣ ص٦٥ باب استئذان النبيّ ربّه عزّوجل في زيارة قبر أُمّه، صحيح ابن ماجة: ج١ ص١١٤.

أقول: إن السبب الذي يذكرونه لا ستئذان النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ زيارة قبر أُمّه هو ـ كما يزعمون ـ لأن أُمّه كانت مشركة، ولكن الثابت الذي لا ريب فيه هو أن أُمّ النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ كانت كآبائه وأجداده من أهل الايمان والتوحيد، من هنا فان هذا التوجيه والتفسير مخالف بالكامل لأُصول العقيدة الاسلامية ويمكن أن يكون له تفسير آخر.

(٢) صحيح ابن ماجة: ج١ ص١١٤.

٥ ـ «فأَمَرَني رَبّي أَنْ آتي الْبقيعَ فأَسْتَغْفِرَ لَهُمْ.

قلت: كيْفَ أقولُ يا رَسُولَ الله؟

قالَ: قوُلي: السَّلامُ عَلىٰ أَهْلِ الدِّيارِ مِنَ الْمُؤمِنينَ وَالْمُسْلِمينَ، يَرْحَمُ الله الْمُسْتَقْدِمينَ مِنّا وَالْمُسْتَأخِرينَ، وَإنّا إنْ شاء الله بِكُمْ لاحِقُونَ»(١).

وجاء في أحاديث أُخرىٰ نصّ الكلمات التي كان رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ يقولها عند زيارة القبور، وهي:

٦ ـ «السَّلامُ عَلَيْكُمْ دارَ قَوْمٍ مُؤْمِنينَ، وَإنّا وَإيّاكُمْ مُتَواعِدُونَ غداً وَمُواكِلُونَ، وَإنّا إن شاء الله بِكُمْ لاحِقُونَ، اَللّٰهُمَّ اغْفِرْ لأَهْلِ بَقيعِ الْغرقَد»(٢).

وجاء في حديث آخر نصّ الكلمات بمايلي:

«السَّلامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِيارِ مِنَ الْمُؤْمِنينَ وَالْمُسْلِمينَ وَإنّا إن شاء الله بِكُمْ لاحِقُونَ، أَنْتُمْ لَنا فَرَطٌ وَنَحْنُ لَكُمْ تَبَعَ، أَسْأَلُ الله الْعافِيَةَ لَنا وَلَكُمْ»(٣).

وفي حديث ثالث:

«السَّلامُ عَلَيْكُمْ دارَ قَوْمٍ مُؤمِنينَ، وَإنّا إنْ شاء الله بِكُمْ لاحِقُونَ»(٤).

---

(١) صحيح مسلم: ج٣ ص٦٤ باب ما يقال عند دخول القبور، السنن للنسائي: ج٣ ص٧٦.

(٢) السنن للنسائي: ج٤ ص٧٦ ـ ٧٧.

(٣) السنن للنسائي: ج٤ ص٧٦ ـ ٧٧.

(٤) السنن لأبي داود: ج٢ ص١٩٦.

و يستفاد من حديث عائشة أن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ كان يخرج الى البقيع في آخر الليل من كلّ ليلة، ويقول:

«السَّلامُ عَلَيْكُمْ دارَ قَوْمٍ مُؤْمِنينَ، وَأتاكُمْ ما تُوعَدُونَ وغداً موجَّلُونَ، وَإنّا إنْ شاء الله بِكُمْ لاحِقُنَ، اللّهُمَّ اغْفِرْ لأهْلِ بَقيعِ الغَرْقَدِ»(١).

و يستفاد من حديث آخر أن النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ كان يزور المقابر مع جماعة من أصحابه، ويُعلّمهم كيفية الزيارة:

«كانَ رَسُولُ الله يُعَلِّمُهُم ـ إذا خَرَجُوا إلى الْمَقابِرِ ـ فَكان قائِلُهُمْ يَقُولُ: السَّلامُ عَلىٰ أَهْلِ الدِّيارِ ـ أو ـ السَّلامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيارِ مِنَ الْمُؤْمِنينَ وَالْمُسْلِمينَ، وَإنّا إنْ شاء الله لاحِقُونَ، اَسْأَلُ الله لَنا وَلَكُمْ الْعافِيَةَ»(٢).

النساء و زيارة القبور

المسألة الأخيرة التي ينبغي التحدّث عنها هي: زيارة النساء للقبور، وقد روي في بعض الأحاديث أن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ نهىٰ عن زيارة النساء للقبور:

«لَعَنَ رَسُولُ الله زَوّاراتِ الْقُبُور»(٣).

و لكن يجب الانتباه الى أن تحريم النساء من زيارة القبور ـ استدلالاً بهذا الحديث ـ غير صحيح، وذلك لعدّة أُمور:

---

(١) صحيح مسلم: ج٣ ص٦٣ باب ما يقال عند دخول القبر.

(٢) صحيح مسلم: ج٣ ص١١ باب ما يقال عند دخول القبر.

(٣) صحيح ابن ماجة: كتاب الجنائز ج١ ص٤٧٨ الطبعة الأُولى بمصر.

الأول: إن كثيراً من العلماء يعتبرون هذا النهي نهي تنزيه وكراهة، وقد جاءت الكراهة لأسباب خاصّة بذلك الزمان، يشير اليها صاحب كتاب «مفتاح الحاجة في شرح صحيح ابن ماجه» فيقول:

«اختلفوا في الكراهة هل هي كراهة تحريم أو تنزيه؟ ذهب الأكثر الى الجواز اذا أمِنَت الفتنة»(١).

الثاني: لقد مرَّ عليك -في حديث عائشة- أن النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- رخَّص في زيارة القبور(٢).

فلو كان الترخيص خاصّاً بالرجال لكان اللازم أن تذكر عائشة ذلك، خاصّة وأنها من النساء، ومن الطبيعي أن النساء كنَّ يتواجدن في مسجد رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- وكان كلّ مخاطَبٍ يعتبر نفسه مشمولاً للحكم إلّا اذا صرَّح بالاستثناء.

ثالثاً: و قد مرَّ عليك أيضاً أن النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- علَّم عائشة ما ينبغي قوله عند زيارة القبور(٣) وكانت عائشة تزور القبور بعد رسول الله.

رابعاً: يروي الترمذي أنه لمّا مات عبدالرحمان بن أبي بكر -شقيق عائشة- في «الجُنْثىٰ» حملوا جثمانه الى مكّة ودفنوه فيها، ولمّا جاءت عائشة الى مكّة -من المدينة- خرجت لزيارة قبر أخيها

---

(١) حواشي صحيح ابن ماجة: ج١ ص١١٤ طبعة الهند.

(٢) راجع الحديث رقم ٤.

(٣) راجع الحديث رقم ٥.

وأنشدت بيتين من الشِعر في رثائه(١).

يقول شارح صحيح الترمذي ـ الحافظ ابن العربي المولود سنة ٤٣٥هـ والمتوفىّ سنة ٥٤٣ـ:

«الصحيح أن النبيّ ـ ص ـ سمح للرجال والنساء بزيارة القبور، والذي يقول بالكراهة فإنما هو بسبب جزعهنّ عند القبر وقلّة صَبْرهنّ، أو لعدم رعايتهنّ للحجاب».

خامساً: يروي البخاري عن أَنس أنه قال:

«مرَّ النبي ـ ص ـ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: إتّقِ الله واصبري.

قالت: اليك عنّي فإنك لم تُصبْ بمصيبتي، ولم تعرفه.

فقيل لها: إنه النبي! فأتت باب النبي... فقالت: لم أعرفك!

فقال ـ ص ـ: إنما الصبر عند الصدمة الأُولىٰ(٢).

فاذا كانت زيارة القبور محرَّمة لنهاها النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ عن الزيارة، ولكنك ترىٰ أنه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أوصاها بالتقوىٰ والصبر عند المصيبة، ولم ينْهها عن زيارة المقابر.

سادساً: إن السيّدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ كانت تخرج الىٰ زيارة قبر عمّها حمزة ـ في كلّ جمعة أو أقلّ من ذلك ـ وكانت تصلّي عند قبره وتبكي(٣).

---

(١) صحيح الترمذي: ج٤ كتاب الجنائز باب ماجاء في زيارة القبور ص٢٧٥.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الجنائز ج٢ ص٧٩ باب زيارة القبور.

(٣) مستدرك الصحيحين: للحاكم ج١ ص٢٧٧، وفاء الوفا: ج٢ ص١١٢.

سابعاً: يقول القرطبي:

«لم يلعن النبيّ -صلّى الله عليه[وآله] وسلّم- كلّ امرأة تزور القبور، بل لَعن المرأة التي تزور القبور دوماً، والدليل على ذلك قوله -ص-: «زوّارات القبور» وكلمة «زوّار» هي صيغة المبالغة، وتدلّ على الكرَّة والتكرار»(١).

و لعلّ العلّة في لعن «زوّارات القبور» هي أن الإكثار منها يؤدّي الى ضياع حقّ الزوج ويجرُّها الى التبرّج المنهيِّ عنه، ويكون مصحوباً بالبكاء بصوتٍ عالٍ، ولكن لوكانت الزيارة خالية عن كلّ محذور فلا إشكال فيها أبداً، لأنّ تذكّر الموت والآخرة ممّا يحتاج اليه الرجل والمرأة على السواء.

ثامناً: إن زيارة القبور -في الوقت الذي تؤدّي الى الزهد في الدنيا وزخارفها- تعود بالنفع على الميّت الراقد تحت أكوام التراب، إذ أن الزيارة -عادة- تكون مقرونة بتلاوة سورة الفاتحة وإهدائها الى روح ذلك الميّت، وهذه الهديّة هي أفضل مايقدّمها الانسان الحيّ الى روح فقيده الغالي.

يروي ابن ماجة عن النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- أنه قال:

«إقْرأوا «يس» عَلىٰ مَوْتاكُمْ»(٢).

---

(١) جاء في سنن أبي داود: «زائرات» بَدل «زوّارات».

(٢) صحيح ابن ماجة: حديث ١٤٤٨.

فما هو الفرق بين الرجل و المرأة ـ من هذه الجهة ـ حتى تكون زيارة أحدهما جائزة والأُخرىٰ محرَّمة، لو لا المحذورات الخاصّة المذكورة؟!

و الآن... وبعد أن ثبت جواز زيارة القبور، جاء دور التحدّث عن الآثار الحسنة والنتائج الايجابية لزيارة مراقد أولياء الله الصالحين، وذلك في الفصل القادم.

الفصل الخامس

النتائج البنّاءة

لزيارة قبور الشخصيّات الدينيّة

إن القبور التي تحظىٰ باهتمام واحترام المؤمنين بالله في العالم -وخاصّة المسلمين- هي في الغالب قبور حَمَلة الرسالات الاصلاحيّة الذين أدّوا مهمَّتهم على الوجه المطلوب.

وهؤلاء ينقسمون الىٰ ثلاثة أقسام:

١ - الأنبياء والقادة الدينيّون الذين حملوا على عاتقهم رسالة السماء وضحّوا -من أجلها- بالنفس والمال والأحباب، وتحمّلوا أنواع المتاعب والمصاعب من أجل هداية الناس.

٢ - العلماء والمفكّرون الذين كانوا كالشمعة تُحرق نفسها لتُضيء للآخرين، وقد عاش هؤلاء حياة الزهد والحرمان، وقدّموا للعالم البحوث القيّمة والتحقيقات الرائعة في مجالات العلم والفكر والطبيعة ومفاهيم السماء وعلوم الكون والمخلوقات وغير ذلك.

٣ - المجاهدون الثائرون الذين ضاقوا ذرعاً ممّا يعيشه المجتمع من الظلم وسحق الحقوق والتميز العنصري أو القومي، فثاروا ضدّالظلم والطغيان وطالبوا بحفظ كرامة الانسان وأداء حقوقه،

وأقاموا صرح العدالة بدمائهم الغالية.

إن أيّة ثورة أو تغيير اجتماعي لا يقدّر له النجاح إلّا بدفع الثمن، وإن ثمن الثورة التي تستهدف تدمير قصور الظالمين وخنْق أنفاسهم هو الدماء الزكيّة التي يُضحّي بها المقاتلون الأبطال لإعادة الحقّ والحرية الى الوطن الاسلامي.

إن الناس يزورون قبور هؤلاء ويذرفون عندها الدموع، ويتذكّرون بطولاتهم وتضحياتهم، ويُسعدون أرواحهم بتلاوة آيات من القرآن الحكيم هدية اليهم، ويُنشدون قصائد في مدحهم وثنائهم وتقدير مواقفهم المشرّفة.

إن زيارة مراقد هذه الشخصيّاتُ هي نوع من الشكر والتقدير على تضحياتهم، وإعلام للجيل الحاضر بأنّ هذا هو جزاء الذين يسلكون طريق الحقّ والهدىٰ والفضيلة والدفاع عن المبدأ والعقيدة.

إنّ جزاءهم هو خلود الذكر، الذكر الحسن و الثناء الجميل، بالرغم من مرور الزمان على وفاتهم.

من هنا نعرف ضرورة إحياء ذكريات الشخصيّات الدينية، وعلى هذا الأساس ينبغي العمل على إبقاء ذكرياتهم حيَّة ساخنة، والمحافظة على آثارهم، وإقامة المهرجانات في ذكرىٰ مواليدهم، والحداد والحفلات التأبينية في ذكرىٰ وفيّاتهم، وعقد المجالس والاجتماعات الكبرىٰ، وإلقاء الخطب المفيدة، وتعريف الناس على تلك الشخصيات الراقية وعلىٰ معتقداتهم التي ضحّوا من أجلها، واحترام مراقدهم وتجنُّب كلَّ ما يمسّ بكرامتها، لأن

احترام قبورهم احترامٌ لرسالاتهم وعقائدهم، كما أنّ أيّ نوع من الإهانة و التحقير تجاه مراقدهم هو في الحقيقة إهانة لرسالاتهم وتحقير لشخصيّتهم.

في هذه الأيام عندما يدخل الانسان في مقبرة البقيع لزيارة قبور آل رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ و قبور قادة الاسلام وحماة الدين والصحابة، يرىٰ تلك القبور في حالة يُرثىٰ لها من الإهانة والتصغير، ممّا يهتزّ له الضمير وتأخذه الدهشة من قساوة قلوب الزمرة الوهّابيّة التي تدّعي حماية الاسلام وصيانته، حيث انهم ـ من جانب ـ يذكرون الصحابة بالخير والتمجيد ويثنون عليهم على المنابر، ومن جانب آخر يتركون قبورهم عارية عن كلّ احترام وتكريم، وفي حالة فظيعة من الإهانة والإهمال، ولا يُبالون حتى لو أفسدت الحيوانات أطراف قبورهم!!.

أمّا لفظة «الشِرك» و «المشرك» فهي الهديّة الوحيدة التي يُقدّمها الوهّابيّون الى الحجاج والزائرين، يرمونهم بهذه الكلمات لأن المسلمين يُعظّمون قادة الدين ويُمجّدون أولياء الله الصالحين، فكأن الوهّابيّين يُضمِرون الحقد والبغضاء لأولياء الله وقادة دينه.

و الآن جاء دور التحدّث عن زيارة مرقد رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ على ضوء الأدلّة الاسلامية:

زيارة قبر الرسول الأعظم

فيما يلي نستعرض بعض الآيات القرآنية و الأحاديث

الشريفة التي تدعو الىٰ زيارة قبر رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ونرجو من القارىء المزيد من التوجّه والانتباه.

شهادة من القرآن

إن القرآن الكريم يأمر المذنبين بأن يحضروا عند رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ويسألوا منه أن يستغفر الله لهم، لأن دعاء النبي يُستجاب فيهم، فيقول عزّوجل:

«وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جاؤكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوّاباً رَحيماً»(١).

لو كانت هذه الآية هي الوحيدة في هذا المجال، لذهبنا الى القول بأنها خاصّة بحياة رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وفترة تواجده بين الناس، ولكننا نستخلص حكماً عامّاً شاملاً لا يحدّه بالحياة الدنيوية وذلك من خلال ما يلي:

أولاً: إن القرآن الكريم يُصرّح بحياة الأنبياء والأولياء ـ وجماعات أُخرىٰ ـ في البرزخ(٢) ويعتبرهم مُبصرين وسامعين في ذلك العالم، وسوف نشير الى تلك الآيات عند التحدُّث عن التوسّل بالأرواح المقدّسة.

ثانياً: إنَّ الاحاديث الشريفة تُصرّح بأن الملائكة تُبلّغ خاتم الأنبياء ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ سلامَ مَن يُسلّم عليه ، فقد

---

(١) سورة النساء: آية ٦٤.

(٢) البرزخ: الحياة بعد الموت.

جاء في الصحاح:

«إنَّ رَسُولَ الله قالَ: ما مِنْ أحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إلّا رَدَّ اللهُ عَليَّ رُوحي حَتّىٰ اَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلام»(١).

و قال -صلّى الله عليه وآله وسلّم-:

«صَلوُّا عَلَيَّ فَإنَّ صَلاتَكُمْ تَبْلُغني حَيْثُ كُنْتُمْ»(٢).

ثالثاً: إن المسلمين -منذ ذلك اليوم- فهموا من هذه الآية معنىً مطلقاً لا ينتهي بموت رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- حتى أن بعض الأعراب -بوحي من أذهانهم الخالصة من كلّ شائبة- كانوا يقصدون قبر رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- ويزورونه ويتلون هذه الآية عند قبره المقدّس ويطلبون منه الاستغفار لهم.

و قد ذكره تقيّ الدين السبكي في كتاب «شفاء السقام» والسمهودي في كتاب «وفاء الوفا» نماذج من زيارة المسلمين لقبر رسول الله وتلاوة هذه الآية عند قبره الشريف، وفيما يلي نذكر بعض تلك النماذج:

روىٰ سفيان بن عنبر عن العتبي -وكلاهما من مشايخ الشافعي وأساتذته- أنه قال: كنتُ جالساً عند قبر رسول الله -صلّى الله عليه [وآله] وسلّم- فجاء أعرابي فقال:

«اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يا رَسُولَ الله، سَمِعْتُ اللهَ يَقُولُ: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إذْ ظَلَمُوا

---

(١) سنن أبي داود: ج١ كتاب الحج باب زيارة القبور ص٤٧٠-٤٧١.

(٢) التاج الجامع للاصول في أحاديث الرسول: بقلم الشيخ منصور علي ناصف ج٢ ص١٨٩.

أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوّاباً رَحيماً»، وَقَدْ جِئْتُكَ مُسْتَغْفِراً مِنْ ذَنْبي، مُسْتَشْفِعاً بِكَ إلىٰ رَبّي».

ثم بكىٰ و أنشأ يقول:

يـا خيرَ مـن دُفـنت في الـقـاع اعظمُه
فطاب مِن طيبهـنّ الـقـاع والاكُـمُ
نـفسـي الـفـداء لـقـبـرٍ أنتَ سـاكـنُه
فـيـه الـعـفـافُ وفـيـه الجودُ والـكَرمُ

ثم استغفر وانصرف(١).

و يروي أبو سعيد السمعاني عن الامام عليّ بن أبي طالب -عليه السّلام- أن أعرابياً جاء بعد ثلاثة أيام من دفن رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- فرمىٰ بنفسه على القبر الشريف وحثا من ترابه على رأسه وقال:

«يا رسولَ الله قلتَ فسمِعْنا قولَك، ووَعيتَ عن الله ما وعَينا عنك، و كان فيما أنزله عليك: «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم...» وقد ظلمتُ نفسي وجئتك تستغفرلي الى ربي»(٢).

إنّ كلَّ هذا يدلّ على أن المنزلة الرفيعة التي مَنحها الله تعالى لحبيبه المصطفى -صلّى الله عليه وآله وسلّم- كما صرَّحت بها هذه الآية ليست خاصّة بحياته، بل تؤكّد على أنها ثابتة له بعد وفاته أيضاً.

---

(١) وفاء الوفا: ج٤ ص١٣٦١، الدرر السَنيّة: لأحمد دحلان ص٢١.

(٢) الجوهر المنظَّم: لابن حجر، وذكره السمهودي في وفاء الوفا: ج٢ ص٦١٢، ودحلان في الدرر السَنيّة: ص٢١.

و بصورة عامّة... يَعتبر المسلمون كلّ الآيات النازلة في تعظيم رسول الله واحترامه، عامّة لحياته وبعد مماته، وليس هناك من يُخصِّصها بحياته -صلّى الله عليه وآله وسلّم-.

و قد جاء في التاريخ: لمّا استُشهد الامام الحسن بن علي -عليهما السّلام- وجيء بجثمانه الطاهر الى مسجد رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- ظنّ بنواُميَّة أن بني هاشم يريدون دفن الامام بجوار قبر جدّه المصطفى، فأثاروا الفتنة والضجَّة للحيلولة دون ذلك، فتلا الامام الحسين -عليه السّلام- قولَه تعالىٰ:

«يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَبيّ»(١).

و لم يردَّ عليه أحد -حتى من الاُمويّين- بأن هذه الآية خاصّة بحياة رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم-.

و اليوم ترىٰ الوهّابيّين قد كتبوا هذه الآية ونَصبوها على الجدار المقابل لقبر رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- وهم يقصدون بذلك المنع من رفع الأصوات هناك.

من هذا المنطلق يمكننا أن نستنتج من هذه الآية معنىً واسعاً عامّاً، وهو أن للمسلمين اليوم أن يَقِفوا أمام قبر رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- ويسألوا منه أن يستغفرالله لهم.

و ليس لزيارة رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- معنىً سوىٰ ما تضمّنته هذه الآية وأمثالها.

إن هذه الآية تدلّ على موضوعين هما:

---

(١) سورة الحجرات: آية ٢.

١ ـ إن للانسان أن يقف عند قبر رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ بعد وفاته ويسأل منه أن يستغفرالله له. ولنا بحث حول هذا الموضوع عند البحث عن التوسّل بأولياء الله إن شاءالله تعالى.

٢ ـ إن هذه الآية تشهد على جواز زيارة قبر رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ لأن حقيقة الزيارة لا تعني سوىٰ «حضور الزائر عند المزُور» فاذا كان الوقوف عند قبر النبي والسؤال منه أن يستغفرالله لنا جائزاً فقد تحقَّق أمزان:

١ ـ سألنا منهَ أن يستغفر الله لنا.

٢ ـ حضرنا عنده و تحدَّثنا اليه، والزيارة ليست إلّا هذا.

إستدلالٌ آخَر

إن إجماع المسلمين على حُكم من الأحكام الشرعية في العصور المختلفة يُعتبر أوضح دليلٍ على صحة ذلك الحكم وثباته، وزيارة قبر رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ هي من مصاديق هذه القاعدة، وتظهر لنا حقيقة الأمر لو راجعنا كتب الحديث والفقه والأخلاق والتاريخ، وخاصّة «مناسك الحج» فيها.

وقد ذكر المرحوم العلّامة الأميني استحباب زيارة قبر النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ من اثنين وأربعين مصدراً من المصادر العلمية الاسلامية، وقد أورد في كتابه الغدير ـ ج٥ ص١٠٦ الى ص١٢٩ ـ النصوص والعبارات الخاصّة بهذا الموضوع بدقّة

متناهية، ومن الكتب التي اعتمدنا عليها في هذا المجال هي كالآتي:

١ ـ شفاء السقام في زيارة خير الأنام بقلم تقيّ الدين السبكي الشافعي المتوفّى سنة ٧٠٦هـ، وقد ذكر في كتابه هذا جملة من كلمات العلماء في استحباب الزيارة استحباباً مؤكّداً.

٢ ـ وفاء الوفا بقلم السمهودي ـ المتوفّى ٩١١هـ ـ وقد ذكر فيه أيضاً كلمات العلماء في استحباب الزيارة.

٣ ـ الفقه على المذاهب الأربعة تأليف أربعة من علماء المذاهب الأربعة، وقد جمعوا فيه فتاوىٰ أئمة المذاهب الأربعة المشهورة عند السُنَّة. يقول هؤلاء:

«زيارة قبر النبيّ أفضل المندوبات، ورَدَ فيها أحاديث»(١).

و الآن... حان الوقت لذكر بعض الأحاديث التي رواها المحدّثون حول زيارة قبر النبيّ ـصلّى الله عليه وآله وسلّم ـ:

الأحاديث الشريفة حول زيارة قبر الرسول

إنّ الأحاديث الشريفة ـالتي رواها المحدّثون من أهل السُنّة حول زيارة الرسول الأعظم ـصلّى الله عليه وآله وسلّم ـ على حدٍّ تُغنينا عن التحقيق في سَندها ورُواتها، بسبب كثرتها وتواترها، وقد سجّلها الحفّاظ ـمن جميع المذاهب الاسلامية ـ في كتبهم وصحاحهم، وهي بمجموعها تدلّ على أن زيارة قبر رسول الله

---

(١) الفقه على المذاهب الأربعة: ج١ ص٥٩٠.

ـصلّى الله عليه وآله وسلّمـ كانت من المستحبّات الثابتة لديهم، ولو أردنا أن نذكر كلّ تلك الأحاديث لطال بنا المقام، ونكتفي بذكر بعضها فيما يلي:

١ ـ عن عبدالله بن عمر: أن رسول الله «ص» قال:

«مَنْ زارَ قَبْري وَجَبَتْ لَهُ شَفاعَتي».

جاء هذا الحديث في كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ج١ ص٥٩٠، وقد أفتىٰ علماء المذاهب الأربعة وفقاً لهذا الحديث، للاطّلاع على مصادره راجع كتاب وفاء الوفا ج٤ ص١٣٣٦.

و ممّا لا شكّ فيه أن حديثاً يرويه الحفّاظ والعلماء منذ منتصف القرن الثاني الهجري حتى هذا اليوم لا يمكن أن يكون مُزوَّراً لا أساس له.

و قد تناول الشيخ تقيّ الدين السبكي البحث عن هذا الحديث وأسناده ورواته في كتابه القيّم: شفاء السقام(١) وأثبت صحة هذا الحديث وصوابه.

٢ ـ قال رسول الله ـصلّى الله عليه وآله وسلّمـ:

«مَنْ جاءَني زائِراً «لا تَحمِلُهُ» إلّا زيارَتي، كانَ حَقّاً عَلَيَّ أنْ أكُونَ شَفيعاً لَهُ يَوْمَ الْقِيامَة».

و قد ذكر هذا الحديث ستة عشر حافظاً و مُحدِّثاً في كتبهم، وقد تحدّث تقيّ الدين السبكي ـفي كتابه المشار اليهـ حول

---

(١) ص ٣ الى ١١، وهذا الكتاب هو خير ما كُتب في أهل السُنة ضدّ ابن تيميّة حول تحريمه السفر لزيارة قبر الرسول صلّى الله عليه وآله.

أسناده ورواته، وكذلك ذكره السمهودي في كتابه وفاء الوفا ج٤ ص١٣٤٠.

٣ ـ قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ:

«مَنْ حَجَّ الْبَيْتَ وَلَمْ يَزرْني فَقَدْ جَفاني».

وقد روىٰ هذا الحديث تسعة من كبار الشيوخ وحفّاظ الحديث، وذكرهم بالتفصيل السمهودي في كتابه ج٤ ص ١٣٤٢.

٤ ـ قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ:

«مَنْ حَجَّ فَزارَ قَبْري بَعْدَ وَفاتي كانَ كَمَنْ زارَني في حَياتي».

وقد روىٰ هذا الحديث خمسة وعشرون شخصاً من أشهر المحدّثين والحفّاظ في كُتبهم ومؤلّفاتهم، وقد تحدّث تقيّ الدين السبكي في كتابه المذكور حول سَند هذا الحديث، كما ذكره السمهودي في كتابه ج٤ ص١٣٤٠.

٥ ـ قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ:

«مَنْ زارَ قَبْري «أوْ: مَنْ زارَني» كُنْتُ لَهُ شَفيعاً».

وقد روىٰ هذا الحديث ثلاثة عشر من المحدّثين والحفّاظ، وذكرهم السمهودي في كتابه ج٤ ص١٣٤٧.

٦ ـ قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ:

«مَنْ زارَني بَعْدَ مَوْتي فَكَأَنَّما زارَني في حَياتي».

كانت هذه نماذج من الأحاديث الكثيرة التي رُويت عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ في دعوة الناس الى زيارة قبره

الشريف والتحريض عليها، وقد أحصىٰ المرحوم الشيخ الأميني -في كتاب الغدير- اثنين وعشرين حديثاً حول هذا الموضوع، وذكر السمهودي -في كتابه ج٤ ص١٣٣٦- سبعة عشر حديثاً وتحدَّث عن أسنادها ورواتها بما لا مزيد عليه.

فاذا كان النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- قد دعا الناس الى زيارة قبره الشريف فإنما هو لما فيها من النتائج والآثار والفوائد المادّية والمعنويَّة المقرونة بزيارته وزيارة سائر الشخصيات الدينية.

إن المسلمين -بسبب زيارة قبر النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- يتعرَّفون على مركز الاسلام وعلى الحوادث التي حدثت وتحدث فيه، ومن هناك يكتسبون العلوم والمعارف الاسلامية ويحملونها معهم الى أطراف الكرة الأرضية.

أدلَّة الوهّابيّين على حرمة السفر لزيارة القبور

إن الوهّابيّين -على ما يبدو- يُجوّزون أصل الزيارة، ولكنهم يحرّمون السَفر بهدف الزيارة.

يقول محمّد بن عبدالوهّاب -في الرسالة الثانية من رسائل الهديَّة السنيّة-:

«تُسنُّ زيارة النبيّ -ص- إلّا أنه لا يُشدّ الرحال إلّا لزيارة المسجد والصلاة فيه».

و الدليل الذي يتمسّكون به في تحريم الزيارة هو الحديث المذكور في صحاحهم عن أبي هريرة!! أنه قال: قال رسول الله:

«لا تُشَدُّ الرحالَ إلّا إلىٰ ثَلاثَةِ مَساجِدَ: مَسْجِدي هٰذا ومَسْجِدِ الْحَرامِ وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصىٰ».

و روي هذا الحديث بصورة أُخرىٰ وهي:

«إنّما يُسافَرِ إلىٰ ثَلاثَةِ مَساجِدَ: مَسْجِدِ الْكَعْبَةِ وَمَسْجِدي وَمَسْجِدِ ايليا».

و روي أيضاً بصورة ثالثة وهي:

«تُشَدُّ الرِّحالُ إلىٰ ثَلاثَةِ مَساجِدَ...»(١).

لا شكّ في وجود هذا الحديث في الصحاح، ولسنا الآن في مقام مناقشة الحديث، لكون أبي هريرة في طريقه، بل مقصودنا هو مفاد الحديث.

و لنفرض أن نصَّ الحديث هو: «لا تُشَدُّ الرِحال إلّا إلىٰ ثَلاثَةِ مَساجِدَ...» فمن الثابت أن «إلّا» هي أداة الاستثناء ولابدّ من وجود المستثنىٰ منه، ويجب تحديده، وبما أنه مفقود في النصّ فلابدّ من تقديره في الكلام، وقبل الاشارة الى القرائن الموجودة يمكن تقدير المستثنىٰ منه في صورتين:

١ ـ لا تُشَدُّ إلىٰ مَسْجِدٍ مِنَ الْمَساجِدِ إلّا ثَلاثَة مَساجِد...

٢ ـ لا تُشَدُّ إلىٰ مَكانٍ مِنَ الأَمْكِنَة إلّا إلىٰ ثَلاثَةِ مَساجد...

إن فهم الحديث و الوقوف على معناه يتوقّف على أحد هذين

---

(١) أورد مسلم هذه الأحاديث الثلاثة في صحيحه ج٤ كتاب الحج باب لا تشدّ الرحال ص١٢٦، وذكره أبو داود في سننه ج١ كتاب الحج ص٤٦٩، وكذلك النسائي في سننه المطبوع مع شرح السيوطي ج٢ ص٣٧-٣٨.

التقديرين، فإن اخترنا التقدير الأول كان معنى الحديث عدم شدّ الرحال الى أيّ مسجد من المساجد سوى المساجد الثلاثة، ولا يعني عدم جواز شدّ الرحال الى أيّ مكان حتى لو لم يكن مسجداً.

فلا يشمل النهي مَن يشدّ الرحال لزيارة الأنبياء والأئمة الطاهرين والصالحين، لأن موضوع البحث هوشدّ الرحال الى المساجد -باستثناء المساجد الثلاثة المذكورة- و أمّا شدّ الرحال الى زيارة المشاهد المشرّفة فليس مشمولاً للنهي ولا داخلاً في موضوعه.

هذا على التقدير الأول.

و أمّا على التقدير الثاني فلازمُه أن تكون كافّة السفرات المعنويّة -ما عدا السفر الى المناطق الثلاث المذكورة- محرّمة، سواء كان السفر من أجل زيارة المسجد أو زيارة مناطق أُخرى.

و لكن القرائن و الدلائل تُشير الى أن التقدير الأول هو الصحيح، بناءً على صحة سَند الحديث واعتباره.

أمّا القرائن على صحة التقدير الأول فهي كالآتي:

أولاً: لأن المساجد الثلاثة هي المستثناة، و الاستثناء هنا متّصل -كما هو واضح- فلابدّ أن يكون المستثنى منه هو: المساجد لا المكان(١).

ثانياً: لو كان الهدف هو منع كافّة السفرات المعنويّة لما صحَّ

(١) لو قال قائل: ما جاء إلّا زيد، فالمستثنى منه -في هذا الجملة- هو: الانسان أو القوم أو ماشابه ذلك، وليس المستثنى منه كلمةٌ عامّة كالشيء والموجود، سواء كان إنساناً أو غيره.

الحصر في هذا المقام، لأنّ الانسان يشدّ الرحال في موسم الحجّ للسفر الى «عرفات» و «المشعر» و «منىٰ» فلو كانت السفرات الدينية -لغير المساجد الثلاثة- محرّمة، فلماذا يُشدّ الرحال الى هذه المناطق؟!

ثالثاً: لقد أشار القرآن الكريم و الأحاديث الشريفة الى بعض الأسفار الدينية، وجاء التحريض عليها والترغيب فيها، كالسفر من أجل الجهاد في سبيل الله وطلب العلم وصلة الرحم وزيارة الوالدين وماشابه ذلك. فمن ذلك قوله تعالىٰ:

«فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا في الدّين وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ اِذا رَجَعُوا اِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ»(١).

و لهذا فقد فسّر كبار الباحثين والمحققين الحديث المذكور بما أشرنا اليه، فمثلاً يقول الغزالي -في كتاب إحياء العلوم-:

«القسم الثاني: وهو أن يسافر لأجل العبادة إمّا لحجٍّ أو جهاد... ويدخل في جملته: زيارة قبور الأنبياء -عليهم السّلام- وزيارة قبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء، وكلّ من يُتبرّك بمشاهدته في حياته يُتبرّك بزيارته بعد وفاته، ويجوز شدّ الرحال لهذا الغرض، ولا يَمنع من هذا قولهُ -ص-: «لا تُشد الرحال إلّا الى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصىٰ» لأن ذلك في المساجد، فانها متماثلة [في الفضيلة] بعد هذه المساجد، وإلّا فلا فرق بين زيارة قبور الأنبياء والأولياء والعلماء في أصل الفضل، وإن كان

(١) سورة التوبة: آية ١٢١.

يتفاوت في الدرجات تفاوتاً عظيماً بحسب اختلاف درجاتهم عندالله»(١).

من هنا... فإن المنهيَّ عنه ـ في هذا الحديث ـ هوشدّ الرحال الى غير المساجد الثلاثة، من المساجد الأُخرىٰ، ولا علاقة له بالسفر للزيارة أو لأهداف معنويّة أُخرىٰ.

و في الختام: لابدّ من الاشارة الى أن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ عندما قال: **«لا تُشدّ الرحال إلّا الى ثلاثة مساجد...»** فإنه لا يعني أن شدَّ الرحال الى المساجد الأُخرىٰ حرام، بل معناه أن المساجد الأُخرىٰ لا تستحقّ شدّ الرحال اليها، وتحمّل مشاق السفر من أجل زيارتها، لأن المساجد الأُخرىٰ لا تختلف ـ من حيث الفضيلة ـ مع الآخر اختلافاً كبيراً(٢) فالمسجد ـ سواء كان في المدينة أو في القرية أو في المنطقة ـ لا يختلف مع الآخر اختلافاً كثيراً، وعليه فلا داعي الى أن يشدّ الانسان الرحال اليه، أمّا اذا شدّ الرحال اليه فليس عمله هذاحراماً ولا مخالفاً للسُنّة الشريفة.

و يدلّ عليه ما رواه أصحاب الصحاح والسُنن:

«كان رسول الله ـ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ـ يأتي مسجد قُبا راكباً

---

(١) كتاب إحياء علوم الدين للغزالي: ج٢ ص٢٤٧ كتاب آداب السفر طبعة دارالمعرفة بيروت، الفتاوىٰ الكبرىٰ: ج٢ ص٢٤.

(٢) إلّا مسجد الكوفة و حائر الحسين ـ عليه السّلام ـ فقد ورد في فضلهما أحاديث كثيرة، ولا يخفىٰ أن المساجد الأُخرىٰ تختلف في الفضيلة ـ كمسجد السوق والقبيلة ـ إلّا أن الاختلاف ليس كبيراً.

وما شيأً فيصلّي فيه ركعتين»(١).

و لنا أن نتساءل: كيف يمكن أن يكون شدّ الرحال وقطع المسافات من أجل إقامة الصلاة ـ مخلصاً لله ـ في بيتٍ من بيوته سبحانه ـ حراماً ومنهيّاً عنه؟!!

اذا كانت الصلاة في المسجد مستحبّه فإن الظاهر أن مقدمة المستحبّ مستحبّة أيضاً.

(١) صحيح مسلم: ج٤ ص١٢٧. وراجع في هذا المعنى صحيح البخاري: ج٢ ص٧٦، السُنن للنسائي المطبوع مع شرح السيوطي: ج٢ ص٣٧.

الفصل السادس

إقامة الصلاة و الدعاء
عند قبور الأولياء

من المسائل التي يُثيرها الوهّابيّون كثيراً ـ في كتبهم وغيرها ـ هي إقامة الصلاة والدعاء عند قبور أولياء الله الصالحين وإضاءة المصابيح عندها.

يقول مؤسّس الوهّابيّة في رسالة «زيارة القبور»:

«لم يذكر أحدٌ من أئمة السَلف أنّ الصلاة عند القبور وفي مَشاهدها مُستحبّة، ولا أن الصلاة والدعاء هناك أفضل، بل اتفقوا كلُّهم على أن الصلاة في المساجد والبيوت أفضل منها عند قبور الأولياء والصالحين»(١).

و جاء في الجواب المنسوب الى علماء المدينة:

«أمّا التوجّه الى حجرة النبيّ ـص ـ عند الدعاء فالأولىٰ منعه، كما هو معروف من معتبرات كتب المذهب، ولأن أفضل الجهات جهة القبلة».

و قد تجاوزت هذه المسألة ـ على مرّ الزمان ـ مرحلة المنع الى

---

(١) زيارة القبور: ص١٥٩ ـ ١٦٠.

مرحلة الشِرك ، حتى أنهم اليوم يعتبرون ذلك شركاً وكلّ من يفعل ذلك مشركاً!!

طبعاً ممّا لا شكّ فيه أن الصلاة لصاحب القبر وعبادته، أو جعله قبلة في الصلاة يُعتبر شركاً، ولكن ليس على وجه الأرض مسلم يفعل ذلك عند قبور الأنبياء و الأولياء، فليس هناك من يعبد صاحب القبر أو يتوجّه اليه في الصلاة، لهذا فإن فكرة الشرك هذه ليست سوىٰ وهماً وخيالاً يتخبّط فيه الوهّابيّون.

إنّ هدف المسلمين من إقامة الصلاة و الدعاء عند قبور الأولياء هو التبرُّك بذلك المكان الذي احتضن حبيباً من أحبّاء الله، فهم يعتقدون أن ذلك المكان يتمتّع بمنزلة سامية لكونه يضمّ جسد عزيزٍ من أعزّاء الله، ولذلك فالصلاة والدعاء هناك يعود بثواب اكثر على فاعله.

و السؤال الذي تجب الاجابة عليه هو: هل دفن الأولياء في مكانٍ ما، يمنح قدسيّة خاصّة لذلك المكان أم لا؟

فانْ ثبت ذلك -بدليل من القرآن أو الأحاديث- كانت إقامة الصلاة والدعاء عند مراقد قادة الاسلام مستحبّة ومقرونة بثواب اكثر، وحتى لو لم يثبت ذلك فلا يمكن القول بحرمة الصلاة والدعاء في ذلك المكان، بل يكون كسائر الأماكن الأُخرىٰ التي يجوز فيها إقامة الصلاة والدعاء حتى لو لم تتمتع بأيّة فضيلة.

فحديثنا الآن يدور حول هذا الموضوع بالذات، هل أن لمشاهد الأولياء ومدفنهم شرفاً وفضيلة خاصّة؟

وهل هناك ما يدلّ عليه في القرآن أو الأحاديث؟

الجواب فيما يلي:

١ ـ في قصّة أصحاب الكهف، سبق أن ذكرنا بأن المؤمنين الموحّدين قالوا ـ في شأن مدفنهم ـ:

«لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً».

إن الهدف الذي دعاهم الى اتخاذ مدفنهم مسجداً إنما كان من أجل أداء الفرائض الدينية فيه(١).

إن أُولئك هكذا كانوا يتفكّرون: إن هذا المكان صار ذا كرامة وشرف بسبب احتضانه لأجساد مجموعة من عباد الله الصالحين، ولذا لابدّ من التبرّك به باتّخاذه مسجداً للصلاة والعبادة لله سبحانه، لنَيل الثواب الأكثر.

إن القرآن الكريم يذكر هذا الموضوع عن أُولئك الموحّدين من دون أيّ ردٍّ أو نقد، بل بسكوت تامّ، ولو كان عملهم هذا خلافاً للشريعة أو نوعاً من اللهو والباطل لما سكت القرآن عنهم، بل ردّ عليهم، كما هو شأنه في المعتقدات الباطلة.

٢ ـ إن القرآن الكريم يأمر حُجّاج بيت الله الحرام بأن يقيموا الصلاة عند مقام إبراهيم الخليل ـ عليه السّلام ـ وهي الصخرة التي وقف عليها إبراهيم لبناء الكعبة ـ فيقول سبحانه:

---

(١) يقول الزمخشري ـ في تفسير الكشاف، في تفسير الآية ـ: يصلّي فيه المسلمون ويتبرّكون بمكانهم. ويقول النيشابوري أيضاً: يصلّي فيه المسلمون ويتبرّكون بمكانهم.

«وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلّىٰ»(١).

إن كلَّ من يتلو هذه الآية يفهم منها ـ بوضوح ـ أن الصلاة هناك إنما وجبت بسبب مقام النبيّ إبراهيم، وأن مقام إبراهيم هو الذي مَنح الفضيلة والكرامة لذلك المكان، وترىٰ ملايين المسلمين يتَّخذون من مقام إبراهيم مكاناً للصلاة والدعاء.

فاذا كان الأمر كذلك بالنسبة الى مقام إبراهيم ـ عليه السّلام ـ أَلا ينبغي أن يكون كذلك بالنسبة الى مثوىٰ رجال الله وقادة الاسلام؟!

أَلا تكون الصلاة عند مراقدهم أفضل من الأماكن الأُخرىٰ؟!

صحيح أن الآية قد نزلت بشأن مقام إبراهيم الخليل، ولكن: ألا يمكن ان نستنتج منها حُكماً عامّاً؟!

لقد سأل المنصور العبّاسي «الدوانيقي» من مالك بن أنس ـ إمام المالكية ـ وهما في مسجد رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فقال: يا أبا عبدالله أَستقبل القبلة وأَدعو أم أستقبل رسول الله؟

فقال مالك: لِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم الى الله يوم القيامة؟! بل استقبله واستشفِع به فيشفعك الله(٢).

---

(١) سورة البقرة: آية ١٢٥.

(٢) وفاء الوفا: ج٤ ص١٣٧٦.

يستفاد عن هذا الحوار أن الدعاء عند قبر رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ كان خالياً من أيّ إشكال، وأن سؤال المنصور من إمام المالكية إنما كان عن رجحان الدعاء الى جهة القبلة أم الى جهة قبر الرسول ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ويُفتي مالك بن أنس بأن التوجّه الى قبر الرسول إنما هو كالتوجُّه الى القبلة.

٣ ـ لو راجعنا أحاديث المعراج لا نكشفت لنا هذه الحقيقة بصورة اكثر، حيث جاء فيها أن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ في رحلة المعراج نزل في «المدينة» و «طور سيناء» و «بيت لحم» وصلّى فيها، فقال له جبرئيل: يارسول الله أتعلم أينَ صلَّيت؟ إنك صلّيت في «طيبة» وإليها مُهاجرتك، وصلَّيت في «طور سيناء» حيث كلَّم الله موسى تكليماً، وصلّيت في «بيت لحم» حيث وُلد عيسىٰ (١).

يستفاد من هذا الحديث أن الصلاة محبوبة في بقعةٍ لا مستْ جسد أحد الأنبياء، وأن تلك البقعة إنما اكتسبت القدسيّة والشرف بسبب ذلك النبيّ.

٤ ـ لقد بلغت «هاجر» أُمّ إسماعيل بن الخليل مرتبة عالية عندالله تعالىٰ بسبب صبرها وتحمّلها المتاعب في سبيله سبحانه، ممّا أدّىٰ الى أنْ جَعل الله موضع أقدامها محلّاً للعبادة وأوجب على حجّاج بيته الحرام أن يسعوا كما سعت هاجر بين جَبلَي الصفا

(١) الخصائص الكبرىٰ: لعبدالرحمٰن السيوطي.

والمروة. وهذا ما يعترف به ابن القيّم تلميذ ابن تيميّة(١).

ونتساءل: اذا كان صبر «هاجر» على المكاره وتحمّلها المتاعب في سبيل الله تعالىٰ قد مَنح الكرامة لموضع أقدامها، وأوجب الله على المسلمين أن يعبدوه سبحانه في ذلك المكان بالسعي بين الصفا والمروة، فلماذا لا يكون قبر النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ مباركاً ومقدّساً، في حين أنه تحمّل أنواع المصاعب والمصائب والمكاره من أجل إصلاح المجتمع وإرشاده.

٥ ـ اذا كانت الصلاة عند القبر محرَّمة في الشريعة الاسلامية، فلماذا قضت عائشة عُمرها وحياتها بالصلاة في البيت الخاصّ بها عند قبر رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ؟!

إن معنىٰ قول رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ على فرض صحة الحديث: «لعن الله اليهود والنصارىٰ اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(٢) هو أنهم كانوا يعبدون أنبياءهم ويسجدون على قبورهم، أو يجعلون قبورهم قبلة لهم، وكلا الأمرين مخالفان للشريعة المقدّسة.

ولكن الوهّابيّين يستدلّون بهذا الحديث على حرمة الصلاة عند قبور أولياء الله سبحانه، ولو كان هذا الاستدلال صحيحاً فلماذا قضت عائشة ـ رواية هذا الحديث ـ ما يقرب من خمسين عاماً من عمرها بالصلاة والعبادة في البيت الذي دُفن فيه الرسول؟!!

---

(١) كتاب جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام: لابن القيّم ص٢٢٨.

(٢) السُنن للنسائي: ج٤ ص٩٦ طبع بيروت.

٦ ـ لو لم تكن لقبر رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ القدسيَّة والشرف فلماذا أصرَّ أبو بكر ومن بعده عُمر على أن يُدفنا بجوار قبره الشريف ؟!

ولماذا أوصىٰ الامام الحسن بن علي ـ عليهما السّلام ـ بأن يُدفن عند قبر جدّه المصطفىٰ ، فإن حال الأعداء دون ذلك فليدفن في البقيع ؟!

و أيّة علاقة بين هذا الحديث و سيرة المسلمين القائمة على الصلاة لله باتّجاه القبلة بجوار قبر رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ لدرك المزيد من الثواب والفضيلة ؟!!

٧ ـ إن السيّدة فاطمة الزهراء ـ صلوات الله عليها ـ التي رُوي عن النبي في أحاديث صحيحة أنَّ رضاها هو رضىٰ الله ورسوله وأنَّ غضبها هو غضب الله ورسوله(١) ـ كانت تزور قبر عمّها حمزة في كلّ جمعة ـ أو في الاسبوع مرّتين ـ وكانت تبكي وتصلّي عند قبره. يقول البيهقي:

«كانَتْ فاطِمَة ـ رضي الله عنها ـ تَزُورُ قَبْرَ عَمِّها حَمْزَةَ كُلَّ جُمْعَةٍ، فَتُصَلّي وَتَبْكي عِنْدَهُ»(٢).

أيّها القارئ الكريم: إن هذه الأدلّة ـ بمجموعها و بالاضافة الى سيرة المسلمين الجارية على الصلاة والدعاء في الأماكن التي دُفن فيها أولياء الله واحبّاؤه ـ تؤكّد أن الصلاة والدعاء عند هذه المراقد

(١) لاحظ صحيح البخارى: ج٥ باب مناقب قرابة رسول الله ص٢١.

(٢) السُنن للبيهقي: ج٤ ص٧٨، مستدرك الصحيحين للحاكم: ج١ ص٣٧٧.

تمتاز بفضيلةٍ اكثر وثواب اكبر، وأن الهدف إنما هو التبرُّك بذلك المكان المبارك واداء الفريضة فيها لرجاء القبول من الله سبحانه.

و لو فرضْنا عدم وجود دليل -من القرآن والأحاديث- على شرافة هذه الأماكن وفضيلة الصلاة والدعاء فيها، فلماذا تكون الصلاة محرَّمة فيها؟!

و لماذا لا تدخل هذه الأماكن ضمن إطار القانون الاسلامي العام الذي يعتبر الأرض كلّها محلاً لعبادة الله، حيث يقول رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم-:

«جُعلت لي الأرض مسجداً وطهورا»؟(١).

الإضاءة عند القبور

إن مسألة الإضاءة عند قبور أولياء الله -والتي يدّعي الوهّابيّون حرمتها- ليست ذات أهمّية كبرىٰ، لأن الدليل الوحيد الذي يستدلّون به هو ما ذكره النسائي عن ابن عبّاس أن رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- لعن زائرات القبور والمتّخذين عليها المساجد والسُرُج(٢).

و هذا الحديث -وأمثاله- يختصّ بما اذا كانت الإضاءة تضييعاً وتبذيراً للمال أو تشبُّهاً ببعض الأُمم والشعوب والأديان الباطلة، كما أشار اليه العلّامة السندي -في شرحه على هذا

(١) صحيح البخاري: ج١ ص٩١، مسند أحمد بن حنبل: ج٢ ص٢٢٢ وغيرهما.

(٢) السُنن للنسائي: ج٣ ص٧٧.

الحديث ـ حيث قال:

«والنهيُ عنه لأنه تضييعُ مالٍ بلا نفع»(١).

و أمّا اذا كان الهدف من الإضاءة و الإنارة هو تلاوة القرآن والدعاء والتضرُّع الى الله وإقامة الصلاة وغيرها من المستحبّات والواجبات والمنافع المشروعة فهذا ممّا لا إشكال فيه قطعاً، بل أن الإضاءة في هذه الأماكن ولهذه الأهداف مصداق لقوله تعالىٰ:

«وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوىٰ»(٢).

فكيف تكون حراماً؟!

بل لا شكّ أن الإضاءة مستحبّة شرعاً ومحبوبة عقلاً.

---

(١) السُنن للنسائي: ج٣ ص٧٧ طبعة مصر وج٤ ص٩٥ طبعة بيروت، شرح الجامع الصغير: ج٢ ص١٩٨.

(٢) سورة المائدة: آية ٢.

الفصل السابع

التوسُّل بأولياء الله

يُعتبر التوسّل بأولياء الله و أحبّائه من المسائل المعروفة بين المسلمين في كافة أنحاء العالم، وقد وَرَدَت أحاديث كثيرة في جوازه واستحبابه، فليس ظاهرة غريبة، بل هو أمرٌ ديني تَعارَف عليه المسلمون منذ فجر الاسلام حتى هذا اليوم، ولا تجد مسلماً ينكره.

و طوال أربعة عشر قرناً لم ينكره أحد سوىٰ ابن تيميّة وتلاميذه في القرن الثامن الهجري، و بعد قرنين منه جاء محمّد بن عبدالوهّاب فاعتبر التوسل بأولياء الله بدعة ـ تارةً ـ وعبادة للأولياء ـ تارةً أُخرىٰ ـ .

لا شكّ أن عبادة غيرالله شركٌ و حرام، و ليس البحث الآن عن العبادة ومعناها وحقيقتها، لأنه بحثٌ هامّ وحسّاس، وسوف نتحدّث عنه بالتفصيل في فصل خاصّ، إنما البحث في التوسّل بالأولياء فنقول:

إعلم أن التوسّل بأولياء الله تعالىٰ على صورتين:

١ ـ التوسّل بالأولياء أنفسِهم، كأن نقول:

«اَللّٰهُمَّ إنّي أتَوَسَّلُ إلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أنْ تَقْضِيَ حاجَتي».

٢ ـ التوسّل بمنزلة الأولياء وجاهِهم عندالله تعالىٰ، كأن نقول:

«اَللّٰهُمَّ إنّي أتَوَسَّلُ إلَيْكَ بِجاهِ مُحَمَّدٍ و حُرْمَتِهِ وَ حَقِّهِ اَنْ تَقْضِيَ حاجَتي».

أمّا الوهّابيّون فإنهم يُحرّمون الصورتين معاً، في حين أن الأحاديث الشريفة وسيرة المسلمين تشهدان بخلاف مايدّعيه الوهّابيّون، وتؤكّدان جواز الصورتين معاً.

و الآن... نذكر بعض تلك الأحاديث، واحدة تلوالأُخرىٰ، ثم نتناول الحديث عن سيرة المسلمين، وعند ذلك يتبخّر القول القائل بحرمة التوسّل وأنه بدعة وينتفي بنفسه.

الأحاديث الشريفة

إن الأحاديث التي تدلّ على جواز التوسّل بأولياء الله كثيرة جداً، وهي متواجدة في كتب التاريخ والحديث، وفيما يلي نذكر نموذجاً منها:

الحديث الأول:

١ ـ عن عثمان بن حنيف أنه قال:

«إنَّ رَجُلاً ضَريراً أَتىٰ إِلىٰ النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فَقالَ:

أُدْعُ اللهَ اَنْ يُعافِيَني.

فَقالَ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: إنْ شِئْتَ دَعوتُ، وَإنْ شِئْتَ صَبرتَ وَهُوَ خَيْرٌ؟

قالَ: فَادْعُهُ. فأَمَرهُ ـ ص ـ اَنْ يَتَوَضَّأ فَيُحْسِنَ وُضُوءهُ وَيُصَلّيَ رَكْعَتَيْنِ وَيَدْعُو بِهٰذا الدُعاء: «اَللّٰهُمَّ إنّي أسْئلُكَ وَ أَتَوَجَّهُ اِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ نَبِيِّ الرَّحْمَة، يامُحَمّد إنّي أتوجَّهُ بِكَ إلىٰ رَبّي في حاجَتي لِتُقْضىٰ. اَللّٰهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ».

قال ابن حنيف:

فَوَاللهِ ما تَفَرَّقْنا وَ طالَ بِنَا الحديث حَتّىٰ دَخَلَ عَلَيْنا كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بِهِ ضُرٌّ».

كلمةٌ حول سَند الحديث

لا كلام في صحة سَند هذا الحديث، حتى أن إمام الوهّابيّين ـ ابن تيميّة ـ اعتبر هذا الحديث صحيحاً وقال بأن المقصود من «أبي جعفر» الموجود في سَند الحديث هو أبو جعفر الخطمي وهو ثقة(١).

يقول الرفاعي ـ الكاتب الوهّابيّ المعاصر الذي يسعىٰ دوماً الى تضعيف الأحاديث الخاصّة بالتوسّل ـ يقول حول هذا الحديث:

---

(١) جاء في مسند أحمد: «أبو جعفر الخطمي» أمّا في سنن ابن ماجة فجاء «أبو جعفر» فقط.

«لا شكّ أن هذا الحديث صحيح و مشهور، وقد ثبت فيه ـ بلا شكّ ولا ريب ـ إرتداد بَصر الأعمىٰ بدعاء رسول الله»(١).

و يقول:

«لقد أورد هذا الحديث النسائي والبيهقي والطبراني والترمذي والحاكم في مستدركه، ولكن الترمذي والحاكم ذكرا جملة «اللّٰهمّ شفّعه فيه» بَدل جملة «وشفّعه فيَّ»(٢).

يقول زيني دحلان ـ مفتي مكّة ـ:

«ذكر هذا الحديث ـ مع أسانيد صحيحة ـ البخاري وابن ماجة والحاكم في مستدركه، وجلال الدين السيوطي في جامعه».

و نحن نذكر هذا الحديث من المصادر التالية:

١ ـ سنن ابن ماجة، المجلّد الأول ص٤٤١ رقم الحديث ١٣٨٥، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، نشر دار إحياء الكتب العربية.

و قد ذكر ابن ماجة عن أبي إسحاق أنه قال:

«هذا حديثٌ صحيح».

ثم قال:

«وقد رواه الترمذي في كتاب أبواب الأدعية وقال: هذا حديثٌ حقٌ صحيحٌ غريب».

٢ ـ مسند أحمد بن حنبل، المجلّد الرابع ص١٣٨، عن مسند

---

(١) التوصّل الى حقيقة التوسّل: ص١٥٨.

(٢) المصدر السابق.

عثمان بن حنيف، طبْع المكتب الاسلامي، مؤسّسة دار صادر/ بيروت. وقد روىٰ هذا الحديث عن ثلاثة طُرق.

٣ ـ مستدرك الصحيحين للحاكم النيسابوري، المجلّد الأول ص٣١٣ طبعة حيدرآباد/ الهند. قال بعد ذكر الحديث:

«هذا حديثٌ صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه».

٤ ـ الجامع الصغير للسيوطي، ص٥٩، عن الترمذي والحاكم.

٥ ـ تلخيص المستدرك للذهبي ـ المتوفى ٧٤٨هـ ـ المطبوع بهامش المستدرك .

٦ ـ التاج الجامع، المجلّد الأول ص٢٨٦، وهو كتاب جمع أحاديث الصحاح الخمسة باستثناء صحيح ابن ماجة.

بعد هذا كلّه... لا مجال للمناقشة في سَند الحديث أو الطعن فيه.

و أمّا دلالته فلو قدّمتَ هذا الحديث الى من يُحسن اللغة العربية جيّداً ويتمتّع بصفاء فكر، بعيد عن مجادلات الوهّابيّين وشُبهاتهم حول مسألة التوسّل، ثم سألته: بماذا أمر النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ذلك الأعمىٰ عندما علّمه ذلك الدعاء؟

فسيكون جوابه ـ فوراً ـ : لقد علَّمه النبي كيف يتوسَّل الى الله بنبيّه نبيِّ الرحمة، ويُشفِّعه لقضاء حاجته.

و هذا المعنىٰ هو بالضبط ما يُفهم من كلمات الحديث

المذكور. وفيما يلي نُقسِّم الحديث الى جُمل لمزيد التوضيح:

أ: «اَللّهُمَّ إني أسْأَلُكَ وَأتَوجَّهُ إلَيْكَ بِنَبِيِّكَ».

إن كلمة «نبيِّك» تتعلَّق بما قبلها، أي: «أسألك» و «أتوجَّه إليك» وبعبارة أوضح: إنه يسأل الله تعالىٰ بواسطة النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ كما أنه يتوجَّه الى الله بجاه النبي ووسيلته أيضاً، والمقصود من «النبي» نفسه المقدّسة لا دعاؤه.

أمّا من يجعل كلمة «دعاء» مقدَّراً للنبي، في قوله: «أسألك بنبيِّك» فهو يتحكّم بلا دليل ويدَّعي خلاف الظاهر، والسبب في هذا الادّعاء هو أنه لا يعتقد بالتوسّل بنفس النبي، فيلجأ الى تقدير «دعاء» ليقول: إن التوسّل بدعاء النبي لا إشكال فيه، وبهذا يُبرِّر باطلَه.

ب: «مُحَمّد نبيّ الرحمة».

لكي يتّضح أن المقصود هو السؤال من الله بواسطة النبي وشخصيّته وحرمته فقد جاءت بعد كلمة «نبيّك» جملة «محمّد نبيّ الرحمة» لكي يتّضح الهدف اكثر.

ج: إن جملة: «يا محمّد إنّي أتوجّه بك الىٰ ربي» تدلّ على أن الرجل اتّخذ النبيَّ نفسَه وسيلة لدعائه، لا دعاءه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أي: أنه توسّل بذات النبي لا بدعائه.

د: إن قوله: «وشفِّعه فيَّ» معناه: يا ربّ إجعل النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ شفيعي وتقبَّل شفاعته في حقّي.

أيّها القارئ الكريم: لقد اتّضح لك أن النقطة المركزيّة في

الدعاء كلّه هو شخص رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وشخصيّته الكريمة، ولا ذِكر لدعائه أصلاً.

و كلّ من يزعم أن ذلك الرجل الضرير قد توسّل بدعاء النبيّ لا بشخصه وشخصيّته، فإنما تغافل عن نصوص الرواية وتجاهَلها.

و أنت لو تأمّلتَ قوله: «اللّهمّ إني أسألك وأتوجّه اليك بنبيّك نبيّ الرحمة» وقوله «يا محمّد إني أتوجّه بك الى ربي» لظَهر لك ـ بكلّ وضوح ـ أن التركيز إنما هو على شخص رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ولو كان الهدف هو دعاء النبي لكان الصحيح أن يقول: أسألك بدعاء النبي.

بعد ذكر ما سَبق... لا يبقى أيّ مجال للاشكالات الخمسة التي أوردها الكاتب الوهّابي في كتاب «التوصّل الى حقيقة التوسّل»، وقد ذكرنا ـ بالتفصيل ـ تلك الاشكالات مع أجوبتها وردودها في كتابنا «التوسّل» من صفحة ١٤٧ الى ١٥٣ فراجع.

الحديث الثاني: التوسّل بحقّ السائلين

روى عطيّة العوفي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قال:

«مَنْ خرَجَ مَنْ بَيْتِهِ اِلىَ الصَلاةِ فَقالَ: اللّهُمّ إنّي أسْأَلُكَ بِحَقّ السائِلينَ عَلَيْكَ، وَأَسْأَلُكَ بِحَقّ مَمْشايَ هٰذا، فَإنّي لَمْ اَخرُجْ اَشَراً وَلا بَطَراً وَلارِياءً وَلا سُمْعَةً، وَخَرَجْتُ اِتّقاء سَخَطِكَ وَابْتِغاء

مَرْضاتِكَ، فَأسْأَلُكَ أنْ تُعيذَني مِنَ النّارِ وَأنْ تَغْفِرلي ذُنُوبي، إنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلّا أنْتَ، أقبَلَ اللهُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُ سَبْعُونَ ألْفَ مَلَك»(١).

إنّ هذا الحديث واضح جداً في معناه، ويدلّ على أن للانسان أن يتوسّل الى الله بحرمة أوليائه الصالحين ومنزلتهم ووجاهتهم عنده سبحانه، فيجعل أُولئك وُسَطاء وشفعاء لقضاء حاجته واستجابة دعائه، و دلالة الحديث على الموضوع الذي نتحدّث عنه واضحة.

الحديث الثالث: التوسّل بحقّ النبيّ الكريم

إن النبيّ آدم -عليه السّلام- عند ما صَدر منه ما كان الأولىٰ عدم صدوره، وتاب الى الله تعالىٰ مُمّا صدر منه(٢) تلقّىٰ من ربّه كلمات، كما أشار القرآن الكريم:

«فَتَلَقّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إنَّهُ هُوَ التَّوّابُ الرَّحيم»(٣).

---

(١) سنن ابن ماجة: ج١ ص٢٥٦ حديث رقم ٧٧٨.

(٢) لقد ثبت أن النهي الوارد في قوله تعالىٰ: «لا تَقْرَبا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ» إنما هو نهيٌ إرشادي وتنزيهي، وليس نهياً تحريمياً مَولوياً، والنهي الإرشادي هو بمثابة النصيحة والموعظة، ومخالفةُ هذا النهي لا توجب عقاباً ولا مؤاخذة، ولا تنافي العصمة بأيّ وجه، وإنما توجب تأثير العمل ذاته، فمثلاً: لو نهىٰ الطبيبُ المريضَ المصاب بالزكام عن تناول الحمضيّات، فخالفه المريض، فان المخالفة تعكس الأثر الطبيعي لها -وهو اشتداد الزكام والمرض- وفي القرآن الكريم آيات تدلّ علىٰ أن نهي آدم عن اقتراب الشجرة كان نهياً إرشادياً، ولا أثر لمخالفة هذا النهي سوىٰ الخروج من الجنّة، كنتيجة طبيعيّة لتلك المخالفة. يُرجىٰ مراجعة الآية ١١٨ و١١٩ من سورة طهٰ.

(٣) سورة البقرة: آية ٣٧.

إن المفسّرين والمحدّثين أعربوا عن آرائهم ووجهات نظرهم تجاه هذه الآية ومعناها، وذلك استناداً الىٰ بعض الأحاديث، وفيما يلي نذكر تلك الأحاديث لنرىٰ النتيجة التي نحصل عليها بعد ذلك :

أخرج الطبراني في المعجم الصغير، والحاكم في مستدركه، وأبو نعيم الاصفهاني في حلية الأولياء، والبيهقي في دلائل النبوّة، وابن عساكر الدمشقي في تاريخه، والسيوطي في تفسير الدرّ المنثور، والآلوسي في تفسير روح المعاني، عن عمر بن الخطاب، عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أنه قال:

«لَمّا أذْنَبَ آدمُ الّذي أذْنَبهُ، رَفَعَ رَأْسَهُ اِلَى السَّماء فَقالَ: أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ إلّا غَفَرْتَ لي. فَاَوْحىٰ اللهُ اِلَيْهِ: وَمَنْ مُحَمَّدٌ! فَقالَ: تَبارَكَ اسْمُكَ، لَمّا خُلِقْتُ رَفَعْتُ رَأْسي اِلىٰ عَرْشِكَ فإذا فيهِ مَكْتُوبٌ: لا اِلٰهَ اِلّا اللهُ وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ الله. فَقُلْتُ: اِنَّهُ لَيْسَ أحَدٌ أعْظَمُ عِنْدَكَ قَدْراً مِمَّنْ جَعَلْتَ اِسْمَهُ مَعَ اِسْمِكَ، فَأوْحىٰ إلَيْهِ: اِنَّهُ آخِرُ النبِيّينَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، وَلَوْلا هُوَلَما خَلَقْتُكَ»(١).

رأيُنا حول هذا الحديث

١ ـ لقد ورد في القرآن الكريم التعبير عن الأشخاص والذوات بـ«الكلمات» بعكس ما هو

(١) مستدرك الصحيحين: ج٢ ص٦١٥، روح المعاني: ج١ ص٢١٧، الدرّ المنثور: ج١ ص٥٩ نقلاً عن الطبراني وأبي نعيم والبيهقي. والمتن موافقٌ لما في الدّر المنثور.

متبع لدينا، فمثلاً:

أ ـ قوله تعالى: «إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيىٰ مُصَدِّقاً بكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ»(١).

ب ـ قوله سبحانه: «يا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسيحُ عيسىٰ بنُ مَرْيَم»(٢).

ج ـ قوله عزوجل: «إِنَّمَا الْمَسيحُ عيسَىٰ بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ»(٣).

د ـ قوله جلّ جلاله: «قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ»(٤).

هـ ـ قوله عزّ من قائل: «وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ اَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ»(٥).

فمع الانتباه الى هذه الآيات يمكن القول بأن المقصود من «كلمات» في قوله تعالىٰ: «فتلقّىٰ آدم من ربّه كلمات» هي الشخصيّات المقدّسة الوجيهة التي توسّل بهم آدم الى الله تعالىٰ.

و في الحديث ـ الذي مرّ عليك ـ ترىٰ اسم محمّد ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فقط مذكوراً، أمّا في أحاديث المذهب الحق «الشيعة» ترىٰ الحديث مرويّاً بصورة تتطابق مع الآية الكريمة.

---

(١) سورة آل عمران: آية ٣٩.

(٢) سورة آل عمران: آية ٤٥.

(٣) سورة النساء: آية ١٧١.

(٤) سورة الكهف: آية ١٠٩.

(٥) سورة لقمان: آية ٢٧.

و الحديث مرويٌ بصورتين، فتارةً فُسّرت كلمة «كلمات» بأسماء الخمسة الطيّبة ـعليهم السّلام ـ وفُسّرت بأشباحهم النورانية ـتارةً أُخرىٰ ـ وإليك الحديث فيما يلي:

«إنَّ آدَمَ رأىٰ مَكتوباً عَلَى العَرشِ أسماءً مُعَظّمةً مُكَرَّمةً، فسألَ عَنها؟ فَقيلَ لَهُ: هذه أسماء أَجَلِّ الخلقِ مَنزِلَة عِندَالله تعالىٰ، والأسماء: مُحَمّدٌ وَعَليٌّ و فاطِمَةُ والحسنُ والحسينُ، فَتوسَّل آدم ـعليه السّلام ـ إلى ربّه بِهِم في قَبُولِ تَوبَتِهِ ورفع مَنزلَتِهِ»(١).

و تدلّ بعض الأحاديث على أن آدم رأىٰ الأشباح النورانيّة للخمسة الطيّبة، فتوسّل بهم بعد ذلك(٢).

٢ ـ و عند مراجعة كتب التاريخ والحديث يظهر لنا أن قضية توسّل النبيّ آدم بالنبيّ محمّد ـصلّى الله عليه وآله وسلّم ـ كان معروفاً ومشهوراً بين الناس، ولهذا ترىٰ مالك بن أنس ـإمام المالكية ـ يقول للمنصور الدوانيقي ـفي مسجد رسول الله ـ:

«هو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم»(٣).

---

(١) مجمع البيان: ج١ ص٨٩ طبعة لبنان، تفسير البرهان: ج١ ص٨٦ ـ ٨٨ حديث رقم ٢ و٥ و١١ و١٢ و١٤ و٢٧.

(٢) للتفصيل راجع تفسير البرهان: ج١ ص٨٧ حديث رقم ١٣ و١٥ و١٦.

(٣) ذكر السيّد أحمد زيني دحلان ـفي كتابه الدُرَر السنيَّة: ج١٠ ـ أن القاضي عياض ذكر هذا الحوار بسَندٍ صحيح. وكذلك ذكره السبكي في شفاء السقام، والسمهودي في وفاء الوفا، والقسطلاني في المواهب اللدنيّة. قال ابن حجر ـفي الجوهر المنظّم ـ:قد روي هذا بسندٍ صحيح. وقال العلّامة الزرقاني ـفي شرح المواهب ـ: إن ابن فهد ذكر هذا بسَندٍ حسَن، وذكره القاضي عياض بسندٍ صحيح.

و قد أشار شعراء المسلمين الىٰ هذه الحقيقة في قصائدهم ، فترىٰ أحدهم يقول :

بِـــهِ قَــد أجاب اللهُ آدمَ إذ دعـــا
و نُجـيَ فـي بطنِ السفينةِ نُـوحُ(١)

ويقول الآخـر

قَــومٌ بهـم غُــفِـرَتْ خَطِــيئةُ آدم
وَهُمُ الوَسِيلَةُ والنُجومُ الطُلّعُ(٢)

الحديث الرابع: توسُّل النبيّ بحقّه وحقّ مَن سَبقه من الأنبياء

«لَمّا ماتَتْ فاطِمَةُ بِنْت أَسَدٍ، دَخَلَ عَلَيْها رَسُولُ الله ـ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ـ فَجَلَسَ عِنْدَ رَأْسِها فَقالَ: رَحِمَكِ الله يا أُمّي بَعْدَ أُمّي. ثُمَّ دَعا رَسُولُ الله أُسامَةَ بن زَيْدٍ وَ أبا أيُّوبَ الأنْصاريّ وَ عُمَرَبن الْخَطّابِ وَ غُلاماً أسْوَدَ يَحْفِرُونَ، فَحَفَرُوا قَبْرَها، فَلَمّا بَلَغُوا اللّحْد حَفَرَهَ رَسُولُ الله ـ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ـ بِيَدِهِ وَ أَخْرَجَ تُرابَهُ، فَلَمّا فرغَ دَخَلَ رَسُولُ الله فَاضْطَجَعَ فيهِ، ثُمّ قالَ: اللهُ الّذي يُحْيي وَ يُميتُ وَ هُوَ حَيٌّ لا يَمُوتُ، إغْفِرْ لأُمّي فاطِمَةَ بِنْتِ أسد، وَوَسِّعْ عَلَيْها مَدْخَلَها، بِحَقِّ نَبِيِّكَ وَ الْأنبياء الّذينَ مِنْ قَبْلي».

قال مؤلّف «خلاصة الكلام»:

«رواه الطبراني في الكبير و الأوسط، وابن حبّان والحاكم

---

(١) كشف الارتياب: ص٣٠٧ نقله عن المواهب، والشعر لابن جابر.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٠٨، والشعر للواسطي.

وصحّحوه»(١).

و كَتب السيّد أحمد زيني دحلان ـ في كتاب الدرر السَنيّة في الردّ على الوهّابيّة ـ:

«روىٰ ابن أبي شيبة عن جابر مثلَ ذلك. وكذا روىٰ مثلَهُ ابنُ عبدالبَرّ عن ابن عبّاس، ورواه أبونعيم في حلية الأولياء عن اَنس، ذكر ذلك كلّه الحافظ جلال الدين السيوطي في الجامع الكبير»(٢).

أمّا نحن فقد ذكرنا هذا الحديث ـ المذكور ـ عن مصدَرين يشتمل أحدهما على الدعاء ـ الذي هو موضوع البحث ـ و الآخر لايشتمل عليه، والمصدران هما:

١ ـ حلية الأولياء لأبي نعيم الاصفهاني / المجلّد الثالث ص١٢١.

٢ ـ وفاء الوفا للسمهودي / المجلّد الثالث ص٨٩٩.

الحديث الخامس: التوسّل بالنبيّ نفسه

روىٰ جمعٌ من المحدّثين أن أعرابياً دخل على رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وقال:

«لقد أتيناك وما لَنا بعيرٌ يئطّ(٣)، ولا صبيٌّ يغطّ(٤).

---

(١) كشف الارتياب: ص٣١٢ نقلاً عن خلاصة الكلام.

(٢) الدرر السَنيّة: ص٨.

(٣) يئط ـ مشتقّ من الأطيط ـ وهو صوت البعير.

(٤) يغط ـ مشتقّ من الغطيط ـ وهو صوت النائم.

ثم أنشأ يقول:

أتـيـنـاكَ والعذراءُ تُـدمـىٰ لِـبـانُـهـا
وقـد شُـغِـلـتْ أُمّ الصبـيّ عـن الطـفـلِ

ولا شيء مـمّـا يـأكلُ الـنـاسُ عِـنـدنـا
سوىٰ الحنظل الـعـامـي والـعِـلـهـزِ الـفَسْلِ

ولـيس لـنـا إلّا إلـيـك فِـرارُنـا
وأيـن فـرارُ الـنـاس إلّا الى الـرُسُـلِ

فَقامَ رَسُولُ الله ـ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ـ يَجُرُّ رِداءَه، حَتّىٰ صَعِدَ الْمِنْبر فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقالَ: اَللّهمّ اسْقِنا غَيْثاً مُغيثاً... فَمارَدَّ النَبيُّ يَدَيْهِ حَتّىٰ ألقَتِ السَّماء... ثُمَّ قالَ: للهِ دَرُّ أبي طالِبٍ لَوْ كانَ حَيّاً لَقَرَّتْ عَيْناهُ. مَنْ يُنْشِدُنا قَوْلَهُ؟

فَقامَ عَليُّ بن أَبي طالب ـ عليهما السّلام ـ وَقالَ: كَأَنَّكَ تُريدُ ـ يا رَسُولَ الله ـ قَوْلَهُ:

وأبـيـضَ يُـسـتـسقى الـغـمـامُ بـوجـهـهِ
ثِـمـالُ الـيَـتـامـىٰ عِـصـمـةٌ لـلأرامـلِ

يطـوف بـه الـهُـلّاك مِـن آلِ هـاشـمٍ
فَـهُـم عِـنـده في نِـعـمـةٍ وفـواضـلِ

فقال النبيّ ـ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ـ: أجل.

فَـاَنْشَدَ عَلِيٌّ ـ عليه السّلام ـ أبْياتاً مِنَ الْقَصيدةِ، وَالرَّسُولُ يَسْتَغْفِرُ لأَبي طالِبٍ عَلَى المنرِ، ثُمَّ قامَ رَجُلٌ مِنْ كِنانَةٍ وَ اَنْشَدَ يَقُولُ:

لَكَ الحمدُ والحمدُ ممَّن شكَرَ
سُقينا بوجهِ النبيّ المَطَر

أقول: إن المصادر التي تذكر هذه القضية كثيرة جداً، ونحن قد ذكرناها من المصادر التالية:

أ ـ عمدة القاري في شرح حديث البخاري: المجلّد السابع ص٣١ تأليف بدرالدين محمود بن أحمد العين، المتوفّى عام ٨٥٥ طبعة إدارة الطباعة المنيرية.

ب ـ شرح نهج البلاغة: لأبن أبي الحديد ج١٤ ص٨٠.

ج ـ السيرة الحلبيّة: المجلّد الثالث ص٢٦٣.

د ـ الحجّة على الذاهب الى تكفير أبي طالب: تأليف شمس الدين أبي علي فخار بن معد، المتوفّى عام ٦٣٠، طبعة النجف مطبعة العلوي ص٧٩.

هـ ـ سيرة زيني دحلان: المطبوعة بهامش السيرة الحلبيّة، المجلّد الأول ص٨١.

الحديث السادس: التوسّل بالنبيّ أيضاً

روي أن سواد بن قارب أنشدَ لرسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قصيدته التي يتوسّل فيها بالنبيّ.

وفيها يقول:

وأشهدُ أنَّ اللهَ لا ربَّ غيرُهُ
وأنّكَ مأمونٌ علىٰ كلِّ غائبِ

وأنّـــك أدنـــىٰ المـــرسَـــلين وسيـــلـــة
إلى الله يـــابـــنَ الأكـــرمـيـــنَ الأطـــائـــب
فـمُـرنـا بمـا يـأتـيـكَ يـا خـيـرَ مُـرسَـلٍ
وإنْ كـان فيما فـيـهِ شَـيـبُ الـذّوائـبِ
وَكُـنْ لي شَفيـعـاً يَـوم لا ذو شَـفـاعـةٍ
بِمُغْنٍ فـتـيـلاً عـن سـواد بـن قـاربِ (١)

أيّـها القارئ الكريم: لقد ذكرنا ـ حتى الآن ـ مجموعة من الأحاديث المرويَّة في التوسّل، اعتماداً على كتب التاريخ والحديث لأهل السُنّة.

أمّا التوسّل بأولياء الله ـ فيما روي عن أئمة أهل البيت ـ عليهم السّلام ـ في كتب الشيعة ـ فهو على حدٍّ من الوضوح والثبوت بحيث جاءت الاشارة اليه في الأدعية أيضاً.

و لنا أن نتساءل: هل يجب أن نأخذ المعارف الاسلامية والأحكام الشرعية من «ابن تيميّة» و «محمّد بن عبدالوهّاب» ونظرائهما أم من عترة رسول الله التي نصّ النبي ـ في حديث الثقلين ـ على أنها الثقل الأصغر وعدل القرآن؟!!

إن كلّ مسلمٍ ـ يملك ذرَّة من الوعي والإنصاف ـ يحكم بضرورة الأخذ من العترة الطاهرة التي أذهب الله عنها الرجس وطهَّرها تطهيراً.

---

(١) الدُرر السَنيّة ص٢٧ تأليف زيني دحلان، التوصّل الى حقيقة التوسّل: ص٣٠٠.

نماذج من أدعية التوسُّل

أمّا الأدعية التي ورد فيها التوسّل بأولياء الله تعالىٰ فهي كثيرة وموزَّعة في الصحيفة العلويّة(١) و دعاء عرفة(٢) والصحيفة السجّادية(٣) وغيرها من كتب الدعاء.

و فيما يلي نذكر نماذج من تلك الأدعية.

١ ـ يقول الامام عليّ أميرالمؤمنين ـ عليه السّلام ـ في دعاء له:

«... بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ عَلَيْكَ، وَبِحَقِّكَ الْعَظيمِ عَلَيْهِمْ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِمْ كَما أَنْتَ أَهْلُهُ وَ أَنْ تُعْطِيَني أَفْضَلَ ما أَعْطَيْتَ السّائِلينَ مِنْ عِبادِكَ الْماضينَ مِنَ الْمُؤْمِنينَ، وَأَفْضَلَ ما تُعْطي الباقينَ مِنَ الْمُؤْمِنينَ...»(٤).

٢ ـ و يقول الامام سيّد الشهداء الحسين ـ عليه السّلام ـ في دعاء عرفة:

«... اَللّٰهُمَّ إنّا نَتَوَجَّهُ اِلَيْكَ ـ في هٰذِهِ الْعَشِيَّةِ التي فَرَضْتَها وَ عَظَّمْتَها ـ بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّكَ وَرَسُولِكَ وَ خِيرَتِكَ مِنْ خَلْقِكَ».

٣ ـ و يقول الامام زين العابدين ـ عليه السّلام ـ في دعائه بمناسبة حلول شهر رمضان:

---

(١) وهي المجموعة التي تضمّ بعض أدعية الامام عليّ أميرالمؤمنين ـ عليه السّلام ـ جَمعَها الشيخ عبدالله السماهيجي.

(٢) وهو دعاء الامام الحسين ـ عليه السّلام ـ في عرفات يوم عرفة.

(٣) وهو بعض أدعية الامام زين العابدين ـ عليه السّلام ـ.

(٤) الصحيفة العلوية للسماهيجي: ص٥١.

«... اَللّٰهُمَّ إنّي أسْأَلُكَ بِحَقِّ هٰذا الشهْرِ وَبِحَقِّ مَنْ تَعَبَّدَ فيهِ ـ من ابتدائِه الى وقت فنائه ـ مِنْ مَلَكٍ قَرَّبْتَهُ أونبيٍّ أرسَلْتَهُ أو عبدٍ صالحٍ اختَصَصْتَهُ...»(١).

سيرة المسلمين في التوسّل

لقد جرت سيرة المسلمين ـ في حياة النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ وبعد وفاته ـ على التوسّل بأولياء الله والاستشفاع بمنزلتهم وجاههم عندالله تعالىٰ.

و إليك نماذج من تلك السيرة:

١ ـ كتب المؤرّخ الشهير: ابن الأثير ـ المتوفّى عام ٦٣٠ ـ:

«واسْتَسْقىٰ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ بِالْعَبّاسِ، عامَ الرَّمادَة، لَمّا اشْتَدَّ الْقَحطُ، فَسَقاهُمُ اللهُ تَعالىٰ بِهِ وَأخْصَبَتِ الأرْضُ، فَقالَ عُمَرُ: هٰذا ـ وَاللهِ ـ الْوَسيلَةُ اِلَى اللهِ وَالْمَكانُ مِنْهُ.

وقال حسّان:

سأل الامامُ وقد تتابعَ جَدْبُنا ... فسقى الغَمام بغُرّة العَبّاسِ

ـ عمّ النبيّ وصنوِ والدِهِ الذي ... وَرِثَ النبيَّ بذاكَ دون الناسِ

أحيىٰ الإلٰهُ به البلادَ فأصبحتْ ... مُخضَرَّةَ الأجنابِ بعد الياسِ

(١) الصحيفة السجّادية: دعاء رقم ٤٤.

وَلمَّا سُقي النّاسُ طَفِقُوا يَتمسَّحوُنَ بِالْعَبّاسِ وَيَقُولُونَ: هَنيئاً لَكَ ساقِي الْحَرَمَيْنِ»(١).

إن التأمّل في هذه القضية التاريخية ـ والتي ذكر بعضاً منها البخاري في صحيحه ـ يؤكّد على أن من مصاديق «الوسيلة» هو التوسّل بأصحاب الجاه والمنزلة، حيث ينتج منه التقرّب الىٰ الله وتكريم الداعي والمتوسِّل.

وأيّ تعبيرٍ أوضح من قوله:

«هٰذا ـ وَالله ـ الْوَسيلَةُ اِلىَ اللهِ وَالْمَكانُ مِنْهُ»؟!

٢ ـ يقول القسطلاني(٢) المعاصر للسيوطي المتوفّى عام ٩٢٣هـ:

«إنَّ عُمَرَ ـ لَمّا اسْتَسْقىٰ بِالْعَبّاسِ ـ قالَ «أيُّها النّاسُ إنَّ رَسُولَ الله كانَ يَرىٰ لِلْعَبّاسِ ما يَرىٰ الْوَلَدُ لِلوالِدِ، فَاقْتَدُوا بِهِ في عَمِّهِ وَ اتَّخِذُوهُ وَسيلَةً اِلىَ اللهِ تَعالىٰ». ففيهِ التصريح بالتوسّل، وبهذا يبطل قول من مَنع التوسّل مطلقاً، بالأحياء والأموات، وقولُ من منع ذلك بغير النبي».

٣ ـ سبق أن ذكرنا بأن المنصور العبّاسي «الدوانيقي» سأل من مالك بن أنس ـ إمام المالكية ـ عن كيفية زيارة رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ والتوسّل به... فقال لمالك:

«يا اَبا عَبْدِالله أَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ وَ أَدْعُو، ام أَسْتَقْبِلُ رَسُولَ الله؟ فَقالَ

---

(١) تاريخ أُسد الغابة في معرفة الصحابة: ج٣ ص١١١ طبعة مصر.

(٢) في كتاب المواهب اللدنيّة: طبعة مصر.

مالِك في جوابه: لِمَ تَصْرِفْ وَجْهَكَ عَنْهُ وَهُوَ وَسيلَتُكَ وَوَسيلَةُ أبيكَ آدَمُ اِلى الله يَوْمَ الْقِيامَة؟! بَلِ اسْتَقْبِلْهُ وَاسْتَشْفِعْ بِهِ فَيُشَفِّعُكَ الله، قالَ الله تَعالىٰ: وَلَوْ اَنَّهُمْ اِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ...»(١).

٤ ـ ذكر ابن حجر الهيثمي هٰذين البيتين من الشِعر للشافعي ـإمام الشافعيةـ:

آل النبي ذريعتي وهمُ اليه وسيلتي
أرجو بهم أُعطىٰ غداً بيدي اليمين صحيفتي(٢)

بعد كلّ ما سَبق من الأدلّة والبراهين والشواهد، يمكن القول بأن الأنبياء والشخصيات الدينية السامية هم من الوسائل التي عناها الله تعالىٰ بقوله:

«يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَ ابْتَغُوا اِلَيْهِ الوَسيلَةَ»(٣).

و قد أمر تعالىٰ باتّخاذهم وسيلة اليه سبحانه.

و لا شكّ أن الوسيلة غير منحصرة في أداء الفرائض واجتناب المحرّمات فقط، بل تشمل المستحبّات ـالتي من ضمنها التوسّل بالأولياءـ أيضاً.

فهل يمكن القول بأن العلماء والمحقّقين قد أخطأوا في فهم معنىٰ «الوسيلة»؟!

---

(١) وفاء الوفا: ج٢ ص١٣٧٦.

(٢) الصواعق المحرقة لابن حجر: ص١٧٨، والكتاب مليئ بالانحراف والافتراء، وقد ردّ عليه جمع من العلماء والمحقّقين، منهم: الشهيد السعيد القاضي نورالله التستري في كتابه: الصوارم المهرقة.

(٣) سورة المائدة: آية ٣٥.

مع العلم أنهم مصادرٌ للحُكم وحفّاظٌ للحديث ومن علماء الاسلام الذين يُشار اليهم بالبنان؟!

إن الذين يُعرضون صفحاً عن هذه التصريحات والأدلّة، ويبحثون هنا وهناك عن توجيه وتأويل لكلّ حديث ودليل، هم أشبه بالقاضي الذي يتسرّع في إصدار الحكم من دون الاعتماد على القرائن والشهود.

٥ ـ يروي البخاري في صحيحه:

«إنَّ عُمَرَ بن الخَطّابِ كانَ إذا قُحِطُوا اِسْتَسْقىٰ بِالْعَبّاسِ بن عَبْدِالْمُطّلِب ـ رضي الله عنه ـ وَقالَ: اَللّٰهُمَّ كُنّا نَتَوسَّلُ إلَيْكَ بِنَبِيِّنا فَتُسْقينا، وَإنّا نَتَوَسَّلُ إلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنا فَاسْقِنا.

قالَ: فَيُسْقَوْنَ»(١).

لا كلام في صحة هذا الحديث، حتىٰ أن الرفاعي ـ الكاتب الوهّابي الذي يردّ أحاديث التوسّل المتواترة مهما أمكنه ـ قد اعترف بصحة هذا الحديث وقال:

«إن هذا الحديث صحيح(٢) فإن صحّ هذا الجواز شرعاً فنحن من أسبق الناس الى الأخذ به والعمل بمقتضاه».

فمع الانتباه الى ما ذكروه عن عمر بن الخطّاب بشأن التوسّل

---

(١) صحيح البخاري: باب صلاة الاستسقاء ج٢ ص٣٢.

(٢) كان الصحيح أن يقول «ان هذا التاريخ صحيح» لأن الحديث ـ في الاصطلاح ـ هو كلام النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وكلامنا الآن عن الأحداث التاريخية، وقد سبق ذكر الأحاديث الشريفة.

بالعبّاس، وأنه أقسمَ بالله بأنّ «هٰذا ـ وَالله ـ الْوَسيلَةَ اِلَى الله وَالْمَكانُ مِنْهُ» يتّضح بأن حقيقة التوسّل ـ في هذا المجال ـ هي التوسّل بذات العبّاس ونفسِه، أو بشخصيّته ووجاهته عندالله تعالىٰ، لا بدعاء العبّاس.

هذا... وقد روىٰ محمّد بن النعمان المالكي ـ المتوفّى سنة ٦٨٣هـ ـ في كتابه «مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام» كيفيّة توسّل عُمرُ بالعبّاسِ وأنه قال:

«اَللّٰهُمَّ إنّا نَسْتَقيكَ بِعَمِّ نَبِيِّكَ وَنَسْتَشْفِعُ إلَيْكَ بِشَيْبَتِهِ. فَسُقُوا» وَفي ذٰلِكَ يَقُولُ الْعبّاسُ بْن عُتْبَة بن أَبي لَهَب:

بعمّي سقىٰ الله الحجازو أهلَهُ

عَشيَّة يَستسق بشَيْبَتِهِ عُمَرُ(١)

و كذلك أنشد حسّان قوله:

«فَسَقى الغَمامُ بغُرَّة العبّاس».

و قال ابن حجر العسقلاني(٢):

«إنَّ العَبّاسَ دَعا اِلَى الله تَعالىٰ بقوله: ...وَقَدْ تَوَجَّهَ الْقَوْمُ بي اِلَيْكَ لِمَكاني مِنْ نَبيِّكَ».

أيّها القارئ الكريم: لقد ظهر لك ـ بكلّ وضوح ـ أن التوسّل إنما كان بشخصية العبّاس وجاهه، وقد قال علماء البلاغة والأدب:

---

(١) وفاء الوفا: ج٣ ص ٣٧٥ نقلاً عن مصباح الظلام.

(٢) فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ج٢ ص٤١٣.

«تعليقُ الحُكم بالوصفِ مُشعِرٌ بالعِلّيّة».

يعني: ترتُّب الحُكم على الوصف يدلّ على أن العلّة في ذلك الحُكم هو الوصف، فمثلاً يقول القرآن الحكيم:

«وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ».

يعني: ان المرأة التي أنجبت مولوداً للزوج، فعلىٰ الزوج أن يتكفّل نفقتها، فالحُكم هو وجوب الانفاق، والوصف هو المولود الذي أنجبته المرأة.

و إليك مثالاً آخر:

لو قال الوالد لولده «إحترِم العالِم» فإنما هو لعلَّة العلم والفضيلة التي فيه.

بناءً على هذا... فإن قول عمر: «إنّا نَتوسّلُ اِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّكَ» فيه بيان علّة التوسّل بالعبّاس دون غيره من الناس، وأنها لكونه عمّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وقد ذكر العبّاسُ نفسُه ذلك فقال: «لمكاني مِنْ نَبِيِّكَ».

و الخلاصة: بعد كلّ ما سبق... يمكن القول ـ بالقطع واليقين ـ إن المسلمين في صدر الاسلام كانوا يتوسّلون بالأشخاص الصالحين الأزكياء.

٦ ـ شِعر صفيَّة في رثاء النبي

أنشدت صفيَّة بنت عبدالمطّلِب ـ عمّة النبيّ ـ قصيدة بعد وفاة النبي في رثائه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ومنها:

ألَا يا رسـولَ الله أنــت رجـاؤنـا
وكـنـتَ بِـنـابَـرّاً ولـمْ تَـكُ جـافـيـا
و كُنتَ بـنـابَـرّاً رؤوفـاً نَـبـيّـنـا
لِيَبْكِ عليكَ اليوم مَن كانَ باكيا(١)

إننا نستنتج من هذه المقطوعة الشعرية ـ التي أنشدت على مسمعٍ من الصحابة وسجّلها المؤرّخون وأصحاب السِيَر ـ أمرين:

الأول: إن مخاطبة الأرواح ـ وبالخصوص مخاطبة رسول الله بعد وفاته ـ كان أمراً جائزاً وجارياً، وقولها: «ألَا يا رسولَ الله» لم يكن لغواً ولا شركاً كما تدّعي الوهّابيّة الضالَّة.

الثاني: إن قولها: «أنت رجاؤنا» يدلّ على أن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ هو أمل المجتمع الاسلامي في كلّ العصور والأحوال، ولم تنقطع الروابط والعلاقات معه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ حتىٰ بعد وفاته.

بعض ما كُتب في التوسّل

من المناسب ان نُشير الى بعض الكتب القيّمة التي كتبها علماء أهل السُنَّة حول التوسّل بالنبيّ الأكرم ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وإن مطالعة هذه الكتب تكشف عن رأي علماء الاسلام في التوسّل بالأنبياء والأولياء، وتؤكّد على أن التوسّل ـ على خلاف

(١) ذخائر العقبىٰ للحافظ المحبّ الطبري: ص٢٥٢، مجمع الزوائد: ج٩ ص٣٦ ونشير الى أن جملة «أنت رجاؤنا» في الشطر الأول جاءت في هذا المصدر هكذا «كنت رجاءنا».

ما تدّعيه الزمرة الوهّابيّة- كان أمراً متداولاً وسُنَّةً متَّبعة عندالمسلمين طوال التاريخ:

١ - كتاب الوفاء في فضائل المصطفى: لابن الجوزي المتوفّى سنة ٥٩٧هـ، وقد أفرد باباً حول التوسّل بالنبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- وباباً حول الاستشفاء بقبره الشريف.

٢ - مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام: تأليف محمّد بن نعمان المالكي المتوفّى سنة ٦٧٣هـ، وقد نَقل السمهودي -في كتاب وفاء الوفا، باب التوسّل بالنبيّ- عن هذا الكتاب نقلاً كثيراً.

٣ - البيان والاختصار: لابن داود المالكي الشاذلي، وقد ذكر فيه توسّل العلماء والصلحاء بالرسول الأكرم -صلّى الله عليه وآله وسلّم- في المحن والأزمات.

٤ - شفاء السقام: لتقيّ الدين السبكي المتوفّى عام ٧٥٦هـ، وقد تحدَّث عن التوسّل بالنبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- بشكلٍ تحليلي رائع من ص١٢٠ الى ١٣٣.

٥ - وفاء الوفا لأخبار دار المصطفىٰ: للسيّد نورالدين السمهودي المتوفّى سنة ٩١١هـ، وقد بحث عن التوسّل بحثاً واسعاً في الجزء الثاني من صفحة ٤١٣ الى ٤١٩.

٦ - المواهب اللدنيّة: لأبي العبّاس القسطلاني المتوفّى سنة ٩٣٢.

٧ - شرح المواهب اللدنيّة: للزرقاني المالكي المصري المتوفّى

سنة ١١٢٢، في الجزء الثامن ص٣١٧.

٨ ـ صلح الاخوان: للخالدي البغدادي المتوفّى سنة ١٢٩٩، وله أيضاً رسالة خاصّة في الردّ على الآلوسي حول موضوع التوسّل بالنبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وقد طُبعت الرسالة في سنة ١٣٠٦هـ.

٩ ـ كنز المطالب: للعدوي الحمزاوي المتوفّى سنة ١٣٠٣هـ.

١٠ ـ فرقان القرآن: للعزامي الشافعي القضاعي، وقد طُبع هذا الكتاب مع كتاب الأسماء والصفات للبيهقي في ١٤٠ صفحة.

أيّها القارئ الكريم: إن مطالعة هذه الكتب ـ وخاصّة تلك التي تحدّثت بالتفصيل عن التوسّل، ويأتي كتاب صُلح الاخوان وفرقان القرآن في طليعتها ـ إن مطالعة هذه الكتب يُثبت سيرة المسلمين ـ في كلّ عصر ومصر ـ في التوسّل بالنبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ويكشف عن ضلال ابن تيميّة وتلامذته وانحراف رأيهم وفساد عقيدتهم

وفي الختام

في ختام هذا الفصل نقول ـ عوداً على بدء ـ: إن القرآن الكريم يصرّح بجواز التوسّل بأولياء الله تعالىٰ، بل يدعو الى ذلك بقوله:

«يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا اتّقُوا اللهَ وَ ابْتَغُوا إلَيْهِ الْوَسيلَةَ وَجاهِدُوا في سَبيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»(١).

(١) سورة المائدة: آية ٣٤.

إن هذه الآية تدعو الى اتخاذ «الوسيلة» في كلّ المجالات بصورة عامّة.

و السؤال: ماهي «الوسيلة»؟

الجواب: لم تذكرها الآية الكريمة، ولا شكّ أن أداء الفرائض الدينية هي من وسائل الفلاح والنجاة، ولكن لا شكّ أيضاً أن «الوسيلة» غير منحصرة في ذلك، بل ـ وبالاعتماد على سيرة المسلمين طوال التاريخ ـ إن من «الوسيلة» التوسّل بأولياء الله الصالحين، وأنه من وسائل الفوز والفلاح وقضاء الحوائج وتحقيق الآمال، ويتجلّى هذا ـ بوضوح ـ فيما ذكرنا من كلام إمام المالكية مع المنصور العبّاسي، وتوسّل عمر بن الخطّاب بالعبّاس للاستسقاء وغير ذلك.

«إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ اِلىٰ رَبِّهِ سَبيلاً».

الفصل الثامن

النذر لأهل القبور

قبل كلّ شيء نذكر تعريفاً عن النذر فنقول:

النذر،معناه أن يُلزم الانسان نفسه بأداء شيء معيَّن اذا تحقّق هدفه وقُضِيَتْ حاجته، فيقول: لله عَلَيَّ أن... (ويذكر نذره) اذا كان... (ويذكر حاجته).

مثلاً يقول: لله عَلَيِّ أَنْ أَخْتِم الْقُرآنَ اِذا نَجَحْتُ في ألاِمْتِحاناتِ الدِراسِيَّة.

هذا هو النذر الشرعي، ويجب أن يكون لله فقط، فإذا قال الناذر: نذرتُ لفلان، ففي قوله مَجازٌ، والمعنى: نذرتُ لله علىٰ أنْ يكون ثوابه لفلان. وثواب النذر يقع على ثلاثة أقسام:

١ ـ أن يكون الثواب لنفس الانسان الناذر.

٢ ـ أن يكون لشخص حيّ.

٣ ـ أن يكون لشخص ميّت.

فقد يُخصِّص الانسان الناذر ثواب نَذره لنفسه، أو لشخص حيّ ـ واحد كان أو اكثر ـ أو لشخص ميّت ـ واحدٍ كان أو اكثر ـ.

و هذه الأقسام الثلاثة كلّها جائزة، و يجب على الناذر الوفاء بنذره اذا قُضِيَتْ حاجته.

و قد مَدح الله تعالىٰ الامامَ عليّاً و فاطمة والحسن والحسين -صلوات الله عليهم- بقوله:

«يُوْفُونَ بِالنَّذْرِ»(١).

أيّها القارئ الكريم: إن النذر سُنَّة معروفة بين كافّة المسلمين في العالَم كلّه، وخاصّة في البلاد التي تحتضن قبور أولياء الله وعباده الصالحين.

و قد تعارف بين المسلمين النذر لله وإهداء ثوابه لأحد أولياء الله وعباده الصالحين.

حتىٰ جاء سرطان الفتنة والنفاق «ابن تيميّة» فزعم حرمة ذلك وشنَّ الهجوم على المسلمين -وخاصّة الشيعة حيث يتعارَف هذا النذر بينهم اكثر من غيرهم، نظراً لكثرة مراقد أولياء الله في بلادهم المحروسة- فاتّهمهم بالشرك والانحراف وقال:

«مَن نَذر شيئاً للنبي أو غيره من النبيّين والأولياء من أهل القبور، أو ذَبَح ذبيحة، كان كالمشركين الذين يذبحون لأوثانهم وينذرون لها، فهو عابدٌ لغير الله، فيكون بذلك كافراً»(٢).

ثم جاء محمّد بن عبدالوهّاب -بعد ثلاثة قرون تقريباً- فجعل ينهق بنهيق سَلَفه، ويُحيي بِدَعه ومفترياته.

---

(١) سورة الانسان: آية ٧.

(٢) فرقان القرآن: للعزامي ص١٣٢ نقلاً عن ابن تيميّة.

لقد جهلا ـ أو تجاهَلا ـ أنّ المقياس العامّ هو القصد والنيَّة القلبيّة فـ «الأعمال بالنيّات».

اذا كان مجرَّد العمل الظاهري دليلاً على النيَّة، فإن كثيراً من مناسك الحجّ وفرائضه تَشبه ـ في ظاهرها ـ أعمال عَبَدة الأصنام، فقد كانوا يطوفون حول أصنامهم ويُقبّلونها، ونحن نطوف حول الكعبة المشرَّفة ونُقبّل الحجَر الأسود، ونذبح الذبائح ونُقرّب القرابين في منىٰ يوم عيد الأضحىٰ، فهل كفرنا و أشركنا بالله بأداء هذه المناسك ؟!!

إن المقياس هو النيَّة القلبيّة، ولا يصحّ التسرُّع في الحُكم وإصدار الفتوىٰ لمجرَّد عملٍ ظاهري.

إن كلَّ مَن ينذر لأحدِ أولياء الله، إنما يقصد ـ في قلبه ـ النذر لله وإهداء الثواب لذلك الوليّ الصالح، ليس إلّا.

و من حُسن الحظّ أن العلماء والمفكّرين ـ من الشيعة والسُنّة ـ قد تَصدَّوا لأباطيل ابن تيميّة ونظرائه.

فهذا الخالدي يردّ على ابن تيميّة ويقول:

«إن المسألة تدور مَدار نيّات الناذرين، وانما الأعمال بالنيّات، فإنْ كان قصد الناذر الميّت نفسه والتقرّب اليه بذلك لم يجُز، قولاً واحداً، وإنْ كان قصده وجهَ الله تعالىٰ وانتفاع الأحياء ـ بوجهٍ من الوجوه ـ به وثوابه لذلك المنذور له ـ سواء عيَّن وجهاً من وجوه الانتفاع، أو أطلق القول فيه وكان هناك مايطّرد الصرف فيه في عُرف الناس، أو أقرباء الميّت، أو نحو ذلك ـ في هذه الصورة يجب

الوفاء بالنذور»(١).

ثم ذكر ما صرَّح به علماء عصره، ومن قارَب عصره حول هذه المسألة.

وقال العزامي ـ في كتاب فرقان القرآن ـ:

«... ومَن استخبر حال من يفعل ذلك من المسلمين، وَجَدهم لا يقصدون بذبائحهم ونذورهم للأموات ـ من الأنبياء والأولياء ـ إلّا الصدقة عنهم وجعْل ثوابها اليهم، وقد علموا أن إجماع أهل السُنَّة منعقد علىٰ أنَّ صدقة الأحياء نافعة للأموات، واصلة اليهم، والأحاديث في ذلك صحيحة مشهورة.

فمنها: ما صحّ عن سعد أنه سأل النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ «قال: يا نبيّ الله إن أُمّي قد افتلتت(٢) وأعلم أنها لو عاشت لتصدّقتْ، أفإن تصدَّقتُ عنها أينفعها ذلك؟

قال ـ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ـ: نعم.

فسأل النبيَّ: أيّ الصدقة أنفع يا رسول الله؟

قال: الماء.

فحفَر بئراً وقال: هذه لأمّ سعد»(٣).

لقد أخطأ محمّد بن عبدالوهّاب فادّعى أن المسلم اذا قال: هذه الصدقة للنبيّ أو للوليّ، فاللام بنفسها هي اللام الموجودة في

---

(١) صلح الاخوان: للخالدي ص١٠٢ ومابعده.

(٢) أي ماتت.

(٣) فرقان القرآن: ص١٣٣.

قولنا: «نذرتُ لله»، يُراد منها الغاية، فالعمل لله، بينما لو قال: للنبي، يريد بها الجهة التي يُصرف فيها الصَدقة من مصالح النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- في حياته ومماته.

و في هذا الصَدد يقول العزامي -بعد ذكر قصة سعد-:

«اللام في «هذه لأمّ سعد» هي اللام الداخلة على الجهة التي وُجّهتْ اليه الصَدقة، لا علىٰ المعبود المتقرَّب اليه، وهي كذلك في كلام المسلمين، فهم سَعْديُّون لا وَثَنيُّون!

وهي كاللام في قوله تعالىٰ: «إنَّمَا الصَدَقاتُ لِلْفُقَراء» لا كاللام في قوله سبحانه: «رَبِّ إنّي نَذَرتُ لكَ مافي بطني محرّراً»(١)أوفي قول القائل: صَلَّيْتُ لله وَنَذَرْتُ لله، فاذا ذَبح للنبيّ أو الوليّ أونَذرَ الشيء له فهو لا يقصد إلّا أن يتصدَّق بذلك عنه، ويجعل ثوابه اليه، فيكون من هدايا الأحياء للأموات المشروعة المثاب على إهدائها، والمسألة مبسوطة في كُتب الفقه وفي كُتب الردّ على الرجل ومَن شايعه»(٢).

و هكذا ظَهر لك -أيّها القارئ- جواز النذر للأنبياء والأولياء، من دون أن يكون فيه شائبة شِرك ، فيُثاب به الناذر إنْ كان لله وذبح المنذور باسم الله، فقول القائل «ذبحتُ للنبيّ» لا يريد أنه ذَبحه للنبي -صلّى الله عليه وآله وسلّم- بل يريد أن الثواب له، كقول القائل: ذَبحتُ للضيف، بمعنى أن النفع والفائدة له،

---

(١) سورة آل عمران: آية ٣٥.

(٢) فرقان القرآن: ص١٣٣.

فهو السبب في حصول الذبح.

و يوضّح ذلك ماروي عن ثابت بن الضحّاك قال:

«نَـذَر رجـلٌ على عـهد رسول الله ـص ـ أن ينـحـر إبـلاً بـ«بوانة» فأتىٰ رسول الله ـصلّى الله عليه [وآله] وسلّم ـ فأخبره، فقال [النبيّ]:

هل كان فيها وَثَنٌ يُعبَدُ من أوثان الجاهلية؟

قالوا: لا.

قال: فهل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟

قالوا: لا.

قال ـ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ـ للسائل: أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فَإنَّهُ لا وَفاء لِنَذْرٍ في مَعْصِيَة الله، وَلا فيما لا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ»(١).

و روي أيضاً:

«إن امرأة أتت النبيّ ـ ص ـ فقالت: يا رسول الله... إني نذرتُ أن أذبح بمكان كذا وكذا ـ مكان كان يذبح فيه أهل الجاهلية ـ.

فقال النبيّ: الصنم؟

قالت: لا.

قال: الوَثَن؟

قالت: لا.

قال: في بِنَذْرِك»(٢).

و عن ميمونة بنت كردم ان أباها قال لرسول الله ـ صلّى الله

(١) سنن أبي داود: ج٢ ص٨٠.

(٢) سنن أبي داود: ج٢ ص٨١.

عليه وآله وسلّم ـ :

«يا رسول الله إنّي نذرتُ إنْ وُلدلي ذَكَر أنْ أنحر على رأس «بُوانة» ـ في عَقَبةٍ من الثنايا ـ عدَّة من الغنم.

قال «الرواي عنها»: لا أعلم إلّا أنها قالت: خمسين.

فقال رسول الله ـ ص ـ : هل مِن الأوثان شيء؟

قال: لا.

قال: فأوفِ بما نذرتَ به لله...»(١).

أرأيت ـ أيّها القارئ ـ كيف يُكرّر النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ السؤال عن وجود الأصنام في المكان الذي تُذبح فيه الذبائح؟!

إن هذا دليل على أن النذر الحرام هو النذر للأصنام، حيث كان ذلك عادة أهل الجاهلية. كما قال تعالىٰ:

«وَما ذُبِحَ عَلَى النُصُبِ... ذٰلِكُمْ فِسْقٌ»(٢).

وكلّ من اطّلع على أحوال الزائرين للعَتبات المقدَّسة ومراقد أولياء الله الصالحين يعلم جيّداً أنهم ينذرون لله تعالىٰ ولرضاه، ويذبحون الذبائح باسمه عزّوجل، بهدف انتفاع صاحب القبر بثوابها، وانتفاع الفقراء بلحومها.

و ختاماً لهذا الفصل نذكر كلمة للخالدي ـ بعد أن ذكر ما رواه أبو داود في سُننه ـ قال:

«و أما استدلال الخوارج بهذا الحديث على عدم جواز النذر في أماكن

---

(١) سنن أبي داود: ج٢ ص٨١.

(٢) سورة المائدة: آية ٣.

الأنبياء والصالحين، زاعمين أن الأنبياء والصالحين أوثان -والعياذبالله- وأعياد مِن أعياد الجاهلية، فهومن ضَلالاتهم وخرافاتهم وتجاسُرهم على أنبياء الله وأوليائه، حتى سمَّوهم أوثانا، وهنا غاية التحقير لهم، خصوصاً الأنبياء، فإنّ مَن انتقصَهم -ولو بالكناية- يَكفُر ولا تُقبل توبتُه -في بعض الأقوال- وهؤلاء المخذلون بجهلهم يُسمّون التوسُّل بهم عبادة ويُسمُّونهم أوثانا، فلا عبرة بجهالة هؤلاء وضلالاتهم، والله أعلم»(١).

(١) صلح الاخوان: للخالدي ص١٠٩.

الفصل التاسع

تكريم مواليد أولياء الله و وَفيّاتهم

هل أن تكريم مواليد أولياء الله و وفيّاتهم بدعة؟!

إن الزمرة الوهّابيّة تدَّعي حرمة ذلك... فكأنهاتُضمر الحقد الدفين والعداء البغيض لأولياء الله وقادة الاسلام، حيث إنها تمنع من إقامة الاجتماعات في مواليدهم ووفيّاتهم.

يقول الوهّابي «محمّد حامد فقي» رئيس جماعة «انصارالسُنّة المحمّدية» -في حواشيه علىٰ كتاب الفتح المجيد-:

«الذكريات التي ملأت البلاد باسم الأولياء هي نوعٌ من العبادة لهم وتعظيمهم»(١).

إن العلّة الأساسية في كلّ هذه الانحرافات هي أن الوهّابيّين

---

(١) الفتح المجيد: ص١٥٤. في هذه الأيام التي أنشغل فيها بتأليف هذا الكتاب، يحتفل المسلمون -في كافة البلاد الاسلامية- بميلاد خاتم الأنبياء ومنقذ البشرية النبيّ محمّد -صلّى الله عليه وآله وسلّم- وقد أفتىٰ مُفتي آل سعود «ابن باز» بحرمة الاحتفال بهذه المناسبة الكريمة واعتبرها بدعة، ولكن هذا المفتي نفسه خاطب الملك فيصل -في فترة حكومته- بـ«أميرالمؤمنين» ممّا أثار السخَط والاشمئزار في الأوساط كلّها، حتىٰ أن الملك نفسَه أعرب عن عدم استحقاقه لهذا اللقب.

لم يُحدِّدوا معنىٰ «التوحيد» و «الشِرك » و «العبادة» حتى الآن، ولهذا فهم يعتبرون كلّ تكريم لأولياء الله عبادة لهم و شركاً بالله، وقد قرأت أن المؤلّف الوهّابيّ خَبَط خبطة شعواء فقَرَن بين كلمتي «العبادة» و «التعظيم» وذكرهما بأزاء الآخر، ظنّاً منه أن المعنىٰ فيهما واحد.

و إننا سوف نتحدّث عن العبادة ومفهومها ـ في فصلٍ قادم ـ وسنبرهن على أن كلّ تكريم وتعظيم لأولياء الله ليس عبادة لهم أبداً. والحديث الآن حول جواز تكريم مواليد الأولياء و وفياتهم، على ضوء القرآن الكريم.

ممّا لا شكّ فيه أن القرآن الحكيم ذكر جمعاً من الأنبياء والأولياء بكلمات المدح والثناء والتجليل والاحترام فمثلا:

١ ـ يقول بالنسبة الى النبيّ زكريا ويحيىٰ وغيرهما:

«إنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ في الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعينَ»(١).

فاذا أُقيم حفل تكريمي لهؤلاء الأنبياء، ووقف خطيب يتحدّث عنهم بمثل ما جاء في القرآن الكريم من كلمات المدح والثناء لهم، وذكرهم بالتجليل والاحترام،.. فهل ارتكب خطيئة بذلك، سوىٰ أنه اقتدىٰ بالقرآن الكريم؟!

٢ ـ و يقول بالنسبة الى أهل البيت ـ عليهم السّلام ـ :

«وَيُطْعِمُونَ الطَعامَ عَلىٰ حُبِّهِ مِسْكيناً وَيَتيماً وَآسيراً»(٢).

(١) سورة الأنبياء: آية ٩.
(٢) سورة الانسان: آية ٨.

فاذا اجتمع شيعة الامام عليّ أميرالمؤمنين ـعليه السّلام ـ في يوم ميلاده الشريف، وقال خطيبهم: إنَّ هذا الامام هو من اولئك الذين قدَّموا طعامهم للمسكين واليتيم والأسير، فهل هذا يعني أنهم عَبدوه؟!

و هكذا الحال بالنسبة الى ميلاد رسول الله ـصلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فاذا أقمنا احتفالاً عظيماً يوم ميلاده السعيد وتحدَّثنا فيه عن الآيات القرآنيّة التي امتدحت النبي ـصلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أو ترجمناها من اللغة العربية الى غيرها ـحسب ما يقتضيه ذلك الحفل ـ أو ذكرنا معنىٰ تلك الآيات في قوالب شِعريَّة، أو ماشابه ذلك، فلماذا نكون عاصين بهذا العمل؟!!

إن الوهّابيّين هم أعداء تكريم الأنبياء والأولياء، ويُلبسون عداءهم هذا بلباس الدين فيقولون: إن التكريم بدعة، منعاً من إقامته بين المسلمين.

أيّها القارئ الكريم: إن الموضوع الذي تُثيره الوهّابيّة الشاذّة وتهرِّج ضدّه في أبواقها الدعائية هو أن الاحتفال بذكرىٰ الأولياء ـبما أنه يُقام باسم الاسلام ـ يجب أن يُقرّه الاسلام بنصٍّ خاصّ أو عامّ، وإلّا فهو بدعة وحرام.

و الجواب على هذا واضح جدّاً، إذ أن الآيات القرآنية التي تدعونا الىٰ ضرورة تكريم النبي ـصلّى الله عليه وآله وسلّم ـ كافية في الجواز، وأن هذه الاحتفالات والمراسيم لا تقام إلّا «تكريماً» للأنبياء والأولياء فقط.

فالهدف من هذه المراسيم والاحتفالات ـ التي تُزاولها كافّة الشعوب في العالَم ـ ليس إلّا التكريم والتقدير للشخصيّات البارزة، وأن هذه الاحتفالات متداولة لدىٰ كافّة الشعوب الاسلامية، باستثناء الشرذمة «النَجدية» المعقّدة فقط، فلو كان هذا العمل بدعة وظاهرة جديدة ومخالفاً للشريعة الاسلامية لما كان علماء الاسلام ـ في الأقطار الاسلامية كلّها ـ يقيمون بأنفسهم هذه الاحتفالات ويشتركون فيها بإلقاء الكلمات والقصائد، ممّا يزيد الاحتفال بهجة وحيويَّة وحبوراً.

القرآن وتكريم الأنبياء و الأولياء

و الآن نذكر بعض الأدلّة من القرآن الكريم على جواز تكريم الأنبياء والأولياء فيمايلي:

الآية الاولىٰ:

إن القرآن الكريم يُشيد بجماعةٍ كرَّمت النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فيقول:

«فَالَّذينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»(١).

إن الكلمات التي وردت في هذه الآية هي:

١ ـ «آمَنُوا به».

(١) سورة الأعراف: آية ١٥٧.

٢ ـ «عَزَّرُوهُ».

٣ ـ «نَصَرُوهُ».

٤ ـ «اتَّبَعُوا النُّورَ».

هل يحتمل أحد أن تكون هذه الكلمات والأوصاف خاصّة بزمن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ؟!

بالتأكيد: لا.

و مع انتفاء هذا الاحتمال قطعاً، تكون كلمة «عزّروه» ـ التي هي بمعنىٰ التكريم والتعظيم(١) ـ عامّة لحياة النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ و بعد وفاته، فالله تعالىٰ يريد أن يكون حبيبه المصطفىٰ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ معظّماً مكرّماً حتى الأبد.

و نتساءل: أليست إقامة الاحتفالات في يوم ميلاد النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ و بعثته، وإلقاء الخُطَب والقصائد، مصداقاً واضحاً لقوله تعالىٰ: «عزّروه» ؟!

يا للعجب!! إن الوهّابيّين يُعظّمون شخصيّاتهم وأُمراءهم اكبر تعظيم، تعظيماً يَعتبرون جزء منه بدعة وشركاً اذا كان للنبيّ أو لمنبره ومحرابه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ !!

إن الوهّابيّة ـ بهذه العقائد الجافّة ـ تُشوّه سمعة الاسلام أمام الرأي العامّ العالمي، وتُعرّفه ديناً عارياً عن كلّ عاطفة، وفاقداً للمشاعر الانسانية، وناقصاً عن كلّ تكريم واحترام، ورافضاً لتكريم عظمائه و قادته، و بهذا تُنفِّر الناسَ من الاسلام و تتركهم

(١) راجع كتاب مفردات القرآن: للراغب، مادّة: عزر.

في رفضٍ واشمئزازمنه.

تماماً... بعكس الاسلام الذي جعله الله ديناً سهلاً سمحاً يتجاوب مع الفطرة البشرية ويتماشىٰ مع العاطفة الانسانية، ويجذب -بجماله وروعته- الشعوب والأُمم إلى اعتناقه.

الآية الثانية:

إن الزمرة الوهّابيّة -التي تُعارض كلّ نوع من أنواع العزاء والبكاء على الشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله- ماذا تقول بشأن ماحصل للنبيّ يعقوب -عليه السّلام-؟!

اذا كان هنا النبيّ الكريم اليوم حيّاً يعيش بين أهالي «نجد» وأتباع محمّد بن عبدالوهّاب، كيف كانوا يحكمون عليه؟!

لقد كان يعقوب -عليه السّلام- يبكي على فراق ولده يوسف ليلاً ونهاراً، ويستفسر عنه ويترنّم باسمه حتىٰ: «ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ»(١).

و بالرغم من كلّ ما كان يعاني منه يعقوب من ابيضاض العين وحُزن القلب وألم الفراق، فإنه لم ينسَ ابنه يوسف، بل كان يزداد شوقاً اليه كلّما قرب الوصال واللقاء به، حتىٰ أنه شمَّ ريح يوسف من مسافة بعيدة.

قال تعالىٰ عن لسانه:

«إنّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونَ»(٢).

---

(١) سورة يوسف: آية ٨٤. (٢) سورة يوسف: آية ٩٤.

فكيف تكون هذه المحبّة والمودّة والتعبير عن العلاقة الشديدة بالمحبوب «يوسف» في حياته عملاً صحيحاً ومتّفقاً مع توحيد الله تعالى، ولكنها تنقلب بدعة وحراماً بعد وفاته؟!!

مع العلم أن فراق العزيز وموته يترك القلب في نيران الأسىٰ والحزن والألم بصورة اكثر من فراقه في حياته.

و اليوم... اذا اجتمع المؤمنون ـ الذين يشبهون يعقوب في حُزنه ـ في عزاء وليّ من أولياء الله ـ كالأئمة الطاهرين الذين يَشبهون يوسف في مصابه، بل مُصابهم أشدّ منه كثيراً ـ وأحييٰ المؤمنون ذِكر ذلك الوليّ الصالح، بالكلمات والخُطَب والقصائد، وردّدوا سيرته وخُلُقه الكريم وخصاله الحميدة وسلوكه الطيّب، ثم ذرفوا دموع العاطفة والحنان عليه... فهل معنىٰ هذا كلّه أنهم عبدوا ذلك الولي؟!!

قليلاً من التفكّر والموضوعية!

قليلاً من الفهم والمعرفة!

الآية الثالثة:

قال تعالىٰ:

«قُلْ لا اَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أجراً اِلَّا الْمَوَدَّةَ في القُرْبىٰ»(١).

ممّا لا شكّ فيه أن مودّة ذي القربىٰ هي إحدىٰ الفرائض

(١) سورة الشورىٰ: آية ٢٣.

الدينية التي نصَّ عليها القرآن بكلّ صراحة(١) فلو أراد شخص أن يؤدّي هذا الواجب الديني -بعد أربعة عشر قرناً- فماذا يجب أن يفعل والحال هذه؟!

أليس المطلوب أن «يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم»؟!

فلو أقام مراسم خاصّة أشاد فيها بشخصية ذلك العظيم وحياته المتلألأة وفضائله الكريمة وتضحياته الجبّارة، واستعرض جانباً من آلامه وماجرىٰ عليه من المصاعب والمصائب... فهل ارتكب حراماً بعمله هذا؟ أم أنه أحيىٰ ذِكر ذلك العظيم وأدّى «المودَّة» تجاهه؟!!

ولو أن الانسان -لمزيد المودَّة في القربىٰ- تفقَّد مَن ينتسب الى ذوي القربىٰ، وقام بزيارة قبور ذي القربىٰ وأقام تلك المجالس عند مراقدهم... ألا يحكم العقلاء وأهل البصيرة والدين بأنه يؤدّي فريضة «المودَّة في القربىٰ»؟!

إلّا أنْ يقول الوهّابيّون: إن الواجب هو كتمان المودَّة في النفوس وعدم إبرازها بأيّ وجه ممّا هو ثابت البطلان!.

لقد شهد عصر النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- وما بعده من العصور التي عاشت تغييراً في العقائد وتحوّلاً في الأفكار -شهد إقبالاً عظيماً من الشعوب والأُمم المختلفة تجاه الاسلام، حتىٰ قال تعالىٰ:

---

(١) لقد وردت عشرات الأحاديث عن النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- في أن «القربىٰ» في الآية هم أهل البيت -عليهم السّلام-.

«وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً»(١).

و كان الاسلام يحتضنهم ويكتفي منهم -في البداية- بالشهادتين، مع محافظتهم علىٰ ثقافتهم وآدابهم وتقاليدهم، ولم يعمل النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- ومن جاء من بعده، على فرض الرقابة على عادات الشعوب وتقاليدها، وصَهْرها في بوتقةٍ واحدة.

إن احترام كبار الشخصيّات وإقامة مجالس العزاء في ذكريات وفاتهم، والإجتماع عند مراقدهم، وإظهار الحبّ والمودّة لهم... كلّ ذلك كان ولايزال أمراً متداولاً لدىٰ كافّة الشعوب في العالمَ كلّه.

و في عصرنا الحاضر.. ترىٰ الشعوب الشرقية والغربية تقف ساعات طويله في الانتظار لزيارة الأجساد المحنّطة لزعمائها وقبور قادتها القدامىٰ، ويذرفون دموع الشوق بجوارها، ويعتبرون ذلك نوعاً من الاحترام والتقدير.

و لم يُعهد من النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- أن يجري تحقيقاً عن عقائد الناس وآدابهم المعروفة -أولاً- ثم يوافق على دخولهم في الاسلام، بل كان يكتفي بتشهّدهم للشهادتين، ولو كانت هذه العادات محرَّمة وعبادة لتلك الشخصيّات لاشترط عليهم البراءة والتخلّي من كلّ ما لديهم من عادات وتقاليد، ثم الدخول في الاسلام، ولم يكن الأمر كذلك.

(١) سورة النصر: آية ٣.

الآية الرابعة:

إن النبيّ عيسىٰ -عليه السّلام- سأل من ربّه أن يُنزل عليه مائدة من السماء، ويَعتبر يوم نزولها عيداً له ولأصحابه.

يقول القرآن الكريم -عن لسان عيسىٰ-:

«رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماء تَكُونُ لَنا عيداً لأَوّلِنا وَآخِرِنا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرّازِقِينَ»(١).

فهل -ياترىٰ- أن شخصيّة الرسول -صلّى الله عليه وآله وسلّم- أقلّ شأناً من تلك المائدة التي اتخذ المسيح يوم نزولها عيداً؟!!

اذا كان اتخاذ ذلك اليوم عيداً لكون المائدة آية إلٰهية ومعجزة سماوية... أليس نبيّ الاسلام اكبر آية إلٰهية ومعجزة القرون والعصور؟!

تَبّاً و بُعداً لقوم يوافقون على اتخاذ يوم نزول المائدة السماوية -التي لم يكن لها شأن سوىٰ إشباع البطون الجائعة- عيداً، ولكنهم يُهملون يوم نزول القرآن على رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- ويوم مبعثه الشريف، بل ويعتبرون الاحتفال به بدعة وحراماً!!

الآية الخامسة:

قال سبحانه:

«وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ»(٢).

---

(١) سورة المائدة: آية ١١٤.

(٢) سورة الانشراح: آية ٧.

إن إقامة المجالس و الاحتفالات هي نوع من رفْع الذِكر، والمسلمون لا يهدفون من الاحتفال بميلاد النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- ومبعثه وغير ذلك من المناسبات الدينية سوىٰ رفع ذِكره وذِكر أهل بيته الأطهار -عليهم السّلام-.

فلماذا لا نقتدي بالقرآن؟!.

أليس القرآن قدوة واسوة لنا؟!

هذا... وليس لأحدٍ أن يقول: «إن رفع ذِكره -صلّى الله عليه وآله وسلّم- خاصّ بالله سبحانه ولا يشمل غيره» لأن ذلك يشبه أن يقول: إن نصر النبيّ خاصّ بالله سبحانه ولا يجوز لأحدٍ من المسلمين أن ينصره وقد قال تعالىٰ:

«وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزيزاً»(١).

ولعلّ الهدف من هذه الآيات هودعوة المسلمين الى نصرالنبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- وتخليدذكراه وإحياء اسمه ورسمه.

التناقض بين قول الوهّابيّة وعملها

والعجب من هؤلاء الوهّابيّين... كيف يُحرّمون الاحتفال بالنبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- وبيوم ميلاده المبارك، ذلك النبيّ الذي أسدىٰ الى البشرية عامّة أعظم العطاء الزاخر الدائم، ويعدُّون الاحتفاء به والاحتفال بميلاده شركاً، ولكنهم يقيمون الاحتفالات الضخمة تشييداً لرجالهم وأُمرائهم، ويُنفقون -في هذا

(١) سورة الفتح: آية ٣.

السبيل ـ ملايين الريالات، تقديراً لخدماتهم ـ كما يزعمون ـ.

انظر الى العدد ١٠٢ من مجلة الفيصل ـ التي تصدر في طباعة أنيقة جداً في السعودية ـ فهو يحتوي على تقرير مفصّل عن الاحتفالات الكبرىٰ التي أقامتها سلطات الاحتلال السعودي بمناسبة عودة «الأمير سلطان» من الرحلة الفضائية في مركبة «ديسكفري».

و يحتوي هذا العدد على صُوَر كثيرة تُنبيء عن حجم المبالغ الطائلة التي صُرفت في تلك الاحتفالات، وقد نُشرت الكلمات والقصائد التي أُلقيت في تلك الاحتفالات، وتقرأ فيها المدح المفرط والثناء المسرف لآل سعود عامّة وللأمير خاصّة!!

بالله عليك ـ أيها القارئ ـ هل يستحقّ أمير ـ لم يفعل شيئاً سوىٰ أنه رافقَ مجموعة من الأجانب الغربيّين في رحلة فضائية أعدّها الأمريكيّون ـ هل يستحقّ هذا الاحتفاء والتكريم وصرف الأموال الطائلة، وهدر الطاقات والنشاط فيما لا فائدة فيه... ولا يستحقّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ الذي أخرج الناس من الظلمات الى النور، وحلّق بهم في سماء الكمالات المعنوية والفضائل النفسية والصفات العالية وأنقذهم من كلّ سوء وانحطاط وضلال وضياع وانحراف.

أَلا يستحقّ رسولُ الاسلام أن تُخلّد ذكرىٰ مولده الشريف، وتُعدَّد مناقبه وفضائله وإنجازاته العظيمة وعطاؤه الزاخر وخدماته الجليلة وجهاده وجهوده وغير ذلك، حتىٰ تعرف الأجيال ـ على امتدادها ـ ما أسداه هذا النبيّ العظيم من خدمة، وما قدّمه من

عطاء، وما تحمّل من عناء وعذاب في سبيل هداية البشرية؟!

و هل التكريم إلّا الاحتفاء والاحتفال به ونشر قِيَمِهِ الفاضلة والحثّ على الاقتداء به والأخذ بهديه والمحافظة على آثاره؟!

و كيف لا يجوز مدح النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- وإلقاء القصائد في فضله وعظمته، ويجوز مدح آل سعود والأُمراء الفسقة الذين ليسوا إلّا وبالاً على المجتمع وضرراً على الأُمّة؟!

ما هذا التناقض بين القول والعمل الذي يقع فيه الوهّابيّون دائماً؟!

لماذا يمنعون إقامة الاحتفالات بمولد النبيّ الأكرم، بحجة أنه لم يَرِد في الشرع الاسلامي، ولكنهم يقيمون أعظم الاحتفالات والمهرجانات لرجالهم السياسيّين؟! قال تعالىٰ:

«وَ إذا لَقُوا الَّذينَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا، وَ إذا خَلَوْا اِلىٰ شَياطينِهِمْ قالُوا إنّا مَعَكُمْ إنَّما نَحنُ مُسْتَهْزِؤُنَ. اَللهُ يَسْتَهزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ في طُغْيانِهِم يَعْمَهُونَ»(١).

إن المسلمين درجوا من قديم الأيّام على الاحتفال بميلاد النبي، يقول «الديار بكري».

«... ولا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده عليه السّلام و يعملون الولائم، ويتصدّقون في لياليه بأنواع الصدقات ويظهرون السرور، و يزيدون في المبرّات و يعتنون بقراءة مولده الكريم و يظهر عليهم من كراماته كلّ فضل عميم»(٢).

---

(١) سورة البقرة: آية ١٤ و ١٥.

(٢) تاريخ الخميس: ج ١ ص ٢٢٣.

الفصل العاشر

التبرُّك والاستشفاء بآثار أولياء الله

تعتقد الوهّابيّة بأن التبرّك بآثار أولياء الله شِركٌ بالله، وتعتبر الذي يُقبّل محراب رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- ومنبره مشركاً وإن لم يأتِ بذلك بنيَّة العبادة، بل كانت المحبّة والمودَّة تجاه النبيّ الكريم هي الدافع له الى التبرّك والاستشفاء باثاره -صلّى الله عليه وآله وسلّم-.

إن المنع من التبرّك بآثار الرسول الأكرم وتقبيل ضريحه المقدّس ومنبره الشريف هو من أشدّ الإجراءات التي يتّخذها الوهّابيّون ضدّ المسلمين، وقد استخدموا مجموعة من الشرطة الإرهابيّين باسم «الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر!!» ووزَّعوهم في مسجد رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- للحيلولة دون تقبيل ضريحه المقدّس ومنبره الشريف ومحراب مسجده المبارك ، وهؤلاء الوهّابيّون يواجهون المسلمين الحُجّاج بكلّ خشونة وصلافة ويمنعونهم عن التبرّك والتقبيل، وطالما أمسكوا بأيديهم العصا أو الأسلاك الغليظة، وطالما أراقوا -في هذا السبيل- دماء الأبرياء

وهتكوا الأعراض والنواميس في حرم النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ زعماً منهم أن التبرّك والتقبيل عبادة لصاحب القبر.

إنّ هؤلاء الغرباء عن الاسلام أخطأوا في فهم معنى العبادة ومفهومها، ولهذا تاهوا في متاهات الضلال والباطل، فاعتبروا كلّ احترام للميّت عبادة له، مع العلم أن تقبيل الضريح المقدّس والتبرّك بالآثار النبوية إنما هو في سبيل الله سبحانه، لأن المسلمين لا يكرّمون النبيّ الأكرم ولا يتبرّكون به وبآثاره إلّا لأنه رسولُ الله ونبيُّه الحبيب المصطفىٰ، الذي شرَّفه الله على كلّ الأنبياء والمرسلين وفضَّله على الخلق أجمعين، فكلّ تكريم وتعظيم لأولياء الله إنما هو تعظيم لله سبحانه، وليست حقيقة التوحيد إلّا أن يكون كلّ شيء لله ومن أجله وفي سبيله، وعند ذلك يكون الله هو المبدأ كما يكون هو المنتهىٰ.

و سوف نتحدّث ـ في الفصل القادم ـ عن العبادة ومفهومها بالضبط والتحقيق.

أمّا الآن فالبحث عن التبرّك بآثار الأولياء، فيجب أن نَعرض المسألة على كتاب الله وسُنّة رسوله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ كي يتجلّىٰ الحقّ بأجلىٰ مظاهره.

القرآن و التبرُّك

نكتفي من القرآن الكريم بآية واحدة، وهي عن لسان النبيّ يوسف ـ عليه السّلام ـ :

«إذْهَبُوا بِقَميصي هٰذا فَأَلْقُوهُ عَلىٰ وَجْهِ أَبي يَأتِ بَصيراً»(١).

إن النبيّ يوسف أرسل قميصه الى أبيه، وقال لإخوانه: إذهبوا بقميصي هذا وألقوه على وجهه حتىٰ يعودُ اليه بَصَره.

يقول تعالىٰ:

«فَلَمّا أَنْ جاءَ الْبَشيرُ أَلْقاهُ عَلىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصيراً»(٢).

فهذه الآية صريحة بجواز التبرّك بآثار الأنبياء والأولياء حتىٰ لنبيٍّ آخر، فهذا النبيّ يعقوب يتبرّك بقميص النبيّ يوسف -عليهما السّلام- ومن الواضح أن الشفاء من الله سبحانه، فهو المؤثّر في الأشياء، إلّا أن التبرّك بالقميص صار وسيلة للشفاء كما يكون الدواء كذلك بإذن الله تعالىٰ.

ياترى... اذا كان تبرّك النبيّ يعقوب بقميص ابنه يوسف يقع أَمام النجديّين وأتباع محمّد بن عبدالوهّاب ماذا كان يحكمون عليه؟ بالكفر؟ بالشرك ؟ بالذنب؟ وهو النبيّ المعصوم عن الخطأ والاشتباه!

إن تبرّك المسلمين بضريح رسول الله وآله الطاهرين وبآثارهم -صلّى الله عليه وعليهم أجمعين- لا يختلف عن تبرّك النبيّ يعقوب بقميص ابنه يوسف -عليهما السّلام-.

التبرُّك وسيرة المسلمين

إن نظرة خاطفة في سيرة المسلمين -بدءً من الصحابة والى هذا

---

(١) سورة يوسف: آية ٩٢.
(٢) سورة يوسف: آية ٩٣.

اليوم - تكشف لنا عن السُنَّة المتَّبعة لديهم تجاه التبرّك بالنبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلّم - وآثاره الشريفة طوال التاريخ، وفيما يلي نذكر نماذج من ذلك، مع مراعاة الاختصار:

١ - إن فاطمة الزهراء سيّدة نساء العالمين بنت رسول الله حضرت عند قبر أبيها - صلّى الله عليه وآله وسلّم - وأخذت قبضة من تراب القبر تشمّه وتبكي وتقول:

ما ذا على مَن شمَّ تربةَ احمدٍ
ألّا يشمَّ مدىٰ الزمان غَواليا
صُبَّتْ عليَّ مصائب لو أنها
صُبَّت على الأيام صِرنَ لياليا (١)

إنّ هذا التصرُّف من السيّدة الزهراء المعصومة لا يدلّ إلّا على جواز التبرّك بقبر رسول الله وتربته الطاهرة.

٢ - إن بلال - مؤذّن رسول الله - أقام في الشام في عهد عمر بن الخطّاب فرأىٰ في منامه النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلّم - وهو يقول له:

«ما هذه الجفوة يا بلال؟ أما آن لك أن تزورني يا بلال؟»

فانتبه حزيناً وجلاً خائفاً، فركب راحلته وقصد المدينة فأتىٰ قبر النبيّ - صلّى الله عليه وآله وسلّم - فجعل يبكي عنده ويُمرّغ وجهه عليه، فأقبل الحسن والحسين - عليهما السّلام - فجعل يضمّهما

(١) لقد ذكر هذه القضية جمع كثير من المؤرّخين، منهم السمهودي في وفاء الوفا: ج٢ ص٤٤٤، والخالدي في صلح الاخوان: ص٥٧ وغيرهما.

ويقبّلهما... الى آخر الخبر(١).

٣ ـ قال ابن حجر:

«كلّ مولودٍ وُلد في حياة النبيّ ـ ص ـ يُحكم بأنه رآه، وذلك لتوفّر دواعي إحضار الأنصار أولادهم عند النبيّ ـ ص ـ للتحنيك والتبرّك، حتى قيل: لمّا افتُتحت مكّة جعل أهل مكّة يأتون الى النبيّ بصبيانهم ليمسح على رؤوسُهم ويدعوهم بالبركة»(٢).

و في ذلك يقول مؤلّف كتاب «تبرّك الصحابة».

«لا شكّ أن آثار رسول الله ـ صفوة خلق الله وأفضل النبيّين ـ أثبتُ وجوداً وأشهر ذِكراً، فهي أولىٰ بذلك «التبرّك» وأحرىٰ، وقد شهده الجمّ الغفير من الصحابة وأجمعوا على التبرّك بها، والاهتمام بجمعها، وهم الهداة المهديّون والقدوة الصالحون، فتبرّكوا بشَعراته وبفضل وضوئه، وبعَرَقة، وبثيابه، وبمسّ جسده الشريف، وبغير ذلك مما عُرف من آثاره الشريفة التي صحّت به الأخبار عن الأخيار»(٣).

ويكفي في ذلك ما ذكره مسلم في صحيحه:

«إن رسول الله ـ ص ـ كان يؤتىٰ اليه بالصبيان فيُبرّك عليهم ويُحنّكهم»(٤).

---

(١) أُسد الغابة: لابن الأثير ج١ ص٢٨.

(٢) الاصابة: ج٣ ص٦٣١.

(٣) تبرّك الصحابة: ص٥.

(٤) صحيح مسلم: ج٣ ص١٦٩١.

٤ ـ وقد كان الصحابة يتبرّكون بفضل وضوئه وغسله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فقد روىٰ البخاري:

«خرج علينا رسول الله بالهاجرة، فأُتي بوضوء فتوضّأ، فجعل الناس يأخذون من فضل وضوئه ويتمسّحون به»(١).

وقد وردت في ذلك روايات مَلأت الصحاح والمسانيد.

٥ ـ وكان الصحابة يتبرّكون بشعره ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فقد روىٰ أنس:

«أن رسول الله لمّا حَلق رأسه كان أبو طلحة أول من أخذ شَعره»(٢).

إن قوله: «كان أبو طلحة أول من أخذ شَعره» يدلّ على أن الصحابة تسابقوا الى التبرّك بشَعره المبارك، وكان أبو طلحة أول من أخذ من شَعره ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ.

وروي أيضاً:

«أن رسول الله أتىٰ منىٰ، فأتىٰ الجمرة فرماها، ثم أتىٰ منزله بمنىٰ، ثم قال للحلّاق: خُذ، وأشار الى جانبه الأيمن ثم الأيسر، ثم جعل يُعطيه الناس»(٣).

٦ ـ كما كانوا يتبرّكون بالإناء الذي شرب منه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ:

---

(١) صحيح البخاري: ج١ ص٥٩، فتح الباري: ج١ ص٢٥٦.

(٢) صحيح البخاري: ج١ ص٥٤.

(٣) صحيح مسلم: ج٣ ص٩٤٧.

«قال أبو بردة: قال لي عبدالله بن سلام: ألا اسقيك في قَدَحٍ شرب النبيّ فيه»(١).

ويُفهم من الرواية أن عبدالله بن سلام كان يحتفظ بذلك القَدَح، لكونه اكتسب البركة بشُرب رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فيه.

٧ ـ وكانوا يتبرّكون بيديه الشريفتين:

«عن أبي جحيفة قال: خرج رسول الله بالهاجرة الى البطحاء، فتوضّأ ثم صلّى الظهر ركعتين والعصر ركعتين...

الى أن قال: وقام الناس فجعلوا يأخذون يديه، فيمسحون بها وجوهَهم.

قال: فأخذتُ بيده فوضعتُها على وجهي، فاذا هي أبرد من الثلج وأطيب رائحة من المسك»(٢).

٨ ـ وكانوا يتبرّكون بمنبره الشريف:

«عن إبراهيم بن عبدالرحمٰن بن عبدالقارئ أنه نظر الى ابن عمر وقد وضع يده على مقعد المنبر حيث كان النبيّ يجلس عليه، ثم وضعها على وجهه»(٣).

٩ ـ كما كانوا يستشفون بقبره الشريف:

«روي عن أميرالمؤمنين عليّ [عليه السّلام] أنه قال: إن أعرابياً قَدِم

---

(١) صحيح البخاري: ج٧ ص١٤٧، فتح الباري: ج١٠ ص٨٥.

(٢) صحيح البخاري: ج٤ ص١٨٨.

(٣) الطبقات الكبرىٰ: ج١ القسم الثاني ص١٣.

علينا بعد ما دفنّا رسول الله ـ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ـ بثلاثة أيام فرمىٰ بنفسه على قبر النبيّ، وحثا من ترابه على رأسه وقال: يا رسول الله قلتَ فسمِعنا قولك، ووَعيتَ عن الله سبحانه فوَعينا عنك، وكان فيما أنزل الله عليك: «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك ...» وقد ظلمتُ وجئتك تستغفرلي. فنودي من القبر: قد غُفر لك»(١).

والخلاصة: إن من يراجع كتب الصحاح والسنن والمسانيد والتواريخ، يرىٰ أن الصحابة والتابعين كانوا يتبرّكون بكلّ ما يرتبط بالنبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ويستشفعون بقبره، بوضع الخدّ عليه، وشمّ تربته، والبكاء عنده، بل والتبرّك بعصاه وملابسه، والصلاة في الأماكن التي صلّىٰ فيها النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أو مشىٰ فيها.

و هذه الروايات على حدٍّ من الكثرة والتواتر بحيث يستحيل عند العقل أن تكون موضوعة ومجعولة، وكيف تكون كذلك وقد رواها الشيخان: البخاري ومسلم، وغيرهما من أعلام الحديث.

و قد قام بجمع هذه الروايات و توضيحها مع ذكر مصادرها الفاضلان المحقّقان:

الاستاذ الشيخ محمّد طاهر مكّي في كتابه «تبرّك الصحابة بآثار رسول الله» والاستاذ الفذّ الشيخ علي الأحمدي في كتابه القيّم «التبرُّك» وقد استقصىٰ فيه المؤلّف كلَّ ما ورد حول التبرّك، والكتاب يُعتبر من حسنات العصر.

---

(١) كنز العمال: ج٢ ص٢٤٨، وفاء الوفا: ج٢ ص١٣٦١.

فماذا تقول الوهّابيّة تجاه هذه الأحاديث المتواترة لفظاً ومعنىً؟!

وما هو موقفهم من هذه الحقيقة الساطعة؟!

ولماذا هذه الضجّة العمياء التي تثيرها حول التبرّك بضريح رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- والذي جرت عليه سيرة السلَف من الصحابة والتابعين، دون أن يَرَوا أيّ استنكار أو استقباح أومنع أو تحريم من النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- أو مَن حوله من الصحابة؟!

ولماذا لا يتركون المسلمين ليُقبّلوا ضريح رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- ويتبرّكوا به، ويُعبّروا عن مشاعرهم وعواطفهم تجاه نبيّ الله؟!

أفلا يعلمون أن النهي عن التبرّك بالضريح النبويّ الطاهر وآثار رسول الله كان من دأب الأُمويّين لاسيّما مروان الذي لعنه رسولُ الله؟!

١٠ - تعالَ واقرأ ما يرويه الحاكم في المستدرك عن داود بن صالح، قال:

«أقبل مروان يوماً فوجد رجلاً واضعاً وجهه على القبر، فأخذ برقبته ثم قال: هل تدري ما تصنع؟

فأقبل عليه فاذا هو أبو أيّوب الأنصاري فقال: نَعم إني لم آت الحَجَر، إنما جئتُ رسولَ الله ولم آت الحَجَر، سمعتُ رسولَ الله يقول: لا تبكوا على الدين اذا وَلِيَه أهلُه، ولكن ابكوا على الدين اذا وَلِيَه غيرُ

أهله»(١).

قال المرحوم الشيخ الأميني:

«إنّ هذا الحديث يُعطينا خُبراً بأن المنع عن التوسّل بالقبور الطاهرة إنما هو من بدَع الأمويّين وضلالاتهم، منذ عهد الصحابة، ولم تسمع أُذُن الدنيا قط صحابيّاً يُنكر ذلك، غيرَ-وليدُ بيت أُميّة-مروان الغاشم!!

«نَعم... «الثور يَحمي أنفه بِرَوقه»(٢).

نَعم... «بعلّة الورشان يأكل رطب الوشان».

نعم... لِبني أُميّة -عامّة- ولمروان- خاصّة- ضغينة علىٰ رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- منذ يوم لم يُبقِ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- في الأُسرة الأُمويّة حرمة إلاّ هتكها، ولا ناموساً إلا مزّقه، ولا ركناً إلا أباده، وذلك بوقيعته -صلّى الله عليه وآله وسلّم- فيهم وهو لا ينطق عن الهوىٰ إنْ هو إلا وحيٌ يوحىٰ علّمه شديدُ القوىٰ، فقد صحّ عنه -صلّى الله عليه وآله وسلّم- قوله: «اذا بلغتْ بنو أُميّة أربعين، إتّخذوا عبادَ الله خولا، ومالَ الله نحلا، وكتاب الله دَغَلا»(٣).

---

(١) مستدرك الصحيحين: للحاكم ج٤ ص٥١٥.

(٢) الرَوق: القرن، وهنا مَثَلٌ يُضرب لمن يُدافع عن شخصيته وعرضه.

(٣) الغدير: ج٥ ص ١٢٩ - ١٣٠.

وترى أن أبا أيّوب الأنصاري يردّ على مروان ـ لـمّا قال له: هل تدري ما تصنع؟ ـ بقوله: نعم إني لم آتِ الحجَر، انما جئت رسول الله ولم آتِ الحجَر..

أي: إن الهدف من التوسّل و التبرّك هو رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ الذي نعتقد بعدم الفرق بين حياته ومماته ـ من هذه الجهة ـ وإلّا فالتراب والحجَر لا قيمة لهما، إلّا أن الحجر والتراب حولَ قبر رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قد اكتسبا القيمة والشرف بذلك.

أيّها القارئ الكريم: إن البخاريّ قد عقد في صحيحه ـ الذي يُعتبر أصحّ الكتب عند أهل السُنّة ـ باباً سمّاه: باب ما ذُكر من درع النبيّ ـ ص ـ وعصاه وسيفه وقَدَحه وخاتمه وما استعمل الخلفاء بعده من ذلك ـ ممّا لم يُذكر قسمته ـ ومن شَعره ونعله وآنيته مما يتبرّك أصحابه وغيرهم بعد وفاته(١).

فاذا وقف الوهّابيّ على هذه الأحاديث الهائلة ـ التي تجاوزت المائة ـ فلا مناص له من قبول الحقّ والاعتراف به إن كان ممّن يستمع القول فيتّبع أحسنه، وإلّا فإن يوم الفصل كان ميقاتاً.

---

(١) صحيح البخاري: ج٤ ص ٨٢ المطبوع سنة ١٣١٤هـ.

الفصل الحادي عشر

التوحيد في العبادة

لقد كانت عبادة الله وحده ـ لا عبادة غيره منفرداً أو مشتركاً ـ أساس دعوة الأنبياء ـ عليهم السّلام ـ وكان توحيد الله وكسر قيود الشرك أساس الأحكام السماوية وفي طليعة رسالات الأنبياء جميعاً، فكأنّ الهدف من بعثة الأنبياء هو الدعوة الىٰ عبادة الله وحده ومكافحة الشرك بصورة عامّة وفي العبادة بصورة خاصّة.

و القرآن الكريم يشير الى هذه الحقيقة بصراحة فيقول:

١ ـ «وَلَقَدْ بَعَثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطّاغُوتَ»(١).

٢ ـ «وَما أرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلّا نُوحي إلَيْهِ أنَّهُ لا اِلٰه إلّا أنَا فَاعْبُدُونِ»(٢).

و قد اعتبر القرآن الكريم عبادة الله جامعاً مشتركاً بين كافّة الشرائع السماوية فقال:

---

(١) سورة النحل: آية ٣٦.

(٢) سورة الأنبياء: آية ٢٥.

«قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا اِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلّا نَعْبُدَ إلّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً»(١).

إن التوحيد في العبادة هو أصلٌ ثابت لدىٰ المسلمين كافّة، ولا يعارضه أحد ولا تختلف فيه أيّة فرقة من الفرق الاسلامية.

و اذا كانت المعتزلة تختلف وجهة نظرها حول «توحيد الأفعال» وكذلك الأشاعرة تختلف حول «توحيد الصفات» فإن جميع المذاهب والطوائف الاسلامية تتفق حول «توحيد العبادة» ولا مجال لإنكاره، وإن كان هناك اختلافٌ فإنما هو في المصاديق لا في الأصل، أي أن بعض المسلمين يعتبر بعض الأفعال عبادة،في حين يعتبره سائر المسلمين تكريماً وتعظيماً لاغير.

و بالاصطلاح المنطقي: إن الاختلاف إنما هو في «الصغرىٰ» -وهو: هل أن هذا الفعل عبادة أم لا؟- ولا اختلاف في «الكبرىٰ» -وهو: هل تجوز عبادة غيرالله أم لا؟ فهذا متّفق على جوازه-.

و بعبارة أُخرىٰ: إن الاختلاف إنما هو في سلسلة أعمال يعتبرها الوهّابيّون عبادة، ولكن غيرهم من المسلمين -في العالم كلّه- لا يعتبرونها عبادة أصلاً.

فالمفروض أن نوضّح معنى «العبادة» لُغوياً وعلىٰ ضوء القرآن الكريم أيضاً، وعند ذلك ستتضح المصاديق -المختلف فيها- بنفسها تلقائياً، ويظهرلنا -بالتحديد والتحقيق- معنى «العبادة».

---

(١) سورة آل عمران: آية ٦٤.

تحديد معنى العبادة والتعريف الكامل لها

إن «العبادة» معناها و مفهومها واضح في اللغة العربية، ولو لم نتمكّن من تعريفها تعريفاً منطقياً بكلمة واحدة، فهي كالأرض والسماء اللّتين لهما معنيان واضحان، بالرغم من أن الكثير منّا لا يستطيع تحديده بكلمة واحدة تحديداً كاملاً، ولكن ذلك لا يمنع من تجسّم معنى الأرض والسماء في أذهاننا عند سماع لفظيهما.

إن معنى «العبادة» كمعنى الأرض والسماء تماماً، معروف و مفهوم لدينا جميعاً، بالرغم من عدم القدرة علىٰ تعريفهما تعريفاً منطقياً، فـ«العبادة» و «التعظيم» و «الاحترام» و «التكريم» ألفاظ متعدّدة لها مصاديق معروفة، والفصل بينها سهل يسير.

إن الذي يعشق أحداً و يُغرم بحبّه، تراه يُقبّل جدران بيت معشوقه ويشمّ ملابسه ويلصقها على صدره، و بعد وفاته يُقبّل قبره ويلثم تربته... ومع ذلك كلّه لا يَعتبر أحدٌ عملَ هذا العاشق عبادة للمعشوق.

كما أن مسارعة الناس الى مشاهدة الأجساد المحنّطة للزعماء في العالَم، أو مشاهدة آثارهم ومنازلهم التي كانوا يعيشون فيها، والوقوف دقائق حداداً على أرواحهم كلّ هذا لا يُعتبر عبادة عند أيّ شعب من شعوب العالَم، ولو كان حبّهم وخشوعهم لأُولئك على مستوى خشوع المؤمنين لله سبحانه، فإن أهل المعرفة والتحقيق هم الذين يستطيعون الفصل بين الاحترام و بين العبادة.

أيّها القارئ الكريم: و اذا حاولنا ان نُقدّم تعريفاً منطقياً لـ «العبادة» فإن لها ثلاثة تعاريف، وكلّ هذه التعاريف تهدف معنىً واحداً.

و قد اختار الوهّابيّون تعريفين آخَرين واعتمدوا عليهما، ولكنهما ناقصان غير كاملين، وفيما يلي نذكرهما للمناقشة:

تعريفان ناقصان للعبادة

أ ـ العبادة: خضوع و تذلُّل.

لقد ورد في كتب اللغة تعريف «العبادة» بـ: الخضوع والتذلُّل(١) ولكن هذا التعريف لا يعكس معنى العبادة بصورة دقيقة، وذلك لما يلي:

١ ـ اذا كانت «العبادة» مرادفة ـ في المعنىٰ ـ للخضوع والتذلُّل، فلا يمكن أن نعتبر أيَّ انسان موحّداً لله، لأن البشر ـ بفطرته ـ يخضع لمن يتفوّق عليه، معنوياً أو مادّياً، كالتلميذ يخضع لأُستاذه، والولد يخضع لوالديه، وكلّ محبٍّ لحبيبه.

٢ ـ إن القران الكريم يأمر الانسان بأن يتذلَّل لوالديه فيقول:

«وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّياني صَغيراً»(٢).

---

(١) و قد جاء هذا المعنىٰ في القرآن الكريم عندقوله «**وتِلكَ نِعمَةٌ تمُنُّها عَليَّ أنْ عَبَّدت بني إسرائيل**» الشعراء/٢٢.

(٢) سورة الإسراء: آية ٢٤.

فاذا كان الخضوع و التذلّل معناه عبادة مَن تذلّلتَ له، فهذا يستلزم الحكم بكفر مَن يبرّ والديه، كما أنه يستلزم الحكم بتوحيد مَن يعقّ والديه.

ب ـ العبادة: نهاية الخضوع.

لقد حاول بعض المفسّرين ـ بعد أن أدركوا نقصان تعريف اللغويين للعبادة ـ ترميم هذا النقص وإصلاحه، فقالوا:

«العبادة: نهاية الخضوع بين يدي مَن تُدرك عظمته وكمالَه».

و هذا التعريف يشترك مع التعريف الأول في النقص والإشكال وذلك:

١ ـ لأن الله تعالىٰ يأمر الملائكة بالسجود لآدم فيقول:

«وَإذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلّا إبْليسَ»(١).

إن السجود هو نهاية التذلّل والخضوع لمن سجدت له، فإذا كان معنى العبادة هو نهاية الخضوع فإنه يستلزم القول بكفر الملائكة الممتثلين لأمرالله، وايمان الشيطان المخالف لأمرالله.

٢ ـ إن اخوة النبيّ يوسف و والديه سجدوا جميعاً ليوسف، كما يقول تعالىٰ:

«وَ خَرّوا لَهُ سُجَّداً، قالَ يا أَبَتِ هٰذا تَأْويلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ، قَدْ جَعَلَها رَبّي حَقّاً»(٢).

و الرؤيا التي أشار اليها يوسف ـ في الآية ـ هي في قوله تعالىٰ:

---

(١) سورة البقرة: آية ٣٤.

(٢) سورة يوسف: آية ١٠٠.

«إِذْ قالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لي ساجِدينَ»(١).

٣ ـ إن كلّ المسلمين اقتداءً برسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ يُقبّلون الحَجر الأسود المستقرّ في زاوية الكعبة المشرّفة ويتبرّكون به، ونفس هذا العمل يقوم به عُبّاد الأصنام تجاه أصنامهم، مع العلم أن عملهم ذلك شرك قطعاً وعملَ المسلمين توحيد قطعاً.

إذن: ليس معنى «العبادة» نهاية الخضوع والتذلُّل، و إن كانت في الحقيقة من أركان العبادة، إلّا أنها ليست الركن الوحيد لها، فلابدّ من القول بأن «العبادة» معناها الخضوع والتذلّل المقرون بـ«الاعتقاد الخاص» فالعبادة تتكوّن من عنصرين:

١ ـ الخضوع و التذلُّل.

٢ ـ الاعتقاد الخاص.

و هذا «الاعتقاد الخاص» هو الذي يحسم الموقف و يفصل القضية... فالخضوع ـ حتىٰ لو لم يكن كثيراً ـ اذا كان مقروناً «بالاعتقاد الخاص» فهو عبادة.

و في الحقيقة إن «الاعتقاد الخاص» هو الذي يصبغ العمل بصبغة العبادة، وبدون «الاعتقاد الخاص» لا تتحقّق العبادة حتىٰ لو كانت بمظهرها.

و الآن... وبعد أن أثبتنا بطلان التعريفين اللذين اعتمد

---

(١) سورة يوسف: آية ٤.

عليهما الوهّابيّون، وظَهر ضعفها ونقصها، يأتي دور التحدّث عن التعريفات الثلاثة للعبادة.

و السؤال الآن: ما هو «الاعتقاد الخاص» الذي يُفرز العبادة عن غيرها؟

الجواب: إن هذا ـ بالضبط ـ ما يتناوله البحث والتحقيق الآن، وسوف يظهر من خلال التعريفات الثلاثة الآتية:

التعريف الأول:

«العبادة» خضوع عملي أو لفظي ينبع من عقيدة الانسان بـ«الالوهيَّة».

ما معنى «الالوهيَّة»؟ هذه نقطة حسّاسة يجب تحديدها.

الجواب: إن «الالوهيَّة» مشتقّة من «الإلٰه» و «الإلٰه» هو الله بصيغة النكرة ـ وهو الخالق سبحانه ـ.

و اذا كان «الإلٰه» قد فُسِّر ـ أحياناً ـ بمعنى «المعبود» فإنما هو تفسير باللازم، أي أن الالوهيَّة تستلزم العبودية، لا أن معنى الإلٰه هو المعبود.

إن الأُمم التي تعتقد بالإلٰه تعتقد ـ بالتَبع ـ بضرورة عبادته، سواء كان الإلٰه حقاً ـ كالله سبحانه ـ أم باطلاً ـ كما سوىٰ الله ـ ولهذا يُفسَّر الإلٰه بالمعبود من هذه الجهة فقط.

و الدليل الواضح على هذا التعريف، هو الآيات التي وردت في هذا المجال، فمن خلال التأمّل في تلك الآيات يظهر لنا أن

«العبادة» هي الأعمال والأقوال النابعة من الاعتقاد بالالوهيَّة(١) وأن مع عدم هذا الاعتقاد لا تتحقّق العبادة، ولهذا ترى القرآن الكريم -عند ما يأمر بعبادة الله- يستدلّ فوراً بأنه لا إلٰه غيره، فمَثَلاً يقول:

«يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إلٰهٍ غَيْرُهُ»(٢).

و قد ورد مضمون هذه الآية في تسع مواضع من القرآن أو اكثر، ويمكنك -أيّها القارئ- مراجعة هذه الآيات في سورة الأعراف آية ٦٥ و٧٣ و٥٨، وسورة هود آية ٥ و٦١ و٨٤، وسورة الأنبياء آية٢٥، وسورة المؤمنون آية٢٣ و٣٢، وسورة طٰه آية١٤.

إن هذه العبارات تدلّ على أن العبادة هي ذلك الخضوع والتذلّل النابع من الاعتقاد بالالوهيّة، وبدون هذا الاعتقاد لا يُسمّى العمل عبادة.

و إليك المزيد من الآيات الدالَّة علىٰ هذا المقصود:

يقول تعالىٰ:

«إنَّهُمْ كانُوا إذا قيلَ لَهُمْ لا إلٰهَ إلّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ»(٣).

لماذا يستكبرون؟

---

(١) إنّ جعل الأصنام آلهة لا يعني أنها خالقة أيضاً و مديرة ومدبّرة لشؤون الكون والانسان، بل إن للإلٰه معنىً واسعاً يشمل الإلٰه الحقيقي والإلٰه المنحوت والمختلَق، فإذا اعتبرنا موجوداً ما مصدراً للأعمال الإلٰهية وتصوّرنا أنه يتصرّف ماهو خاصّ بالله - كالشفاعة والمغفرة- وأنه مالك لها، فقد تصوّرناه إلٰهاً، ولكنه يُعتبر إلٰهاً صغيراً لا كبيراً.

(٢) سورة الأعراف: آية ٥٩.

(٣) سورة الصافّات: آية ٣٥.

لأنهم يعتقدون بآلهةٍ غير الله، و يعبدونها.

و يقول سبحانه:

«أَمْ لَهُمْ إِلٰهٌ غَيرُاللهِ سُبْحانَ اللهِ عَمّا يُشْرِكُونَ»(١).

إن القرآن يعتبر هؤلاء مشركين، لأنهم يعتقدون بالوهيّة غير الله سبحانه.

و يقول عزّوجل:

«اَلّذينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إلٰهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ»(٢).

«وَالّذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ اِلٰهاً آخَرَ...»(٣).

و ممّا يدلّ على أن دعوة المشركين كانت مقرونة بالاعتقاد بالوهيّة أصنامهم هي هذه الآيات:

«وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً»(٤).

«أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرىٰ»(٥).

«وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لأَبيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَة» (٦).

إن التأمّل في الآيات التي تتحدّث عن شرك عَبدة الأصنام يكشف لنا عن هذه الحقيقة وهي أن شِرك هؤلاء إنما كان بسبب اعتقادهم بالوهيّة أصنامهم المعبودة، وأن تلك الأصنام

---

(١) سورة الطور: آية ٤٣.

(٢) سورة الحجر: آية ٩٦.

(٣) سورة الفرقان: آية ٦٨.

(٤) سورة مريم: آية ٨١.

(٥) سورة الأنعام: آية ١٩.

(٦) سورة الأنعام: آية ٧٤.

هي آلهة صغيرة قد خَوّل الإلٰه الأكبر بعض صلاحياته اليهم، فهي مخلوقة ومعبودة في وقت واحد، ولهذا كانوا يرفضون دعوة التوحيد.

يقول القرآن الكريم:

«ذٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إذا دُعي اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُم، وَإنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤمِنُوا فَالْحُكمُ للهِ الْعَليّ الْكَبير»(١).

هذا و للمفسّر القدير المرحوم آية الله الشيخ محمد جواد البلاغي تعريفاً رائعاً للعبادة ـ في تفسيره القيّم «آلاء الرحمٰن» ـ يقول:

«العبادة: ما يرونه مستشعراً بالخضوع لمن يتّخذه الخاضع إلٰهاً، ليوفّيه بذلك ما يراه له من حقّ الامتياز بالإلٰهيّة»(٢).

إن المرحوم البلاغي قد صبّ نظريته العلميّة ـ بايحاء من الفطرة ـ لكلمة «العبادة» في قالب اللفظ فجاء هذا التعريف الرائع الذي ينسجم ـ بالكامل ـ مع الآيات القرآنية.

التعريف الثاني للعبادة

إن العبادة هي الخضوع بين يدَي مَن يعتبره «رَبّاً».

و يمكننا ان نُعرّفها كالتالي: العبادة هي الخضوع العملي أو القولي لمن يُعتقد بربوبيّته، فالعبوديّة تلازم الربوبيّة، فاذا اعتبر إنسان نفسه عبداً لمن يعتقده ربّاً تكوينياً ـ سواء كان ذلك ربّاً

---

(١) سورة المؤمن: آية ١٢.

(٢) تفسير آلاء الرحمن ج١ ص٥٧.

واقعاً أم لا ـ وخضَع له مع هذا الاعتقاد فقد عَبَده.

وفي القرآن الكريم آيات يُستفاد منها أن العبادة هي من شؤون الربوبيّة، وإليك بعضها:

«وَقالَ الْمَسيحُ يا بَنِي إسْرائيلَ اعبُدُوا اللهَ رَبّي وَرَبَّكُمْ»(١).

«إنَّ اللهَ رَبّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذا صِراطٌ مُسْتَقيمٌ»(٢).

وغيرها من الآيات.

وهناك آيات تعتبر العبادة من شؤون الخالق، كما في قوله تعالىٰ:

«ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا اِلٰه إلّا هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيءٍ فَاعْبُدُوهُ»(٣).

ما معنىٰ كلمة «الربّ»؟

تُطلق كلمة «ربّ» ـ في اللغة العربية ـ على من أُسند اليه تدبير شيء ما وترك مصير ذلك الشيء بيده، فاذا أُطلقت هذه الكلمة علىٰ مالك الدار ومالك الإبل ومرضعة الطفل والفلّاح ـ وغيرهم ـ فإنما هو بسبب امتلاكهم لإدارة ذلك الشيء وتكفّلهم لمسؤليته.

وإننا إذ نعتبر الله تعالىٰ «ربّاً» فإنما هو بسبب أن شؤوننا واُمورنا ومصيرنا ـ كالموت والحياة والرزق والصحة والتقنين

---

(١) سورة المائدة: آية ٧٢.

(٢) سورة آل عمران: آية ٥١.

(٣) سورة الأنعام: آية ١٠٢.

والتشريع والمغفرة والعفو وغيرذلك ـ بيدالله تعالىٰ.

و الآن... لو اعتقد إنسان أن أحد هذه الشؤون ـ أو كلّها ـ قد خوَّلها الله تعالىٰ الى شخصٍ ما، فإن هذا الاعتقاد يعني اعتبار ذلك الشخص «ربّاً» والايمان بهذا الربّ والخضوع له عبادة له.

و بعبارة أُخرىٰ: إن العبادة تنبع من شعور الانسان بكونه عبداً، هذه حقيقة العبوديّة، أن يعتبر الانسان نفسه مملوكاً والأعلىٰ منه مالكاً للوجود والموت والحياة والرزق... أو ـ على الأقل ـ مالكاً لصلاحية المغفرة(١) والشفاعة(٢) ووضْع القوانين والواجبات(٣) فيكون بذلك قد جعل المالك «ربّاً» له، وكلّ من يُجسّد هنا الشعور في نفسه ويترجمه الى قول أو فعل، فلا شك أنه يَعْبُد المالك الذي اعتبره ربّاً.

التعريف الثالث للعبادة

هنا يمكن أن نُقدّم للعبادة تعريفاً ثالثاً مستخلَصاً من الوجدان والفطرة فنقول:

«العبادة: خضوع أمام من نعتبره إلٰهاً أومَصدراً للأعمال الإلٰهيّة».

لا شكّ أن الأعمال المتعلّقة بالكون والوجود ـ كتدبير شؤون العالَم والإحياء والإماتة وبسط الرزق بين الموجودات وغفران

---

(١) يقول تعالىٰ: «ومن يغفر الذنوب إلّا الله» آل عمران/١٣٥.

(٢) يقول تعالىٰ: «قل للهِ الشفاعة جميعاً» الزمر/٤٤.

(٣) قوله عزّوجل: «إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله» التوبة/٣١.

الذنوب - هي خاصّة بالله تعالىٰ.

وأنت لو تأمّلتَ الآيات القرآنية - التي تتحدّث عمّا سَبق ذِكره(١) لرأيتَ أن القرآن يؤكّد تأكيداً شديداً على أن هذه الأعمال خاصّة بالله تعالىٰ ولا ترتبط بغيره سبحانه.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرىٰ: نحن نعلم أن عالَم الخلق والإيجاد هو عالَم منظَّم ولا يحدث أيّ شيء في هذا العالم إلّا بأسبابٍ تعود الى الله تعالىٰ، والقرآن الكريم يشير الى هذا الموضوع فيقول سبحانه:

«وَهُوَ الَّذي يُحْيي وَيُميتُ وَلَهُ اختِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهار»(٢).

ويقول سبحانه - في موضعٍ آخر - أنّ من الملائكة مَن تتولّى قبْض الأرواح، وهو قوله:

«حَتّىٰ إِذا جاء أحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا»(٣).

بناءً على هذا.. يمكن الجمع بين هاتين الآيتين فنقول: إن الفاعليَّة والسببيَّة لهذه العلل والعوامل الطبيعة - مادّية كانت أم معنوية كالملائكة - إنما تتحقّق بإذن الله سبحانه، والفاعل هو الله تعالىٰ.

وبعبارة أُخرىٰ: إن فعل كلّ من هٰذين الفاعلَين يقع في طول

(١) كالآية ٧٣ من سورة القصص، والآية ٦٠ الى ٦٤ من سورة النمل، والآية ٥و٦ من سورة الزمر.

(٢) سورة المؤمنون: آية ٨٠.

(٣) سورة الأنعام: آية ٦١.

الآخر لا في مقابله وعَرضه، فالفاعل الأول مستقلّ والثاني تابع للأول، وهذا من المعارف العالية في القرآن والتي تُستفاد من مراجعة الآيات الكريمة التي تتحدّث عن أفعال الله تعالىٰ.

و الآن... لو أن إنساناً اعتقد بأن الله قد فوّض أفعاله -من الإرزاق والإحياء وغيرهما- الى بعض مخلوقاته -كالملائكة والأولياء- وأنهم الذين يُديرون شؤون الكون ويدبّرون أُموره، ولا علاقة لله سبحانه بذلك، ودَفَعه هذا الاعتقاد الى الخضوع لهم، فما من شكٍّ أن خضوعه هذا عبادة، وأن عمله هذا شِرك بالله سبحانه.

و بتعبير آخر: لو اعتقد بأن الله قد فوّض صلاحيَّة تنفيذ هذه الأفعال الى الملائكة والأولياء وبقي سبحانه مجرَّداً من كلّ صلاحية، والملائكة والأولياء ينفّذون تلك الأفعال بالاستقلال ومن دون إذنه سبحانه، فيكون هذا الانسان -المعتقد هذا الاعتقاد- قد جعل لله مِثلاً ونداً، ولا شكّ أن هذا الاعتقاد هو الشِرك بذاته، وأن التوسّل والخضوع -النابعين من هذا الاعتقاد- هو عبادة، كما جاء في القرآن الكريم:

«وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أنداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ»(١).

إن أيّ كائن و موجود لا يستطيع أن يكون مِثلاً لله ونداً، إلّا اذا صار يتصرَّف في الكون بإرادته الشخصية ومن دون إرادة الله

(١) سورة البقرة: آية ١٦٥.

تعالىٰ، وليس أحدٌ كذلك، بل إن كلّ كائنٍ خاضعٌ لإرادة الله سبحانه ـ شاء أو أبىٰ ـ وعليه فلا يكون ندّاً لله فحسب بل يكون مطيعاً له يتَصرّف وفق إرادته سبحانه.

والجدير بالذكر أن المشركين كانوا يعتقدون بأن أصنامهم المعبودة مستقلَّة في التصرُّف في هذا الكون والشؤون الإلٰهية، وقد كان أضعف درجات الشرك ـ في العهد الجاهلي ـ هو الاعتقاد بتفويض التقنين والتشريع الى الأحبار والرهبان، كما قال تعالىٰ:

«إتَّخَذُوا أحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ»(١).

و كذلك كانوا يعتقدون بأن صلاحية الشفاعة والمغفرة ـ التي هي خاصّة بالله وحده ـ قد فُوِّضَتْ الى أصنامهم المعبودة، فهي تتصرَّف بالاستقلال الكامل في تلك الصلاحيّات، ولهذا ترىٰ الآيات القرآنية ـ التي تتحدّث عن الشفاعة ـ تؤكّد بأن الشفاعة لا تتحقّق إلّا بإذن الله تعالىٰ، كما في قوله سبحانه:

«مَنْ ذَا الَّذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلّا بِإذْنِهِ»(٢).

ولو كان المشركون يعتقدون بأن أصنامهم المعبودة تملك الشفاعة بإذن الله سبحانه، لما كنت ترىٰ هذا النفي القرآني القاطع للشفاعة بدون إذن الله تعالى.

إن بعض حكماء اليونان كانوا قد نَحتوا ـ في أفكارهم ـ آلهة

---

(١) سورة البقرة: آية ٣١.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٥٥.

متعـدّدة لكلّ شأن مـن شؤون العـالَم، فالمطر لـه إلٰه والزرع لـه إلٰه والانسـان لـه إلٰه وهكذا، وكانـوا يـزعـمون أن التصرّف في شؤون الكون ـ الذي هو خاصّ بالله سبحانه ـ قد فُوِّض الى هذه الآلهة.

وفي العـهـد الجاهلي كـان بعض العـرب يعبـدون الملائكة والنـجـوم الثابـتـة والمتـحـرّكة، ظنّـاً منهـم أن تدبير شؤون الـكون والانسان قد فُوّض اليها، فـهـي تـتصرّف بالاستـقلال والاخـتيار الـكـامـل، وأن الله تـعـالى يـعيش مـعـزولاً مجرَّداً عـن كـلّ هذه الصلاحيّات بصورة كاملة، تَعالىٰ اللهُ عَنْ هٰذا عُلُوّاً كَبيراً(١).

و لهذا فإن كـلّ نوع مـن الخضوع لـلـملائـكة والـنجـوم يُعتبر عبادة، لكونه نابعاً من هذا الاعتقاد الخاطئ.

و الـبـعض الآخـر مـن العرب الجـاهلي لم يـعـتـبـروا الأصنام الخشـبـيـة والمـعـدنيـة آلهة وخـالـقـة لهم ولا مدبّـرة لشؤون الكون والانسان، بل كـانـوا يـعتبرونهـا مـالكة للشفـاعة، وكانوا يقولون: هؤلاء ـ أي الأصنام ـ شفعاؤنا عندالله(٢).

و علىٰ أسـاس هـذا الـتصوّر الـبـاطل كـانـوا يـعـبـدون هذه الأصنام، تقرُّباً الى الله تعالىٰ وكانوا يقولون:

«ما نَعْبُدُوهُمْ إلّا لِيُقرِّبُونا اِلَى اللهِ زُلْفىٰ»(٣).

---

(١) راجع المِلل والنِحل للشهرستاني ج٢ طبعة مصر ص٢٤٤-٢٤٧.

(٢) قـال تـعـالىٰ: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُون الله مـا لا يضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُـهُـمْ وَيَقُولُونَ هٰؤلاء شُفَعاؤُنا عِنْدَالله» سورة يونس/١٨.

(٣) سورة الزمر: آية ٣.

و خلاصة القول: إن أيَّ عمل ينبثق من هذا الاعتقاد ويدلّ على الانقياد والخشوع، فهو عبادة، وفي المقابل: إن أيَّ تصرُّفٍ لا يستند الى اعتقاد كهذا، لايُعتبرعبادة ولا شركاً، فلو خضع إنسان أمام موجود وكرَّمه وعظَّمه، دون أن يعتقد به هذا الاعتقاد، فلا يُعتبرعمله شركاً ولا عبادة، حتىٰ لو فُرض عمله ذلك حراماً.

مثلاً: لا يُعتبر سجود العاشق لمعشوقه، والمأمور لآمره، والمرأة لزوجها... عبادة، بالرغم من أنه حرام شرعاً، لأن السجود خاصّ بالله تعالىٰ، ولا يجوز لأحدٍ أن يأتي به -حتىٰ بصورته الظاهرية المجرَّدة عن العقيدة- إلّا بأمره سبحانه.

نتيجة البحث

الى هنا استطعنا -نوعاً مّا- أن نوضّح حقيقة «العبادة» والآن يجب أن نستخلص النتيجة من هذا البحث... فنقول: لو أن إنساناً خضَع وتواضَع لآخرين، دون أن يعتبر أحدهم «إلٰهاً» أو «ربّاً» أو «مصدراً» مستقلّاً لأفعال الله تعالىٰ، بل يحترمهم لأنهم:

«عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ»(١).

فإنَّ عمله هذا ليس إلّا تعظيماً و تكريماً لهم، ولا علاقة له بالعبادة أبداً.

إن الله تعالىٰ قد ذكر بعض عباده ذِكراً حَسَناً ووصَفهم بشكلٍ يثير رغبة كلّ إنسان في تعظيمهم وتكريمهم... فِمن ذلك

(١) سورة الأنبياء: آية ٢٦.

قوله سبحانه:

«إِنَّ اللهَ اصْطَفىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ»(١).

كما يُصرِّح القرآن الكريم بأن الله تعالىٰ قد اصطفىٰ إبراهيم للامامة فيقول:

«قالَ إِنّي جاعِلُكَ لِلنّاسِ إِماماً»(٢).

و قد ذكرالله سبحانه ـ في القرآن ـ كلّاً من النبيّ نوح وإبراهيم وداود وسليمان وموسى وعيسى ومحمّد ـ صلوات الله عليهم اجمعين ـ ذَكرهم أحسن الذِكر، ووصَفهم بأسمىٰ الصفات، بحيث ان كلّ صفةٍ ـ بوحْدها ـ تكفي لجذب القلوب واكتساب المحبّة في النفوس.

و ترى القرآن الكريم يهتف ـ بفضل آل محمّد ـ في آيات عديدة منه فيقول:

«إِنَّما يُريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهيراً»(٣).

و يقول فيهم:

«قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبىٰ»(٤).

و يقول فيهم:

---

(١) سورة آل عمران: آية ٣٢.

(٢) سورة البقرة: آية ١٢٤.

(٣) سورة الأحزاب: آية ٣٣.

(٤) سورة الشورىٰ: آية ٢٣.

«وَيُطْعِمُونَ الطَعامَ عَلىٰ حُبّهِ مِسْكيناً وَيَتيماً وَأسيراً، إنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُريدُ مِنْكُمْ جَزاءاً وَلا شُكُوراً، إنّا نَخافُ مِنْ رَبّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَريراً، فَوَقاهُمُ اللهُ شَرَّ ذٰلِكَ الْيَوْمَ وَلَقّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً، وَجَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَحَريراً... الى آخرالسورة»(١). وغيرها من الآيات.

فلو قام الناسُ ـ تجاه هؤلاء الأولياء المقرَّبين ـ بما ينبغي من التعظيم والتجليل والتكريم والاحترام ـ سواء في حياتهم أو بعد وفاتهم ـ دون أن يعتبروهم آلهة ولا مَصدراً مستقلاً لأفعال الله، فليس هناك من يعتبر هذا العمل عبادة، ولا القائم به مشركاً، بل بالعكس يعتبرهم حضاريّين تقدميّين يقدّرون أولياءالله ويخلّدون ذكرياتهم ويتّخذونهم قدوة وأُسوة لهم.

إن تعظيم أولياء الله تعظيمٌ لشعائر الله ـ كما سبقت الاشارة إليه ـ وإن الاسلام يزخر بالشعائر الإلٰهية.

لقد كان رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ يقف عند الحَجر الأسود ويستلمه ويُقبّله، مع العلم أنه ليس إلّا حَجراً.

و نحن كذلك نقتدي بهذا النبيّ العظيم فنقبّل الحَجر الأسود، ونطوف حول بيت الله ـ الذي ليس إلّا مجموعة من الطين والحَجر ـ ونسعىٰ بين الصفا والمروة ـ وليسا إلّا جَبَلين ـ أي: إننا نفعل نفس ما كان يفعله عَبَدة الأصنام تجاه أصنامهم، ولكن لم يخطر ببال أحد ـ حتى الآن ـ بأننا نعبد الطين والأحجار... لماذا؟ لأن

---

(١) سورة الانسان.

الأحجار لا تضرّ ولا تنفع، أمّا لو أدّينا هذه المناسك مع الاعتقاد بأن هذه الأحجار والجبال هي الإلٰه ومصدر آثاره، لأصبحنا ـ عند ذلك ـ في عِداد عَبَدة الأصنام.

وعلىٰ هذا الأساس: فإن تقبيل يد النبي أو الامام أو المعلّم أو الوالدين، وكذلك تقبيل القرآن الكريم والكتب الدينية ـ مثل نهج البلاغة ـ وتقبيل الضريح وكلّ ما يتعلّق بعباد الله الأزكياء ليس إلّا تعظيماً وتكريماً لهم لا غير، وتعظيمهم ليس إلّا تعظيماً لله سبحانه.

لقد ورد في القرآن الكريم سجود الملائكة لآدم ـ عليه السّلام ـ وسجود إخوة يوسف ليوسف ـ عليه السّلام ـ ولم يخطر ببال أحدٍ بأن هذا السجود كان عبادة لآدم أو ليوسف، والسبب في ذلك هو أن الذين سجدوا لآدم وليوسف لم يعتقدوا لهما بالالوهيّة والربوبيّة، ولم يعتبروهما مصدراً لأفعال الله تعالىٰ، بل كان ذلك من باب التعظيم والتكريم لا العبادة، كما هو واضح.

إن الوهّابيّين عند ما يواجهون هذه الآيات القرآنية ويصطدمون بها، تراهم يبحثون ـ هنا وهناك ـ عن تبرير وذريعة لها، فيقولون: إنّ سجود أُولئك لا يُعتبر عبادة، لأنه جاء بأمر الله تعالىٰ.

والجواب: صحيح أن كلّ ذلك ـ حتّىٰ سجود إخوة يوسف ـ كان بأمر الله أو رضاه، ولكن الشيء الذي يتغافل عنه الوهّابيّون ويتجاهلونه هو أن حقيقة العمل أيضاً لم تكن عبادة، ولهذا أمر الله

به، ولوكان السجود عبادة للمسجود له لما أمر الله بذلك أبداً، لأن الأمر لا يُخرج العبادة عن حقيقتها ولا يجعل الشرك توحيداً. قال تعالىٰ:

«قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ، أَتَقُولُونَ عَلى اللهِ مالا تَعْلَمُونَ»(١).

والخلاصة: إن حقيقة العمل يجب أن تكون غير عباديّة قبل صدور الأمر بها من الله تعالىٰ، حتىٰ يتعلّق الأمر بها، ولا يُتصوَّر -بأيّ وجه- أن يكون العمل عبادياً فيأتي الأمر فيُسقطه عن العباديّة.

إنَّ هذا التبرير الذي يلجأ اليه الوهّابيّون -والذي طالما سمعناه من مشايخهم في مكّة والمدينة- إنما يدلّ على الجمود الذي يعيشونه تجاه المعارف القرآنية، وعدم معرفتهم بأن العبادة لها حقيقة مستقلَّة، ويطرأ عليها الأمر تارةً، والنهي تارةً أُخرىٰ، أي أن الشيء -بذاته- عبادة، فيأمر الله تعالىٰ به أو ينهىٰ عنه، كالصلاة والصوم، حيث أمر الله المكلّفين بأدائهما، ونهى المرأة الحائض عنهما، أو كصوم عيد الفطر والأضحىٰ حيث نهى الله عنه فيهما جميع الناس.

فإذا كان سجود الملائكة لآدم وسجود إخوة يوسف ووالديه له عبادة لهما، فإن الأمر به لا يُخرجه عن حقيقة العبادة، فلابدَّ من القول بأن الاعتقاد بالالوهيَّة أو الربوبيَّة هو الذي يُحرّم الفعل ويجعله عبادة، أو الاعتقاد بكون المخضوع له مصدراً لأفعاله سبحانه.

---

(١) سورة الأعراف: آية ٢٨.

كيف نَحسم الموقف؟

أيّها القارئ الكريم: يجب أن تعلم بأن إزالة الخلافات ـ الموجودة بين المسلمين والوهّابيّين في كثير من المسائل ـ تتوقّف على تحليل مفهوم «العبادة». ومع عدم الوقوف على تعريفٍ منطقي للعبادة وعدم التفاهم والانصاف بين الطَرفين، لا فائدة من البحث والمناقشة.

من هنا... فلابدّ للانسان المحقّق أن يقوم بجولةٍ تحقيقية في عمق هذا الموضوع، وأن لا ينخدع بالتعريفات اللُغويّة المجملة ـ الناقصة عن التحليل والتوضيح ـ وخيرُ مصدر يُرجع اليه هي الآيات القرآنية، فهي الدليل المرشد في هذا المجال ـ وكلّ مجال ـ.

و من المؤسف أن كلّ الكُتّاب والمؤلّفين الوهّابيّين ـ وكذلك الذين كتبوا الردود علىٰ معتقداتهم ـ قد أطالوا البحث والتحقيق في نقاط اُخرىٰ، ولم يُركّزوا على هذه النقطة المهمّة بالشرح والتحقيق.

فالوهّابيّون يقولون: إن كثيراً من الأعمال التي تقومون بها ـ أيّها المسلمون ـ تجاه النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ والأئمة من أهل بيته ـ عليهم السّلام ـ هي عبادة لهم، وذلك يستلزم الشرك في عبادة الله تعالىٰ.

فيجب على المسلمين ان يُقدّموا توضيحاً وتشريحاً دقيقاً لـ «العبادة» حتىٰ يُجرّدوا الوهّابيّين من هذا السيف الموهوم.

إن الوهّابيّة تَعتبر كثيراً ممّا يقوم به المسلمون تجاه الميّت عبادة له، مثلاً:

١ ـ الاستشفاع من النبيّ والصالحين.

٢ ـ الاستشفاء من أولياء الله.

٣ ـ طلب قضاء الحوائج من قادة الدين.

٤ ـ تكريم صاحب القبر و تعظيمه.

٥ ـ الاستعانة بالنبيّ الأكرم، وغيره.

فهم يقولون: إن الشفاعة من أفعال الله، وكذلك الشفاء منه سبحانه، فطلب أحدهما من غيره يؤدّي الى عبادته.

ما هو «فِعل الله»؟

نحن ـ في هذه العجالة ـ نُقدّم بحثاً موجزاً عن أفعال الله ومعناها، كي يتّضح الموضوع... فنقول: إذا كان الذي يقوم بالشفاعة والشفاء يقوم بهما بقدرته الشخصيّة و بإرادته المستقلّة، من دون أن يكون قد اكتسب حقّ الشفاعة من أحد، ومن دون اعتماد علىٰ قدرةٍ تتفوّق عليه، فهذا من أفعال الله الخاصّة به سبحانه، والاستشفاع من أحد ـ بهذا الاعتقاد ـ معناه الايمان بربوبيّته والوهيّته.

أمّا لو كان الاستشفاع والاستشفاء سليماً من هذا الاعتقاد، بأن يستشفع الانسان ممّن يعتقد بعبوديّته لله، وأنه يتصرّف بالاستعانة بقدرة الله تعالىٰ وإذن منه سبحانه، فهذا الاستشفاع

والاستشفاء لا يلازم الاعتقاد بالالوهيَّة والربوبيَّة، ولا هو طلبُ فعلِ الله من غيرالله.

يقول القرآن الكريم عن لسان النبيّ عيسىٰ -عليه السّلام-:

«وَأُبْرِءُ الأَكْمهَ وَالأبْرَصَ وَأُحيِي الْمَوتىٰ بِإذْنِ الله»(١).

و نفس هذا التوضيح يأتي بالنسبة الىٰ طلب قضاء الحاجة من أحد أولياء الله أو الاستعانة به، فطلب قضاء الحاجة له صورتان:

١ - الطلب من العبد - مع الاعتقاد بقدرته المستقلّة - فهذا عبادة.

٢ - الطلب من العبد - مع الاعتقاد بعبوديَّته لله واستمداده منه سبحانه - فهذا لا يرتبط بالعبادة أبداً.

إن هذا التوضيح ليس فقط الحدّ الفاصل بين العبادة وغيرها، بالنسبة الىٰ هذه الأفعال، بل هو قاعدة عامّة تفصل بين التوحيد والشرك في كلّ المؤثّرات والأسباب.

إن الاعتقاد بتأثير «الاسپرين» - مثلاً - في تسكين الآلام، اذا كان نابعاً من قدرته المستقلّة في ذلك، وأنه لا يرتبط بقدرة أعلىٰ - وهي الله تعالىٰ - فهذا معناه الاعتقاد بالوهيَّته، أمّا الاعتقاد بأن الله تعالىٰ هو الذي جعل هذا الأثر في الاسپرين، وأنَّ هذا الدواء ليس إلّا سبباً لتسكين الآلام، وأنه لا يُسكّن الألم إلّا باذن الله، فإن هذا الاعتقاد نابع من التوحيد ذاته، لأنه «لا مؤثّر في الوجود

---

(١) سورة آل عمران: آية ٤٩

إلّا هو».

و لهذا قلنا: إنَّ حسْم الخلافات يتوقّف علىٰ تحديد معنى «العبادة» وفرز التوحيد من الشرك ، وأفعالِ الله من غيرها، والالوهيَّة من العبوديّة.

و قد سبقت الاشارة الى ان العرب الجاهليّين كانوا يعتقدون ذلك الاعتقاد الخاطئ، بأن الأصنام هي التي تدير بعض شؤون الكون إدارة مستقلَّة وتملك الشفاعة وغيرها، وهذا هو الذي صيَّرهم مشركين.

هذا... و إنْ أردت التفصيل من المعلومات حول هذا الموضوع فراجِع هذين الكتابين للمؤلّف:

١ ـ معالم التوحيد في القرآن الكريم.

٢ ـ التوحيد والشرك في القرآن الكريم.

كلامٌ للعلّامة القضاعيّ المصريّ

ثمّ إنّي لمّا حرّرت ذلك و بيّنت حدود العبادة، وقفت على كلام لأحد المحقّقين من علماء الأزهر الشريف أعني به: الأُستاذ الشيخ سلامة القضاعيّ العزاميّ الشافعيّ مؤلّف «**فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان**»(١) قال أنارالله برهانه:

---

(١) من أنفس الكتب الكلامية المؤلّفة في العصور الأخيرة، والمؤلّف و زميله الأُستاذ المحدّث المحقّق محمد زاهد الكوثريّ المصري من الذين قاموا في وجه البدع اليهودية من القول بالتشبيه والتجسيم والجهة والمكان في حقّ الله سبحانه. فقد أخذت هذه البدع تنتعش من ←

[فلننتقل الى معنى العبادة شرعاً، وأرجو أن تعطي هذا المقام فضل تنبّه فإن الغلط فيه هو المزلقة الكبرى والمزلّة العظمىٰ، التي استحلّت بها دماء لا تحصىٰ، وانهكت بها أعراض لا تعدّ، وتقاطعت فيها أرحام أمرالله بها أن توصل، عياذاً بالله من المزالق والفتن، ولا سيّما فتن الشبهات.

فاعلم أنهم فسّروا العبادة بالإتيان بأقصىٰ غاية الخضوع، وأرادوا بذلك المعنى اللغوي، أمّا معناها الشرعي فهو أخصّ من هذا كما يظهر للمحقّق الصبّار على البحث من استقراء مواردها في الشرع فإنه الإتيان بأقصى غاية الخضوع قلباً باعتقاد ربوبية المخضوع له، أو قالباً مع ذلك الاعتقاد ـ وأُوفيه للتقسيم ـ فإن انتفىٰ ذلك الاعتقاد لم يكن ما أتىٰ به من الخضوع الظاهري من العبادة شرعاً في كثير ولا قليل مهما كان المأتيّ به ولو سجوداً. ومثل اعتقاد الربوبية اعتقاد خصيصة من خصائصها كالإستقلال بالنفع والضرّ، وكنفوذ المشيئة لا محالة ولو بطريق الشفاعة لعابده عند

أوائل القرن الثامن بيد شيخ البدع والضلال: أحمد بن عبدالحليم بن تيميّة الحرّاني، وبعده بيد تلميذه ابن القيم، وبعدهما بيد شارب ثمالتها: الشيخ محمّد بن عبدالوهّاب. فقام الأول بتأليف كتابه «**فرقان القرآن**» فرد فيه على هذه البدع وغيرها ، من منع التوسّل والاستغاثة وطلب الشفاعة عمّن جعل الله وسيلة و مغيثاً بإذنه وشافعاً بأمره. كما قام الثاني بنشر كتاب «**الأسماء و الصفات**» للحافظ أبي بكر البيهقي مع تحقيقه والتعليق عليه وتقديم مقدّمة نافعة عليه، وطبع الكتابان في مصر عام ١٣٥٨هـ في مجلّد واحد. شكرالله سعيهما وسعي ناشري كتب الحقّ ورافعي ألوية الهُدىٰ ـ آمين ـ.

الربّ الذي هو أكبر من هذا المعبود. وإنما كفر المشركون بسجودهم لأوثانهم ودعائهم إيّاهم وغيرهما من أنواع الخضوع لتحقّق هذا القيد فيهم، وهو اعتقادهم ربوبية ما خضعوا له، أو خاصّة من خواصّها كما سيأتيك تفصيله. ولا يصحّ أن يكون السجود لغيرالله فضلاً عمّا دونه من أنواع الخضوع بدون هذا الاعتقاد عبادة شرعاً، فإنه حينئذٍ يكون كفراً، وما هو كفر فلا يختلف باختلاف الشرائع، ولا بأمر الله عزّوجل به «قُل إنّ اللهَ لا يَأمُرُ بالفَحشاء»(١) «وَ لا يَرضَىٰ لِعِبادِهِ الكُفرَ»(٢) وذلك ظاهر إن شاءالله.

وها أنت ذا تسمع الله تعالى قد قال للملائكة: «اسجُدوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلّا إبليس أبىٰ واستَكبَرَ»(٣) وقال: «أنَا خَيرٌ مِنهُ»(٤). وقال: «ءَأَسجُدُ لِمَن خَلَقتَ طِينا»(٥). والقول بأن آدم كان قبلة قول لا يرضاه التحقيق ويرفضه التدقيق في فهم الآيات كما ينبغي أن تفهم، فإن قصر فهمك عن هذا فهذا نبيّ الله يعقوب وامرأته وأولاده الأحد عشر قال الله فيهم «وَخَرّوا لَهُ سُجَّدا»(٦) أي ليوسف -صلّى الله عليه وسلّم-. قال الحافظ ابن كثير في تفسيرها: «أي سجد له أبواه و إخوته الباقون وكانوا أحد عشر رجلاً، وقد كان

(١) سورة الأعراف: آية ٢٨.

(٢) سورة الزمر: آية ٧.

(٣) سورة البقرة: آية ٣٤.

(٤) سورة الأعراف: آية ١٢.

(٥) سورة الإسراء: آية ٦١.

(٦) سورة يوسف: آية ١٠٠.

هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلّموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسىٰ عليه السّلام، فحرّم هذا في هذه الملّة، وجعل السجود مختصّاً بجناب الربّ تعالى. هذا مضمون قول قتادة وغيره. وفي الحديث «أن معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم فلمّا رجع سجد لرسول الله -صلّى الله عليه [وآله] وسلّم-، فقال: ما هذا يامعاذ؟ فقال: إنى رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحقّ أن يسجد لك، قال: لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقّه عليها». وفي حديث آخر «أن سلمان لقى النبي -صلّى الله عليه [وآله] وسلّم- في بعض طرق المدينة -وكان سلمان حديث عهد بالاسلام- فسجد للنبيّ -صلّى الله عليه [وآله] وسلّم- فقال: لا تسجد لى يا سلمان واسجد للحيّ الذي لا يموت» والغرض أن هذا كان جائزاً في شريعتهم» انتهىٰ. وقال الامام أبوجعفر في تفسيرها نحواً من هذا.

و قد علمت أن ما هو كفر لا يختلف باختلاف الشرائع ولا يأمر الله به في حين من الأحيان، فلم يكن سجود الملائكة لآدم ولا السجود ليوسف -عليهما الصلاة والسلام- مع خلوّ الساجدين من اعتقاد خصيصة من خصائص الربوبيّة، بمن سجدوا له كفراً، بل هو من الملائكة عبادة لله الذي أمرهم سبحانه، وممّن سجد ليوسف تحية جائزة، ونسخ الجواز في شريعتنا، وإنما حكم العلماء بالكفر على من سجد لشمس أو قمر أو وثن من أجل أنه أمارة على

الكفر الذي هو إنكار ما علم من الدين بالضرورة كما حكموا بالايمان -وهو معنى قلبي كما علمت- لمن نطق بالشهادتين من أجل أنه دليل عليه، لا لأن الأول بمجرده كفر والثاني بمجرده إيمان.

فان تعسّر عليك فهم هذا وهو ليس بعسير إن شاءالله تعالى، فانظر إلى نفسك فإنه قد يقضي عليك أدبك مع أبيك واحترامك له أن لا تسمح بالجلوس أو الاضطجاع بين يديه، فتقف أو تقعد ساعة أو فوقها، ولا يكون ذلك منك عبادة له، لماذا؟ لأنه لم يقارن هذا الفعل منك اعتقاد شيء من خصائص الربوبية فيه. وتقف في الصلاة قدر الفاتحة وتجلس فيها قدر التشهد وهو قدر دقيقة أو دقيقتين فيكون ذلك منك عبادة لمن صلّيت له، وسرّ ذلك هو أن هذا الخضوع الممثّل في قيامك وقعودك يقارنه اعتقادك الربوبية لمن خضعت له عزّوجل. وتدعو رئيسك في عمل من الأعمال أو أميرك أن ينصرك على باغ عليك أو يغيثك من أزمة نزلت بك وأنت معتقد فيه أنه لا يستقلّ بجلب نفع أو دفع ضرّ، ولكن الله جعله سبباً في مجرى العادة يقضي على يديه من ذلك مايشاء فضلاً منه سبحانه، فلا يكون ذلك منك عبادة لهذا المدعو وأنت على ما وصفنا.

فإن دعوته وأنت تعتقد فيه أنه مستقلّ بالنفع أو الضرّ أو نافذ المشيئة مع الله لا محالة، كنت له بذلك الدعاء عابداً، وبهذه العبادة أشركته مع الله عزّوجل، لأنك قد اعتقدت فيه خصيصة من خصائص الربوبية، فإن الاستقلال بالجلب أو الدفع ونفوذ

المشيئة لا محالة هو من خصائص الربوبية، والمشركون إنما كفروا بسجودهم لأصنامهم ونحوه لاعتقادهم فيها الاستقلال بالنفع أو الضرّ ونفوذ مشيئتهم لا محالة مع الله تعالى، ولو على سبيل الشفاعة عنده، فإنهم يعتبرونه الربّ الأكبر ولمعبوداتهم ربوبية دون ربوبيّته، وبمقتضىٰ ما لهم من الربوبية وجب لهم نفوذ المشيئة معه لا محالة.

و يدلّ لما قلنا آيات كثيرة كقوله تعالى «أَمَّنْ هَـٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَـٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ»(١).

وقوله «أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ»(٢).

و الاستفهام في الآيتين إنكاري على سبيل التوبيخ لهم على ما اعتقدوه. وحكى الله عن قوم هود قولهم له ـ عليه السّلام ـ «إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ»(٣) وقوله لهم «فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ...» الآية(٤) وكقوله تعالى موبخاً لهم يوم القيامة ما اعتقدوه لها من الاستقلال بالنفع و وجوب نفوذ مشيئتها «أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ»(٥) وقولهم وهم في النار يختصمون يخاطبون من اعتقدوا فيهم الربوبية وخصائصها «تَاللهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ»(٦) فانظر إلى هذه التسوية التي اعترفوا بها حيث يصدق

(١) سورة الملك: آية ٢٠.
(٢) سورة الأنبياء: آية ٤٢.
(٣) سورة هود: اية ٥٤.
(٤) سورة هود: آية ٥٥.
(٥) سورة الشعراء: آية٩٣.
(٦) سورة الشعراء: آية ٩٨.

الكذوب، ويندم المجرم حين لا ينفعه ندم.

فان التسوية المذكورة إن كانت في إثبات شيء من صفات الربوبية فهو المطلوب، ومن هذه الحيثية شركهم وكفرهم، لأن صفاته تعالىٰ تجب لها الوحدانية بمعنىٰ عدم وجود نظير لها في سواه عزّوجل، كما مرّ مفصّلاً في المقصد.

و إن كانت التسوية في استحقاقها للعبادة فهو يستلزم اعتقاد الاشتراك فيما به الاستحقاق، وهو صفات الالوهية أو بعضها، وإن كانت في العبادة نفسها فهي لا تكون من العاقل إلّا لمن يعتقداستحقاقه لها كربّ العالمين، تعالى الله عمّا يشركون.

و كيف يُنفىٰ عنهم اعتقاد الربوبية بآلهتهم وقداتخذوها أنداداً وأحبّوها كحبّ الله كماقال تعالىٰ فيهم «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللهِ»(١) والأنداد جمع ندٍّ وهو على ما قاله أهل التفسير واللغة المثل المناوي، فهذا ينادى عليهم أنهم اعتقدوا فيها ضرباً من المقاومة للحقّ، تعالى عمّا يقولون. أمّا قوله تعالى فيهم: «وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَهُم لَيَقُولُنَّ اللهُ»(٢) ونحوه،فليس معناه أنهم لا يثبتون لآلهتهم ربوبية ولا خاصّة من خواصّها، بل معناه أنهم إذا نوقشوا اعترفوا بالحقّ الذي فطرالله عليه النفوس، ودلّت عليه الكائنات، ثم ما أسرع ما يرجعون إلى اعتقاد الربوبية الباطلة في آلهتهم، فينتكسون ويرتكسون كماقال عنهم في آية اُخرى: «يَعرِفُونَ

---

(١) سورة البقرة: آية ١٦٥.

(٢) سورة الزخرف: آية ٨٧.

نِعمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونها وَأكثرُهُمُ الكافِرُونَ» (١) و كقوله تعالى في طائفة منهم «كُلَّ ما رُدُّوا إلى الفِتنَةِ أُركِسُوا فيها» (٢) وليس ذلك بعجيب ممّن اتخذ إلٰهه هواه، وإنك لتشاهد بين أهل الأهواء من تناقشه في بدعته ويصغي إليك فيقتنع بالحجّة وقت المناقشة ويعترف بمخالفته للحقّ وتظهر فيه مخايل الإنصاف، فاذا انقضى المجلس عاد إلى ما ألِف من الهوىٰ، وارتكس في بدعته كأن لم يكن بينك وبينه نقاش -إلّا من رحم الله- وقد رأينا ذلك كثيراً في كثير ممّن لقينا من أهل الأهواء- نسأل الله العافية بفضله-.

على أنه لو سلّم أنهم لم يعتقدوا لآلهتهم خلقاً ولا رزقاً ولا تدبيراً للأمر، فهم يعتقدون فيها غير ذلك من خصائص الالوهية وهووجوب نفوذ مشيئتها، فإنهم يرون أن شفاعتها مقبولة لا تردّ وليست متوقّفة على إذنه، تعالى عمّا يقول الجاهلون به علوّاً كبيراً. ولذلك قال الله تعالى في سيّدة آي القرآن ردّاً على هذا الزعم «مَن ذا الذي يَشفَعُ عِندَهُ إلّا بإذنِهِ» (٣) قال القاضي ناصرالدين البيضاوي في تفسيرها: «بيان لكبرياء شأنه ولأنه لا أحد يساويه أو يدانيه يستقلّ بأن يدفع ما يريده شفاعة واستكانة فضلاً أن يعارضه عناداً ومناصبة»، فانظر إلى قوله «يستقلّ بأن يدفع ما يريده شفاعة» تجده صريحاً في اعتقاد وجوب مشيئتها معه عزّوجل،

(١) سورة النحل: آية ٨٣.

(٢) سورة النساء: آية ٩١.

(٣) سورة البقرة: آية ٢٥٥.

ووجوب نفوذ المشيئة من خصائص الربوبية كما لا يخفى. وهذا النوع من الشفاعة هو الشفاعة الشركية وهي التي أبطلها القران، فإن اعتقادها كفر، كما قال تعالى «أم اتّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ شُفَعاء»(١) الآيتين. فانظر إلى قوله «من دون الله» وكما قال الله تعالى «قُل مَن ذا الذي يَعْصِمُكُم مِنَ اللهِ إن أرادَ بِكُم سُوءاً أو أرَادَ بِكُمْ رَحمة»(٢).

أمّا الشفاعة التي يعتقدها أهل التوحيد وجاء بها الكتاب والسنّة فهي بعيدة من هذا بُعد الايمان عن الكفر والنور عن الظلمة، وهي دعاء الشافع للمشفوع فيه فيستجيب بفضله لمن شاء، وهو معنى الاستثناء في قوله تعالى «إلّا بإذنه» والمراد هنا بالإذن الرضا كما قال في الآية الأُخرى «ولا يَشفعُونَ إلّا لمنِ ارتضىٰ» (٣) وكقوله: «وَكَم مِن مَلَكٍ في السمٰواتِ لا تُغني شَفَاعَتُهُمْ شيئاً إلّا مِنْ بَعْد أن يأذَنَ الله لمن يشاء وَيَرضىٰ»(٤).

وبهذا يتبيّن لك الفرق بين ما أثبته القرآن من الشفاعة وبين ما نفاه منها، وهو ما كان بغير إذنه ورضاه، جلّ أن يكون في ملكه إلا ما يشاء، أمّا الشفاعة بإذنه ورضاه من عباده المصطفين الأخيار لعصاة الموحّدين فهي جائزة بل واقعة لثبوتها بالتواتر وليس فيها محذور، واعتقادها من الدين، فإنها من باب الدعاء

---

(١) سورة الزمر: آية ٤٣.

(٢) سورة الأحزاب: آية ١٧.

(٣) سورة الأنبياء: آية ٢٨.

(٤) سورة النجم: آية ٢٦.

وهو تعالىٰ يستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله.

وعسىٰ أن يكون قد وضح لك إن شاءالله ما هو معنى العبادة شرعاً، وحينئذٍ تعلم أنه ليس من عبادة غير الله في شيء أن يبتغي المسلم الى الله الوسيلة](*).

هذا نصّ ما أفاده العلّامة القضاعي، أتينا به لما فيه من فوائد جمّة، وقد أوضحنا حالها في كلامنا، فلاحظ أيّها القارىء المنصف.

(*) فرقان القرآن: ص١١١ ـ ١١٥. ولاحظ بقية كلامه فإنها نافعة.

الفصل الثاني عشر

الاستعانة بأولياء الله في حياتهم

إنَّ طلب شيء ما ـ من أولياء الله تعالىٰ ـ يقع بأشكال مختلفة، نشير إليها فيمايلي:

١ ـ أن نطلب من الانسان الحيّ بأن يُعيننا في بناء دار أو سقي ماء.

٢ ـ أن نطلب من الانسان الحي بأن يدعو الله ويستغفره لنا.

هاتان الصورتان تشتركان معاً في كون المطلوب أمراً طبيعياً، والمطلوب منه قادراً على إنجازه، ويفترقان في أن الطلب الأول يرتبط بالدنيا والثاني بالآخرة.

٣ ـ أن نطلب من الانسان الحي إنجاز عمل، بدون الاستعانة بالأسباب المادّية له، بأن نطلب منه ـ مثلاً ـ شفاء المريض بدون دواء، أو استرداد الشيء المفقود بدون البحث عنه، أو أداء الدَّين بدون العمل على تحصيل المال.

و بعبارة أُخرىٰ: نطلب منه إنجاز العمل عن طريق المعجزة أو الكرامة(١) من دون أن يستعين بالأسباب المادّية والطبيعية.

---

(١) «المعجزة» تُطلق على ما يصدر من المعصوم ـ كالنبيّ والإمام ـ من خوارق العادة، ←

٤ ـ أن نطلب من الانسان الميّت أن يدعو الله لنا، ويكون الطلب منه نابعاً من الاعتقاد بأنه حيٌّ يُرزَق في عالَم الآخرة.

٥ ـ أن نطلب من الانسان بأن يستعين بقدرة الله ـ التي مَنَحَها إيّاه ـ علىٰ شفاء مريضنا أو إعادة مفقودنا، أو غير ذلك.

و هاتان الصورتان هما كالصورة الثانية والثالثة، لكن الفرق بينهما هو أن الطلب هناك كان من الانسان الحي في عالَم المادَّة والطبيعة، وهنا من الانسان الميّت في الظاهر، والحيّ في الواقع.

و علىٰ هذا فلا يمكن أن نطلب من الميّت بأن يُعيننا ـ في الشؤون المادّية ـ بواسطة الأسباب والعوامل المادّية، وذلك لأن المفروض انقطاع الميّت عن عالَم المادّيات بارتحاله من هذه الدنيا.

أيّها القارئ الكريم: هذه خمسة أقسام من الاستعانة، ثلاثة منها تختصّ بالانسان الحي في عالَم المادّيات، وإثنان تختصّ بالانسان الحي في العالَم الآخَر.

نحن الآن نتحدّث عن الصور الثلاث الأُولىٰ، ونؤجّل الحديث عن الاستعانة بأولياء الله ـ الأحياء في عالَم الآخرة ـ الى الفصل القادم إن شاء الله.

و إليك البحث عن الأقسام الثلاثة:

لإثبات نبوّته أو إمامته، و«الكرامة» تُطلق على ما يصدر من غيرهم من سائر أولياء الله الصالحين مثل ما ورد في حقّ السيّدة مريم في القرآن الكريم.

الصورة الأُولىٰ:

إن الاستعانة بالأحياء للشؤون العاديَّة ـ التي لها أسباب طبيعيّة ـ تُشكِّل الحَجَر الأساسي للتمدّن البشري، حيث إن حياة البشر ـ في الكرة الأرضية كلّها ـ تقوم على أساس التعاون، وأن العقلاء في العالَم يتعاونون لأُمورهم الحيويّة.

إن حكم هذه الصورة واضحٌ جداً، لدرجةٍ أنه لم يستنكره أحد، ولم يعترض عليه إنسان وبما أنّ بحثنا قائم على ضوء القرآن والأحاديث، فإننا نُعالج هذه المسألة من الزاوية القرآنية، ونكتفي بآيةٍ واحدة.

عند ما أراد «ذوالقَرنين» أن يبني سَدّاً يحول دون هجوم «يأجوج» و «مأجوج» إلتفت الى سُكّان المنطقة وقال:

«فَأَعينُوني بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً»(١).

الصورة الثانية:

إن الاستعانة بالانسان الحي ـ في هذا العالَم الماديّ ـ للدعاء الى الله تعالىٰ بالخير والاستغفار منه، هي من الضرورات الواضحة التي لا يختلف فيها اثنان، و القرآن الكريم يؤكّد على ذلك في موارد متعدّدة، و القيام بجولةٍ خاطفة في رحاب الآيات الكريمة يُثبت لنا أن الأنبياء كانت عادتهم الدعاء لأُممهم بالخير

---

(١) سورة الكهف: آية ٩٥.

والهداية والرشاد، أو أن الأمم نفسها كانت تطلب من أنبيائها الدعاء لها بالمغفرة والخير.

والآيات كثيرة، وهي على أقسام، نذكرها على الأرقام التالية:

١ ـ تارة يأمر الله تعالىٰ نبيّه المصطفىٰ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أن يستغفر لأُمّته، فيقول:

«فَاْعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ في الْأَمْرِ» (١).

«فَبايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحيمٌ» (٢).

«خُذْ مِنْ أَمْوالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكّيهِمْ بِها، وَصَلِّ عَلَيْهِمْ، إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَميعٌ عَليمٌ» (٣).

وفي هذه الآية الأخيرة يأمر الله تعالىٰ نبيّه محمّداً ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ بالدعاء لهم، وأن دعاءه يبعث السكينة والطمأنينة في قلوبهم.

٢ ـ وتارةً كان الأنبياء يَعِدون المذنبين والعاصين بالاستغفار لهم في الفرصة المناسبة، فمثلاً يقول تعالىٰ:

«إلاّ قَوْلَ إبْراهيمُ لأَبيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ» (٤).

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٥٩.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٥٩.

(٣) سورة الممتحنة: آية ١٢.

(٤) سورة الممتحنة: آية ٤.

«سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبّي إِنَّهُ كانَ بي حَفِيّاً»(١).

«وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهيمُ لأَبيهِ إِلّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيّاهُ»(٢).

إن هذه الآيات الكريمة تدلّ على أن الأنبياء كانوا يبشّرون المذنبين بالاستغفار، حتىٰ أن النبيّ إبراهيم ـ عليه السّلام ـ وَعَدَ «آزر» بالاستغفار له، ولكنه لمّا رأىٰ آزر مُصرّاً علىٰ عبادة الإصنام عَدَل عن وعده، لأنّ من شروط استجابة الدعاء أن يكون المدعوّ له مؤمناً بالله تعالىٰ.

٣ ـ وقد أمر الله تعالىٰ المؤمنين المذنبين بالحضور عند رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وطلب الاستغفار لهم منه، لأن الله يغفر لهم ببركة استغفار النبيّ لهم، يقول سبحانه:

«وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوّاباً رَحيماً»(٣).

فأيَّةُ آيةٍ أوضح من هذه الآية التي يأمر الله المذنبين ـ من هذه الأُمّة ـ بالحضور عند رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وطلب الاستغفار منه لهم؟!

إن المجيء الى رسول الله و طلب الاستغفار منه له فائدتان:

الأُولىٰ: إنه يبعث في الانسان روح الطاعة والانقياد لرسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وذلك بالانتباه والتوجّه الى عظمة

---

(١) سورة مريم: آية ٤٧.

(٢) سورة التوبة: آية ١٤٤.

(٣) سورة النساء: آية ٦٤.

النبيّ و وجاهته عندالله، بحيث إن استغفاره له يوجب مغفرة الله له.

و بصورة عامّة... الحضور عند النبيّ وطلب الاستغفار منه يوجب الخضوع له، ويُهيّيء الانسان نفسياً لامتثال قوله تعالىٰ:

«أطيعوا الله وَ أطيعُوا الرّسُولَ»(١).

الثانية: إن هذا يجسّد منزلة النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- لدىٰ الأُمَّة، ويبيّن لهم أن الإفاضة المادّية كما أنها متوقّفة على أسباب وعوامل طبيعية كذلك الإفاضة المعنوية -التي هي مغفرة الله لعباده- تأتي عبر أسباب خاصّة، مثل دعاء النبيّ وأولياء الله للانسان.

اذا كانت الشمس منبعاً للإضاءة والطاقة والحرارة، وكانت هذه الخيرات تنزل على عبادالله بسببها، فإن الفيوضات الإلٰهيّة والخيرات الربّانيَّة تنزل على عبادالله بسبب شمس النبوّة الساطعة وتشملهم بالخير والرحمة.

إن عالَم الوجود هو عالَم الأسباب والمسبّبات، وإن الخيرات المادّية والمعنوية تأتي عبر الأسباب المناسبة لها.

٤ ـ و يستفاد من بعض الآيات الكريمة أن المسلمين كانوا يحضرون عند رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- دوماً و يسألونه الدعاء والاستغفار لهم، ولمّا اقترح المسلمون على المنافقين بالحضور عندالنبيّ الكريم وطلب الدعاء والاستغفار منه، رفضوا

---

(١) سورة النساء: آية ٥٩.

ذلك كما يقول سبحانه:

«وَإذا قيلَ لَهُمْ تَعالَوا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوا رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ»(١).

٥ ـ و تشهد بعض الآيات الكريمة أن الناس كانوا يدركون ـ بفطرتهم النزيهة ـ بأنّ لدعاء النبي تأثيراً خاصّاً لهم، وأن الله تعالىٰ يستجيب دعاءهم بلا تردّد، ولهذا كانوا يسألونه الدعاء والاستغفار لهم من الله سبحانه.

إن الناس كانوا يستلهمون من فطرتهم السليمة أن الفيض الإلهي والرحمة الربّانيَّة تدرّ عبر دعاء الأنبياء، كما أن هداية الناس وإرشادهم يتمّ عبرهم، ولهذا كانوا يقصدونهم ويسألون منهم الاستغفار، كما جاء في القرآن الكريم ـ في قصّة إخوة يوسف بعد أن وقفوا على خطأهم وسوء تصرّفهم بالنسبة الى أخيهم يوسف ـ قوله تعالىٰ:

«قالُوا يا أبانا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إنّا كُنّا خاطِئينَ، قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبّي إنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحيمُ»(٢).

٦ ـ هناك آيات كريمة يُحذّر فيها الله تعالىٰ نبيّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ من الدعاء والاستغفار للمنافقين الذين لا زالوا علىٰ عبادة الأصنام، وذلك لأن عبادتهم لغير الله يمنع من مغفرة الله لهم، حتىٰ لو استغفر لهم النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ممّا

(١) سورة المنافقون: آية ٥.

(٢) سورة يوسف: آية ٩٧ و ٩٨.

يدلّ على أن استغفار النبي نافذ ومؤثّر إلّا لمن يعكف على عبادة الأصنام، لأن عبادة الأصنام مانعة من الاستجابة، فمَثَل استغفار النبيّ لهم كمَثَل الماء الزلال الذي يهطل علىٰ الأرض الصلبة المانعة من نفوذ الماء فيها، يقول تعالىٰ:

«إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعينَ مرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَاللهُ لَهُمْ»(١).

«سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَستَغْفِرْلَهُمْ، لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ»(٢).

«وَلَمّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِجْزُ قالُوا يا مُوسىٰ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ، لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِجزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَني إسْرائيلُ»(٣).

إن المذنبين سألوا النبيّ موسىٰ -عليه السّلام- الدعاء لهم، وتدلُّ جملة «بما عَهِدَ عندَك» علىٰ أنهم كانوا يعلمون بأن الله تعالىٰ عهداً مع موسىٰ.

أمّا قوله تعالىٰ: «ادعُ لنا ربَّك» ففيه احتمالان:

الأول: أن يكون طلب الدعاء لكشف العذاب عنهم عن طريق المعجزة، وذلك بإيمانهم بقدرة النبيّ موسىٰ على ذلك -بالاستعانة بقدرة الله سبحانه-.

ومع صحة هذا الاحتمال فإن هذه الآية تدخل في البحث

---

(١) سورة التوبة: آية ٧٩.

(٢) سورة المنافقون: آية ٦.

(٣) سورة الأعراف: آية ١٣٤.

عن الصورة الثالثة ـ وهي الاستعانة بالانسان الحي للقيام بعمل إعجازيّ خارق للأسباب المادّية ـ وسوف يأتي البحث عنها إن شاء الله تعالىٰ.

الاحتمال الثاني: أن يكون طلب مجرَّد الدعاء لكشْف العذاب، لا المعجزة وخَرق العادة.

و الظاهر هو الاحتمال الثاني، لأن المفهوم من جملة «ادعُ لنا ربّك» هو مجرَّد الدعاء لكشف العذاب.

نعم... ليس في الآية إشارة الى أن الله تعالىٰ لا يستجيب دعاء موسىٰ في حقّ المشركين وعَبَدة العجل، وإنما الإشارة سبقت في آيات أُخرىٰ.

٧ ـ يُستفاد من بعض الآيات القرآنية بأن بعض المؤمنين كان يستغفر للبعض الآخر، كما في قوله تعالىٰ:

«وَ الَّذينَ جاؤُا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا اغْفِرْ لَنا وَلِإخْوانِنا الَّذينَ سَبَقُونا بِالإيمانِ»(١).

٨ ـ وبالاضافة الى أُولئك المؤمنين المستغفرين فإن حَمَلة العرش يستغفرون للمؤمنين أيضاً، كما في قوله تعالىٰ:

«اَلَّذينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بَحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذينَ آمَنُوا، رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً، فَاغْفِرْ لِلَّذينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبيلَكَ وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحيمِ»(٢).

---

(١) سورة الحشر: آية ١٠.

(٢) سورة المؤمن: آية ٧.

بناء علىٰ هذا فما أحسنَ أن نتّبع هؤلاء في هذه السيرة المرضيّة لله تعالىٰ، ونستغفر الله للمذنبين.

الى هنا تمَّ البحث عن الصورة الأُولىٰ والثانية... والآن إليك البحث عن:

الصورة الثالثة:

و هي الاستعانة بالانسان الحيّ -القادر على المعجزة وخَرق العادة- من أجل تنفيذ عملٍ ما، عن طريق الإعجاز، ودون اللجوء الىٰ الأسباب المادّية، كشفاء المريض وتفجير الماء من عين يابسة، وما شابه ذلك.

إن بعض المؤلّفين الأعاظم يعتبرون هذا الصورة -من الاستعانة- داخلة في الصورة الثانية ويقولون: إن المقصود من المعجزة هو أن يسأل الانسان ربّه بأن يشفي مريضه أو يُسدِّد دُيونه وغير ذلك، لأن هذه الأفعال خاصّة بالله تعالىٰ، ومادعاء النبّي والامام إلّا وسيلة الى الله تعالىٰ، ولهذا فإن نسبة هذه الأفعال الى النبيّ والامام هي من باب المجاز لا الحقيقة(١).

إلّا أن في القرآن آيات تَدلّ -بوضوح- على أن طلب هذه الحوائج من الأنبياء والأولياء أمرٌ صحيح وليس مَجازاً، فإننا إذ نطلب من المعصوم نفسه -القادر على المعجزة- بأن يشفي المريض -الذي صعب علاجه- فإن ذلك يتحقّق بحول الله وقوّته.

---

(١) كشف الارتياب: ص ٢٧٤.

صحيح أن القرآن الكريم يعتبر الشفاء من اختصاص الله تعالىٰ فيقول:

«وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفينِ»(١).

إلّا أنه في الوقت نفسه ينسب الشفاء الى القرآن والعسل أيضاً فيقول:

«وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنينَ»(٢).

«يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ، فيهِ شِفاءٌ لِلنّاسِ»(٣).

«قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما في الصُدُورِ»(٤).

و السؤال الآن: ما هو وجه الجمع والتوافق بين هذه الآيات؟

الجواب: إن النظر الصائب في الجمع بين هاتين المجموعتين من الآيات ـ التي تجعل الشفاء من اختصاص الله تعالىٰ، وتثبته للعسل والقرآن والمواعظ الإلٰهية ـ هو أن الله سبحانه مُؤثِّرٌ في الأشياء بالاستقلال، ومعتمدٌ على ذاته المقدّسة في الأُمور كلّها، بينما العسل والقرآن والمواعظ الإلٰهية تترك تأثيرها في الأشياء بإذن الله وإرادته سبحانه.

إن النظرة الاسلامية ـ الى الكون والحياة ـ تَعتبر جميع العوامل والمؤثّرات تابعة لإرادة الله وقادرة على التأثير بإذنه سبحانه، وأن

(١) سورة الشعراء: آية ٨٠.

(٢) سورة الإسراء: آية ٨٢.

(٣) سورة النحل: آية ٦٩.

(٤) سورة يونس: آية ٥٧.

العلل والأسباب لا تملك أدنىٰ استقلال لها أبداً من دون فرق بين الأسباب الطبيعية والروحية.

وعلىٰ هذا الأساس فلا مانع ـ على ضوء القرآن والعقل ـ أن يمنح الله ـ الذي جعل الشفاء في العسل والأدوية النباتية والكمياوية ـ أن يمنح نفس تلك القدرة للأنبياء والائمة ـ عليهم السّلام ـ.

انظر الى المرتاضين(١) كيف يتمكّنون من بعض التصرّفات الغريبة، فما المانع من أن يتفضَّل الله علىٰ الأنبياء والائمة ـ عليهم السّلام ـ بقدرة الإشفاء، ويجعلهم قادرين علىٰ القيام بأعمال محيِّرة للعقول وخارقة للأسباب المادّية والطبيعية؟!!

إن قدرة الأنبياء و الأئمة ـ عليهم السّلام ـ على شفاء المريض والقيام بأعمال استثنائية لا تُنافي أن يكون الله هو السبب الحقيقي والعلَّة الأساسية لها، وذلك بأن مَنَحهم القدرة على التصرُّف في الكون ـ بإذنه تعالىٰ ـ عند الحاجة والمصلحة.

والجدير بالذكر أن في القرآن الحكيم آيات تصرّح بأن الناس كانوا يراجعون الأنبياء ـ وغير الأنبياء أيضاً ـ كي يقوموا بأعمال استثنائية خارقة للعادة الطبيعة.

و إليك بعض تلك الآيات:

«وَ اَوْحَيْنا اِلىٰ مُوسىٰ إذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أن اضْرِبْ بَعَصاكَ

---

(١) المرتاض: هو الذي يقوم بالرياضة الروحيّة و التمارين الشاقَّة، ليمنح روحه شفّافيّة خارقة، تمكّنه من بعض التصرّفات الغريبة، طبعاً تلك الشفّافيّة شيطانيّة وليست رحمانيّة، ولهذا فهي تزول مع ترك تلك التمارين.

الحَجَر»(١).

يدلّ ظاهر هذه الآية على أن بني إسرائيل طلبوا من النبيّ موسىٰ -عليه السّلام- في وقت الجفاف وعدم توفّر الماء أن يُهيّىء لهم الماء بالطُرق الغيبية والمعجزة، لا بالأسباب المادّية الطبيعية.

و ترىٰ واضحاً -في الآية- **أن بني إسرائيل لم يطلبوا من النبيّ موسى** أن يدعو الله و يسأله توفّر الماء، بل طلبوا منه أن يوفّر لهم الماء فجأةً ومن دون سبب ماديّ، ولهذا أمره الله بأن يضرب بعصاه الحجَر كي ينفجر منه الماء، بطريقة إعجازيّة، قال سبحانه:

«فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً»(٢).

و أوضح من هذه الآية هي الآية التي تحكي قصّة النبيّ سليمان -عليه السّلام- عند ما طلب من الحاضرين عنده بإحضار عرش بلقيس، على الرغم من الحواجز والموانع التي كانت في طريقه(٣) يقول تعالىٰ -حاكياً قول سليمان لمن حولَه-:

«أيُّكُمْ يَأتيني بِعَرْشِها قَبْلَ أنْ يَأتُوني مُسْلِمينَ»(٤).

لقد كان هدف سليمان -عليه السّلام- إحضار عرش بلقيس بطريقة غير عادية، ولقد تحقّق ذلك فعلاً بطريق خرق الطبيعة، كما قال سبحانه:

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٦٠.

(٢) سورة البقرة: آية ٦٠.

(٣) كان النبيّ سليمان في الاردن وكان عرش بلقيس في اليَمن، وبينهما مئات الفراسخ والكيلومترات.

(٤) سورة النمل: آية ٣٨.

«قالَ الَّذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ اِلَيْكَ طَرْفُكَ، فَلَمّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ»(١).

إن روح الموضوع وبيت القصيد هوتصوّر البعض بأن الأعمال العادية هي من صلاحيات الانسان، وأن الأعمال الاستثنائية ـ التي يعجز الناس منها عادة ـ خاصّة بالله سبحانه، وهذا هو الخطأ، لأن المقياس في تميز أفعال الله عن غيره هو الاستقلال وعدم الاستقلال فيها.

إن الأعمال الإلٰهية هي التي ينفّذها الفاعل ـ وهوالله ـ دون تدخّل الغير فيها ودون الاستعانة بقدرة الآخرين.

و بعبارة أُخرىٰ: إن الأعمال الإلٰهية هي التي يكون الفاعل مستقلاًّ تماماً في تنفيذها، ولا يحتاج الى الغير في إنجازها أبداً.

أمّا الأعمال غير الإلٰهية ـ سواء كانت بسيطة وعادية أوصعبة وغير عادية ـ فهي التي لا يكون الفاعل مستقلاً في تنفيذها، بل يتمّ التنفيذ تحت ظلّ قدرة مستقلّة وبالاستمداد منها، وهي قدرة الله تعالىٰ.

بناءً علىٰ هذا فليس هناك أيُّ مانع من أن يتفضَّل الله على أوليائه بالقدرة على إنجاز الأعمال الخارقة للعادة والطبيعة، والتي يعجز البشر عادة عن القيام بها.

يقول الله تعالىٰ للنبيّ عيسىٰ ـ عليه السّلام ـ :

---

(١) سورة النمل: آية ٤٠.

«تُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي»(١).

فما أصرحَ هذه الآية في الدلالة على الموضوع؟!

إن هذه المجموعة من الآيات تدلّ على أن أولياء الله كانوا يملكون هذه القدرة، وأن طلب الناس منهم القيام بالأعمال الإستثنائية والإعجازية كان أمراً مُتداولاً معروفاً.

أيّها القارئ الكريم: لقد تحدَّثنا ـ حتى الآن ـ عن الصور الثلاث للاستعانة بأولياء الله في حياتهم، على ضوء القرآن الكريم، وقد عرفتَ بأن القرآن يُصرّح بصحة تلك الصوَر ويؤكّد عليها في آيات متعدّدة.

أمّا التحدُّث عن الصورتين الأخيرتين اللّتين تتعلّقان بالاستعانة بالأرواح المقدَّسة فسيأتيك في الفصل القادم إن شاءالله تعالىٰ.

---

(١) سورة المائدة: آية ١١٠.

الفصل الثالث عشر

الاستعانة بأرواح أولياء الله

إن مسألة الاستعانة بأولياء الله ـ بعد وفاتهم وغيابهم عن هذه الحياة المادّية ـ هي أهمّ مسألة في بحث الاستعانة بأولياء الله، ولا فرق بين أن تكون الاستعانة بصورة الدعاء أو طلب المعجزة.

أمّا السبب في أهمّية هذه المسألة ـ عن التي سبقتها ـ فهو لأن المسلمين اليوم ليسوا في مَحضر نبيّ أو إمام كي يستعينوا به بصورة مباشرة(١) ولهذا فهم يستعينون بأرواحهم المقدّسة.

مِن هنا كان هذا البحث اكثر أهميَّة من الذي سَبَقه.

أيّها القارئ الكريم: إن البحث في هذا الموضوع يتوقَّف على التحدّث عن أربعة أُمور، ومن خلال التحدّث عنها والاطّلاع عليها تعرف جيّداً صحة الاستعانة والاستغاثة بالأرواح المقدّسة، والأُمور الأربعة هي:

---

(١) إنما عبَّرنا بـ «مَحضر» ولم نعبّر بـ «عصر» نظراً لأن الزمان لا يخلو من حجّة الله تعالىٰ، ونحن الآن في عصر الامام الثاني عشر المهدي المنتظر ـ عليه السّلام ـ ولكنه غائب عن الأبصار، ولهذا فلسنا في محضره الشريف. نسأل الله أن يعجّل في ظهوره ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً.

١ ـ بقاء الروح بعد الموت.

٢ ـ حقيقة الانسان هي روحه.

٣ ـ الاتّصال بعالَم الأرواح ممكن.

٤ ـ الأحاديث الصحيحة التي رواها المحدِّثون، وهي تنادي بصحة الاستعانة بأولياء الله، وأن سيرة المسلمين كانت جارية على ذلك.

وإليك الآن تفصيل هذه الأُمور الأربعة:

١ ـ موت الانسان لا يعني فناءه

إن الآيات القرآنية تدلّ ـ بوضوح ـ على أن الموت ليس هو النهاية للحياة، بل هو محطّة انتقال الى حياة جديدة، وبالموت يدخل الانسان في عالَم جديد أسمىٰ من عالَم المادّة والطبيعة.

إن كلّ من يعتقد بأن الموت فناءٌ وعَدَم، وأن الانسان يفقد كلّ شيء بالموت ولا يبقىٰ منه أثر، سوىٰ جسد لا روح فيه، ثم يتحوّل ذلك الجسد ـ بعد فترة من الزمن ـ الى التراب والعناصر الأُخرىٰ. إن كلّ من يعتقد هذا الاعتقاد فهو ـ في الحقيقة ـ يُقلّد الفلسفة المادّية ـ القائمة على إنكار ما وراء المادّة ـ تقليداً لا شعوريّاً.

إن أصحاب هذه النظرية لا يعتبرون الحياة إلّا نتيجة مادّية لسلسلة تفاعلات كيميائية وعمليات فيزيائية تحصل في المخّ والأعصاب، وعندما يفقد الجسم حرارته وتتوقّف الخلايا عن الحركة والانتاج، تتوقّف حياة الانسان أيضاً ويتحوّل الى جسد

جامد هامد.

و تذهب هذه النظرية الى أن الروح ليس إلّا انعكاساً للمادّة وآثارها وخواصّها، ومع فقدان هذه الآثار والخواص تبطل الروح وتفنىٰ تَبعاً للمادّة.

و لهذا فهؤلاء لا يعتقدون بوجود عالَم آخر باسم عالَم الأرواح.

إن نظرية كهذه تستلهم أفكارها من «الفلسفة المادّية» التي تعتبر الانسان كماكنة مركّبة من قِطَع وأجزاء مختلفة، وأن تأثير هذا الأجزاء على بعضها يولّد قدرة التفكير والإدراك في المخ، فاذا تعثَّرت هذا الأجزاء انعدمت آثار التفكير وتفنىٰ الحياة فناءً كاملاً.

إن كبار الفلاسفة والعلماء الإلٰهيّين يُفنّدون تماماً نظريات المادّيين حول الروح ويقولون بأن للانسان ـ بالاضافة الى النظام المادّي الحاكم في جسمه، والتفاعلات المتبادلة وسلسلة الأعصاب ـ جوهراً أصيلاً اسمه «الروح»، وهذا الجوهر يُلازم البَدن فترة من الزمان ثم ينفصل عنه ويُحلّق في عالَم آخر اسمه «البَرزخ» ليلتحق بجسم لطيف هناك.

إن التحدّث عن بقاء الروح بعد الموت يستدعي كتاباً مستقلّاً حولَه، ولا يمكن البحث عنه ـ بالتفصيل ـ في هذه الصفحات المحدودة، وذلك لأن الآيات القرآنية و الأدلّة الفلسفية وتجارب الروحيّين الثابتة قد برهنت اليوم علىٰ بقاء الروح

الانسانية بعد الموت.

و هنا نكتفي فقط بذكر بعض الآيات التي تثبت بقاء الروح بعدالموت.

القرآن و بقاء الأرواح

إن الآيات القرآنية تدلّ -بوضوح كامل- على بقاء الروح بعد الجسد، ولمراعاة الاختصار نذكرها ذكراً عابراً، على أمل أن نُقدّم تحليلاً لها في فرصة أُخرىٰ:

أ -«وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ في سَبيلِ اللهِ أمْواتٌ، بَلْ اَحْياءٌ وَلكِنْ لا تَشْعُرُونَ»(١).

ب- «وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلُوا في سَبيلِ اللهِ أمْواتاً بَلْ أحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ».

«فَرحينَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ...».

«يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمةٍ مِنَ اللهِ وَ فَضْلٍ»(٢).

ج -«إنّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاْسْمَعُونِ، قيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمي يَعْلَمُونَ بِما غَفَرَلي رَبّي وَجَعَلَني مِنَ الْمُكْرَمينَ»(٣).

إن المقصود من الجنّة التي أُمر أن يدخل فيها هي الجنة

(١) سورة البقرة: آية ١٥٤.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٦٩/١٧٠/١٧١.

(٣) سورة يٰس: آية ٢٥/٢٦/٢٧.

البرزخيَّة لا الجنة الأُخروية(١) بـدليل قوله تعـالىٰ: «يا لَيْتَ قَوْمي يَعْلَمُونَ بِما غَفَرَلي رَبّي وَجَعَلَني مِنَ الْمُكْرَمينَ».

إن تمنّي معرفة قـومه على مكانه لا يتّفق مع عالَم الآخرة التي «تُبلىٰ السرائر» فيها وتُـرفعُ فيها الأستار أمام الأنظار، ولا تخفىٰ -يومئذٍ- أحوال بعض الناس عن بعضهم، بل إنه ينسجم مع الحياة الدنيـا التي يعيش النـاس فيها منقطعين عن البـرزخ وقضاياها وما يجري على الناس فيها، وهذا ما يشهد به القرآن الكريم.

بـالإضـافة الى ذلك... إن الآية الأُخرىٰ التـالـية -بعد الآية المذكورة- تدلّ بأن قـوم ذلك الـرجل فارقوا الحيـاة -بعد ذلك- إثر صيحة سماوية عنيفة، يقول تعالىٰ:

د - «وَما أَنْزَلْنا عَلىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنّا مُنْزِلِينَ، إِنْ كانَتْ إِلّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذاهُمْ خامِدُونَ»(٢).

يُستفاد من هـاتين الآيتين بأن قوم الرجل -الذي دخل الجنّة- كانـوا يعيشون في هذه الحياة، ثم فاجأهم الموت بغـتة، فهذه الجنّة ليست إلّا جنّة البرزخ.

هـ - «اَلنّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهاغُدُوّاً وَعَشِيّاً، وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذابِ»(٣).

مع الانـتباه الـىٰ هاتين الآيتين يظهر لنـا حياة آل فرعون في

---

(١) البرزخ: هو العالَم الذي يتوسّط الدنيا ويوم القيامة.

(٢) سورة يٰس: آية ٢٨/٢٩.

(٣) سورة المؤمن: آية ٤٦.

عالَم البرزخ، حيث إنهم يُعرضون على النار في الصباح والمساء الى قيام الساعة، فاذا قامت القيامة أدخَلوهم -في أشدّ العذاب- جهنم.

ولولا قوله تعالىٰ: «وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ» لما ظهر المقصود من الآية، ولكن دليل على أن ما قبلها يعود الى عالَم البرزخ.

أضف الى ذلك: إن موضوع الصباح والسماء يدلّ على أن المقصود ليس يوم القيامة، وذلك لأنه لاصباح ولا مساء في ذلك اليوم.

أيّها القارئ الكريم: كان هذا بحثاً موجزاً عن حياة الانسان بعد الموت، والآن جاء دور التحدُّث عن الأمر الثاني وهو:

٢ ـ حقيقة الانسان هي روحه

يبدو للانسان -في الوهلة الأُولىٰ- أنه مركَّب من الروح والجسَد معاً، ولكن حقيقة الانسان هي روحه التي تلازم جسده.

نحن الآن لسنا في مقام التحدُّث عن هذا الموضوع من الوجهة الفلسفية الاسلامية واليونانية، بل إن هدفنا هو دراسة الموضوع على ضوء كتاب الله الذي لا ريب فيه.

إن التأمّل في الآيات التي تتحدّث عن الانسان، يكشف لنا -بكلّ وضوح- أن حقيقة الانسان هي روحه، إقرأ هذه الآية:

«قُلْ يَتوفّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الّذي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمّ اِلىٰ رَبِّكُمْ

تُرْجَعُونَ»(١).

إن كلمة «توفّىٰ» لا تعني الإماتة ـ كما هو معروف ـ بل تعني الأخذ والقبض، ولهذا فإن قوله تعالىٰ: «يَتَوَفَّاكُمْ» معناه: يأخذكم ويقبضكم، وإنما يكون هذا التعبير صحيحاً اذا كانت الروح هي الوجود الحقيقي للانسان، فهي التي «تُقبَض» و «تُوخَذ» (٢).

أمّا لو كانت الروح تُشكّل جزءً من شخصية الانسان والجزء الثاني هوجسمه، فإن هذه العبارة تكون مَجازاً، لأن المفروض أنَّ مَلَكَ الموت يقبض أحد الجزء ـ وهو الروح ـ وأمّا الجزء الثاني ـ وهو الجسد المادّي ـ فهويتركه باقياً في الدنيا، ثم يودَع في القبر ولا علاقة لَمَلكِ الموت به.

أيّها القارئ الكريم: إنّ الآيات التي تتحدّث عن الروح وموضعه من الانسان متعدّدة، وقد ذكرنا آية واحدة نموذجاً من ذلك.

و الأمر الأول الذي أشرنا اليه «بقاء الروح بعد الموت» يكشف هذه الحقيقة أيضاً، بأن الروح هي واقع الانسان ومصدر تكامله النفسي والمعنوي، كما أن الجسد بمثابة الرداء الذي يغطّي الروح ويكسوها.

---

(١) سورة السجدة: آية ١١.

(٢) لقد أجرىٰ المرحوم العلاّمة البلاغي بحثاً قيماً حول كلمة «توفّىٰ» في مقدمة تفسير آلاء الرحمن: ص٣٤.

و القرآن الكريم لا يعتبر الموت فناءً للانسان وخاتمةً لحياته، بل أنه يؤكّد ـ وخاصّة للشهداء والصالحين، والمجرمين أيضاً ـ أن لهم حياة أُخرىٰ تسبق يوم القيامة، وأن تلك الحياة مصحوبة بالفرح والبشرىٰ أو بالعذاب الأليم.

فاذا كانت حقيقة الانسان كامنة في جسده، فلا شكّ أن جسده سوف يتلاشىٰ بعد أيام من موته ودفنه، ويتحوّل الى عناصر أُخرىٰ، فأين عالَم البرزخ لوكان الحال هذا؟!!

٣ ـ الإتصال بعالَم الأرواح

هل يمكن الا تصال بعالَم الأرواح؟

الجواب: نعم بكلّ تأكيد، وسوف نبرهن عليه على ضوء القرآن الكريم والأدلَّة العلمية.

إن إثبات بقاء الروح مجرَّداً عن المادّة، لا يكون كافياً في صحة الاستعانة والاستغاثة بها إلّا اذا ثبت إمكان الا تصال بذلك الروح من عالَم الدنيا.

في القرآن الكريم آيات متعدّدة تُثبت أن اتصال الانسان بعالَم الأرواح أمرٌ ممكن، بل تحقّق ذلك فعلاً، فمثلاً:

أ ـ النبيّ صالح ـ عليه السّلام ـ تحدّث الى أرواح قومه.

يقول تعالىٰ:

«فَعَقَرُوا النّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أمْرِ رَبِّهِمْ وَقالُوا يا صالِحُ أئتِنا بِما تَعِدُنا إن

كُنْتَ مِنَ الصادِقينَ».

«فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا في دارِهِمْ جاثِمينَ».

«فَتَوَلّىٰ عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ اَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النّاصِحينَ»(١).

تأمّل هذه الآيات:

الآية الأُولىٰ: تشير الى أنهم -يوم كانوا على قيد الحياة- طلبوا منه العذاب الإلٰهي الموعود.

الآية الثانية: تُشير الى نزول العذاب عليهم وموتهم جميعاً.

الآية الثالثة: تُشير الى مقالة النبيّ صالح -عليه السّلام- بعد موتهم وفنائهم، حيث تأسّف علىٰ المصير الأسود الذي اختاروه لأنفسهم وقال -مخاطباً لهم-: «يا قَوْمِ لَقَدْ اَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ وَلٰكِنْ لا تُحِبُّونَ الناصِحينَ». والدليل على أن هذا الخطاب من النبيّ صالح كان بعد موتهم هو كالتالي:

١ - تنظيم و تنسيق الآيات بالشكل الذي سبقت الإشارة اليه.

٢ - حرف «الفاء» في كلمة «فَتَوَلّىٰ» الذي يدلّ على الترتيب، وقد جاءت بعد قوله تعالىٰ: «فَأَصْبَحُوا في دارِهِمْ جاثمينَ»

(١) سورة الأعراف: آية ٧٧و٧٨و٧٩. لقد ذُكر في بعض الآيات أن العذاب الذي نزل عليهم كان صيحة سماوية -كما في سورة هود: آية ٦- وفي بعضها أن العذاب كان صاعقة ناريّة -كما في سورة فُصّلتْ: آية ١٧- وفي بعضها أنه كان زلزلة ورجفة، ووجه الجمع بين هذه الآيات هو أن الصيحة السماوية والصاعقة كانت مصحوبة بالزلزلة.

مما يدلّ على أن خطاب النبيّ صالح لقومه كان بعد نزول العذاب عليهم.

ويُفهم من قوله: «وَلٰكِنْ لا تُحِبُّونَ الناصِحين» ان اُولئك كانوا علىٰ حدٍّ من العناد والشقاء بحيث إن أرواحهم - حتىٰ بعد مماتهم - كانت رافضة للموعظة والنصيحة.

ب - النبيّ شعيب - عليه السّلام - تحدَّث الى أرواح قومه أيضاً.

إقرأ هذا الآيات:

«فأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا في دارِهِمْ جاثمينَ».

«الَّذينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوا فيها، الَّذينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الخاسِرينَ».

«فَتَوَلّىٰ عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسىٰ عَلىٰ قَوْمٍ كافِرينَ»(١).

إن الإستدلال بهذه الآيات هو كالإستدلال السابق بالآيات المرتبطة بالنبيّ صالح وقومه.

ج - النبيّ محمّد - صلّى الله عليه وآله وسلّم - مع الأنبياء.

يقول تعالىٰ:

«وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ»(٢).

---

(١) سورة الأعراف: آية ٩١ و ٩٢ و ٩٣.

(٢) سورة الزخرف: آية ٤٥.

إن ظاهر هذه الآية يـدلّ عـلـى أن بإمكان النبـيّ ـصلّى الله عليه وآله وسلّم ـ الـذي يعـيش في هذه النشأة الطبيعية أن يتّصل بالأنبياء الذين يعيشون في النشأة الأُخرىٰ، كي يثبت للمشركين أن جميع الأنبياء ـوفي كلّ العصورـ كانوا يدعون الى توحيد الله وعبادته.

د ـ سلام القرآن علىٰ الأنبياء

إن القرآن الكريم يُسلّم على الأنبياء، في مواضع متعدّدة، ولا شكّ أن هذا السلام ليس سلاماً سطحياً أجوفاً، بل هو سلام حقيقيّ وتحية جِدّية يوجّهها القرآن الىٰ أنبياء الله ورسُله.

و من غير الإنصاف أن يحاول أحدٌ تفسير آيات القرآن الكريم تفسيراً سطحياً سَخيفاً، يتحوّل الى مجموعة ألفاظ فارغة جوفاء.

إن المادّيين ـالذين لا يعتقدون بالروح و المعنويّات ـ يبعثون السلام والتحية الى قادتهم وشخصيّاتهم، في عبارات جوفاء.

أمّا نحن المسلمين فنمتّع بالعقيدة الصحيحة تجاه الروح، وعليه فلا يصحّ أن نفسّر المفاهيم القرآنية ـالنابعة من الحقيقة والواقعـ تفسيراً قشريّاً، بأن نقول: إن كافّة التحيّات في القرآن ـوالتي نتلوها في آناء الليل وأطراف النهارـ ليست إلّا مُجاملات جوفاء وفي مستوىٰ تحيّات المادّيين.

انظر الى القرآن يُسلّم على الأنبياء:

١ ـ «سَلامٌ عَلىٰ نُوحٍ في الْعالَمينَ».

٢ ـ «سَلامٌ عَلىٰ اِبْراهيمَ».

٣ ـ «سَلامٌ عَلىٰ مُوسىٰ وَ هارُونَ».

٤ ـ «سَلامٌ عَلىٰ ال ياسين».

٥ ـ «سَلامٌ عَلَىَ الْمُرسَلينَ»(١).

هـ ـ السلام على النبيّ عند ختام الصلاة

إن جميع المسلمين في العالم ـ بالرغم من الخلافات المذهبية بينهم في فروع الدين ـ يُسلّمون على رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ في الصلاة عند ختامها فيقولون:

«اَلسَّلامُ عَلَيْكَ أيُّهاالنبيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ».

و قد افتىٰ الشافعي و آخرون ـ بوجوب هذا السلام بعد التشهد، وأفتى الآخرون باستحبابه، لكن الجميع متّفقون على أن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ علّمهم السّلام(٢) وأن سُنّة النبي ثابتة في حياته و بعد وفاته.

والسؤال الآن: اذا كانت صِلَتُنا وعلاقتُنا بالنبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قد انقطعت بوفاته، فما معنىٰ مخاطبته والسّلام عليه يومياً؟!

---

(١) سورة الصافات: آية ٧٩ و ١٠٩ و ١٢٠ و ١٣٠ و ١٨١.

(٢) راجع كتاب تذكرة الفقهاء: ج١، و كتاب الخلاف للشيخ الطوسي: ج١ ص٤٧ لمعرفة أقوال المذاهب والفقهاء في هذا المجال.

و قد روي عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أنه قال:

«مَنْ صَلّىٰ عَلَيَّ عِنْدَ قَبْري سَمِعْتُهُ، وَمَنْ صَلّىٰ عَلَيَّ مِنْ بُعْدٍ أُبْلِغتُهُ»(١).

هذا و قد تحدَّثنا بالتفصيل عن موضوع الا تصال بالأرواح في العالم الآخر في كتاب مستقل، وذكرنا هناك آيات متعدّدة حوله، ونكتفي هنا بهذه الآيات مراعاة للاختصار.

و ختاماً تجدر الاشارة الى أننا أوردنا الاستدلال بالسلام عند التشهد في خلال البحث عن الآيات المذكورة، بسبب قطعيَّته وثبوته الأكيد.

و إليك الآن نموذجين ـ من التاريخ ـ حول التحدّث مع الأرواح:

١ ـ روي عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أنه وقف على قليب «بَدْر»(٢) وخاطب المشركين ـ الذين قُتلوا واُلقيت أجسادهم في القليب ـ:

«لَقَدْ كُنْتُم جيرانَ سُوءٍ لِرَسُولِ اللهِ، أخْرَجْتُمُوهُ مِنْ مَنْزِلِهِ وَ طَرَدْتُمُوه، ثُمَّ اجْتَمَعْتُمْ عَلَيْهِ فَحارَبْتُمُوهُ، فَقَدْ وَجَدْتُ ما وَعَدَني رَبّي حَقّاً».

فقال له رُجل: يا رَسُولَ الله ما خِطابُكَ لِهامٍ قَدْ صُدِيَتْ؟(٣).

---

(١) كتاب حقّ اليقين للسيد عبدالله شُبَّر: ج٢ ص٧٣.

(٢) القليب: البئر.

(٣) الهام ـ جمع هامة ـ: الرأس. صُديت: تفسّخت، والمعنى: كيف تخاطب رؤوساً قد تفسّخت،

فقال ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ :

«وَاللهِ ما أنْتَ بِأَسْمعَ مِنْهُمْ، وَما بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنْ تَأَخُذَهُم الْمَلائِكَةُ بِمَقامِعَ مِنْ حَديد إلّا أَنْ أُعْرِضَ بِوَجْهي ـ هكذا ـ عَنْهُمْ»(١).

٢ ـ وروي أن الامام أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب ـ عليهما السّلام ـ ركب دابّته ـ بعد انتهاء حرب الجَمل في البصرة ـ وصار يتخلّل القتلىٰ، حتىٰ مرَّ علىٰ كعب بن سور ـ وكان قاضي البصرة منذ أيام عمر وفي أيام عثمان، ولمّا وقعت الفتنة بالبصرة خرج لحرب خليفة رسول الله وإمام زمانه، مع أهله وولده فقُتلوا جميعاً ـ فوقف عليه أميرالمؤمنين ـ عليه السّلام ـ وهو صريع بين القتلىٰ.

فقال ـ لمن حوله ـ :

«أَجْلِسُوا كَعْبَ بْنَ سُور».

فأجلسوه بين شخصين يمسكانه، فقال ـ عليه السّلام ـ :

«يا كَعْبَ بْنَ سُور! قَدْ وَجَدْتُ ما وَعَدَني رَبِّي حَقّاً، فَهَلْ وَجَدْتَ ما وَعَدَكَ رَبُّكَ حَقّاً»؟!

ثم قال:

«أَضْجِعُوهُ».

وسار قليلاً حتىٰ مرَّ بطلحة بن عبدالله صريعاً فقال:

«أَجلِسُوا طلحة».

---

(١) صحيح البخارى: ج٥ باب قتل أبي جهل ص٧٦ و٧٧، وسيرة ابن هشام: ج٢ ص٢٩٢، وحقّ اليقين للسيد عبدالله شبر: ج٢ ص٧٣.

فأَجلسوه، فقال ـ عليه السّلام ـ :

«يا طَلْحَةَ! قَدْ وَجَدْتُ ما وَعَدَني رَبّي حَقّاً، فَهَلْ وَجَدْتَ ما وَعَدَكَ رَبّي حَقّاً»؟!

ثم قال:

«أَضْجِعُوا طَلْحَةَ».

فقال له رجل:

«يا أميرالمؤمنين ما كلامُكَ لقتيلين لا يسمعان منك»؟!

فقال ـ عليه السّلام ـ :

«يا رَجُل وَاللهِ لَقَدْ سَمِعا كَلامي، كَما سَمِعَ أَهْلُ الْقَليبِ كَلامَ رَسُول اللهِ»(١).

نتيجة البحث

بصورة خاطفة نستخلص ما سبق من البحث فيما يلي:

١ ـ لقد أثبتنا ـ في الموضوع الأول ـ أن الموت ليس هو النهاية للحياة، ولا يعني فناء الانسان، إنما هو معْبَر ينتقل الانسان به الىٰ عالم آخر.

٢ ـ كما أثبتنا ـ في الموضوع الثاني ـ أن حقيقة الانسان هي روحه، وأن الجسد ليس إلّا رداء يُغطّي الروح، وبقاء الروح يعني بقاء المعنويّات والكمالات والشخصية الانسانية ـ باستثناء القدرات المادّية التي تزول بزوال الجسد ـ.

---

(١) حقّ اليقين للسيد عبدالله شُبّر: ج٢ ص٧٣.

و علىٰ هـذا الأساس... لو كـانـت لنفس الانسـان و روحه القدرة على الدعاء أو إنجاز أعمـال إعجازية ـعند ما كان على قيد الحياةـ فلروحه أيضاً الـقدرة على إنجاز كلّ تلك الأعمال بعد موته بإذن الله تعالىٰ.

٣ ـ و في الموضوع الـثـالـث أثبتنا إمكـان الا تّصال بـالـعالم الآخر، بـل وقوعه وحدوثه، وأن الأرواح قـادرة على سماع كلامنا وخطـابـنـا لهـا، ولا فـرق بين أرواح الصـالحين أو المجـرمين، كما سبقت القصص القرآنية والتاريخية عليك.

بعد الانتـبـاه الىٰ هـذه الأُمور الثلا ثة، ثـبـت أن أولـياء الله تعالىٰ يسمـعون كـلامنا وخطابنـا، واذا أَذِنَ الله لهم فـإنهم يردّون علينا الجواب.

و السؤال الآن: هل يجوز لنا ـشرعـاًـ مخاطبة أرواح أولياء الله والاستعانة بها؟

الجواب يأتيك في الأمر الرابع إن شاء الله تعالى.

٤ ـ المسلمون و طلب الحاجة من الأرواح المقدّسة

لقد تسرَّع ابن تيمـيّة ـوأتباعهـ في الحكم، فـأنكروا أن يكون الصحابة والتـابعون قد طلبوا حاجة من النبيّ ـصلّى الله عليه وآله وسلّمـ فهم يقولون:

«ولم يكن أحد من سَلف الأُمّة ـفي عصر الصحابة ولا التابعين ولا تابعي الـتـابعينـ يتـخيَّرون الصلاة والدعاء عـنـد قـبـور الأنبياء

ويسألونهم، ولا يستغيثون بهم لا في مغيبهم ولا عند قبورهم»(١).

لعلَّ الانسان الجاهل بتاريخ الصحابة والتابعين ينخدع بهذا الكلام ويتصوَّر صدقَه وصحته، ولكن سرعان ما يَثبت له كذب هذا الادّعاء وبطلانه اذا قام بنظرة خاطفة الى التاريخ، وقرأ بعينه توسُّل الصحابة وغيرهم بالنبي، والاستغاثة به ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ. وإليك بعض النماذج من ذلك:

١ ـ أصاب الناسَ قحطٌ في عهد عمر بن الخطاب، فجاء رجل الى قبر النبيّ ـ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ـ فقال: يا رسول الله استسق الله لأُمّتك فإنهم قد هلكوا. فأتاه رسول الله ـ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ـ في المنام فقال: ائتِ عمر، فأقرءه السلام وأخبِره إنهم مُسْقُون»(٢).

ثم يقول السمهودي ـ بعد ذِكر هذه القضية ـ:

«وَمحلُّ الاستشهاد طلب الاستسقاء منه ـ ص ـ وهو في البرزخ، ودعاؤه لربّه في هذه الحالة غير ممتنع، وعِلمه بسؤال مَن يسأله قد ورد، فلا مانع من سؤال الاستسقاء وغيره منه، كما كان في الدنيا»(٣).

٢ ـ و يروي السمهودي أيضاً عن الحافظ أبي عبدالله محمّد بن موسىٰ بن النعمان، بِسَنَدٍ ينتهي الى الامام عليّ أمير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ:

«ان أعرابياً جاء الى المدينة بعد ثلاثة أيام من دفن النبيّ ـ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ـ فرمىٰ بنفسه على قبر النبي وحثى من ترابه على رأسه

---

(١) رسالة الهدية السَنيّة: ص١٦٢ طبعة المنار في مصر.

(٢ و ٣) وفاء الوفا: ج٢ ص١٣٧١.

وقال: «يا رسولَ الله قلتَ فسمعنا قولك، ووعيتَ عن الله سبحانه ما وَعينا عنك، وكان فيما اُنزل عليك: «وَلَوْ اَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَسُولُ لَوَجَدُوا الله تَوّاباً رَحيماً»(١) وقد ظلمتُ نفسي وجئتك تستغفر لي»(٢).

أيّها القارئ الكريم: إن السمهودي يذكر ـ في كتابه وفاء الوفا، الباب الثامن ـ قضايا ووقائع كثيرة وكلّها تدلّ على أن الاستغاثة برسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ كانت سيرة مستمرّة للمسلمين، حتى أنه يقول: إن الامام محمّد بن نعمان كتب كتاباً حول هذا الموضوع بعنوان: مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام.

٣ ـ يقول محمّد بن المنكدر:

«أودَع رجلٌ أبي ثمانين ديناراً، وخرج للجهاد وقال لأبي: إن احتجتَ أنفِقها الى أن أعود، وأصاب الناسَ جُهدٌ من الغلاء، فأنفق أبي الدنانيرَ، فقدِم الرجل وطلب مالَه، فقال له أبي: عُد إليّ غداً، وبات في المسجد يلوذ بقبر النبيّ ـ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ـ مرّة وبمنبره مرّة، حتى كاد أن يُصبح، يستغيث بقبر النبي، فبينما هو كذلك واذا بشخصٍ ـ في الظلام ـ يقول: دونكها يا أبا محمّد، فمدّ أبي يده فاذا هو بصُرَّة فيها ثمانون ديناراً، فلما أصبح جاء الرجل فدفعها اليه»(٣).

---

(١) سورة النساء: آية ٦٤.

(٢) وفاء الوفا: ج٤ ص١٣٦١ و قد سَبق ذِكر هذا الحديث في فصلٍ سابق.

(٣) وفاء الوفا: ج٤ ص١٣٨٠.

٤ ـ يقول أبو بكر المقري:

«كنت أنا و الطبراني و أبوالشيخ في حرم رسول الله ـص ـ وكنّا على حالة وأثّر فينا الجوع، وواصلنا ذلك اليوم، فلمّا كان وقت العشاء حضرتُ قبر النبيّ ـص ـ فقلت: يا رسول الله: الجوع...

فحضَر بالباب عَلويٌّ فدقّ ففتحنا له، فاذا معه غلامان مع كلّ واحدٍ زنبيل فيه شيء كثير، فجلسنا، وأكلنا، وظننّا أن الباقي يأخذه الغلام، فولّى وترك عندنا الباقي، فلما فرغنا من الطّعام قال العَلوي: يا قوم أشكوتم الى رسول الله؟ فإني رأيت رسول الله في المنام فأمرني أن أحمل بشيء اليكم»(١).

٥ ـ يقول ابن جلّاد:

«دخلتُ مدينة النبيّ ـص ـ وبي فاقة، فتقدّمتُ الى القبر وقلت: ضيفُك. فغفوتُ فرأيت النبي فأعطاني رغيفاً، فأكلتُ نصفه، فانتبهتُ وبيدى النصف الآخر»(٢).

نحن الآن لسنا في مقام مناقشة هذه القضايا المذكورة، و بيان صحيحها من سقيمها، وإنما الكلام هو أن هذه الوقائع ـ بمجموعها ـ تشهد بأن الاستغاثة برسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ كانت سُنّة جارية بين المسلمين، ولو كانت بدعة ومحرّمة، أو شركاً وكفراً، لما ذكرها حتىٰ وُضّاع الحديث، خوفاً من تشويه سمعتهم بين الناس.

---

(١) وفاء الوفا: ج٤ ص١٣٨٠.

(٢) وفاء الوفا: ج٤ ص١٣٨١.

والجدير بالذكر، إننا قد أفردنا كتاباً مستقلاً بعنوان «اصالة الروح» وتحدّثنا فيه -بالتفصيل- عن كلّ ما يرتبط بهذا الموضوع، وأوردنا أحاديث وروايات كثيرة فيه، وكلّها تدلّ على صحة الدعاء والحاجة من الأرواح المقدّسة وصحة طلب إنجاز عمل إعجازي خارق للطبيعة منهم.

و في ختام هذا الفصل نجلب الانتباه الى الأُمور التالية:

١ - إن طلب الحوائج من أولياء الله ليس عبادة لهم أبداً، وخاصّة بعد أن تحدّثنا -بالتفصيل- عن معنى العبادة ومواردها، وأن الاعتقاد بالأُلوهيَّة والربوبيَّة هو الذي يصبغ العمل بصبغة العبادة، ومن الواضح أن المتوسّل بأولياء الله لا يعتقد بالوهيّتهم ولا بربوبيّتهم، ولا بتدبيرهم لشؤون الكون ولا بقيامهم بأفعال الله -بالاستقلال والاختيار- بل يعتبرهم عباداً مكرمين، أطهاراً طيّبين، وُجَهاء عندالله، مطيعين له، غير مرتكبين لأدنىٰ ذنب ومعصية.

٢ - إن الأُمور الأربعة المذكورة أثبتت -بالدليل والبرهان- أن أولياء الله يملكون القدرة على قضاء حاجة المتوسّل، نظراً لحياتهم عندالله، وأن كلّ ما يصدر منهم إنما هو بإذن الله تعالىٰ، فهم من مصاديق قوله تعالىٰ:

«وما تشاؤون إلّا أن يشاءَ الله».

فمثلاً: كما أن النبيّ عيسىٰ -عليه السّلام- كان في حياته المادّية في الدنيا يسأل الله تعالىٰ الخير لمن يريد، أو يُبرىء الأكمه

والأبرص(١) بإذن الله كذلك يملك هذه القدرة بعد الانتقال الى عالم الأرواح «البرزخ» لأن روحه ـ التي هي حقيقته ـ باقية.

٣ ـ إن التواضع والخضوع أمام قبور أولياء الله هو ـ في الحقيقة ـ تواضعٌ لله وخضوعٌ له، وإن كان في ظاهره تواضعاً لذلك الوليّ الصالح، إلّا أنه لو كشفنا الستار عن قلب ذلك المتواضع لرأينا أنه يتواضع لله من خلال تواضعه لوليّه الصالح، وأنه يطلب حاجته من الله بواسطة هذا الوليّ الصالح وبسببه، فالتوسُّل بالأسباب هو عين التوسُّل بمسبِّب الأسباب ـ وهو الله سبحانه ـ وهذا واضح لأهل البصيرة والمعرفة.

و أنتَ لو سألتَ المتوسِّل بأولياء الله عن الذي دعاه الى التوسُّل به، لأجابك ـ فوراً ـ بأنه «وسيلة» الى الله سبحانه، كما قال تعالىٰ:

«يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا اِلَيْهِ الْوَسيلَةَ، وَ جاهِدُوا في سَبيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»(٢).

فكما أن الانسان يتوسَّل الى الله بالصلاة والصوم والعبادات والطاعات، كذلك يتوسَّل اليه سبحانه بأوليائه الصالحين المكرَّمين لديه.

والخلاصة: إن المؤمن يعتقد ـ في قرارة نفسه ـ بأن توسُّله بالنبيّ

---

(١) الأكمه: الذي وُلد أعمىٰ. البرص ـ: مَرض جلدي يكون بظهور بُقَع بيضاء في الجسم.

(٢) سورة المائدة: آية ٣٥.

وغيره من المعصومين والصالحين يدفع ذلك المتوسَّل به الى السؤال من الله تعالىٰ لقضاء حاجة من توسَّل به، سواء كانت الحاجة غفران ذنب، أو أداء دَين، أو شفاء مريض، أو رفاهيَّة عيش، أو غير ذلك .

الفصل الرابع عشر

طلب الشفاعة من أولياء الله تعالىٰ

إن «الشفاعة» كلمة معروفة بيننا جميعاً، وهي تتردّدِ على ألسنتنا في وقتها المناسب، فمثلاً: اذا دار الحديث عن انسانٍ ارتكب جريمة وحكمت عليه المحكمة بالاعدام أو السجن أو غيرهما، ثم تدخَّل انسان آخر وتوسَّط له وأنقذه ممّا حُكم عليه عندها نقول: إن فلاناً «تشفَّع» لفلان.

معنىٰ الشفاعة

«الشفاعة» مشتقّة من مادة: الشفْع -بمعنى الزوج- ويُقابله: الوتر -بمعنىٰ الفرد- والسبب في إطلاق «الشفاعة» على الواسطة و«الشفيع» على الوسيط هو أن جهود الوسيط ومساعيه تَزْدَوِج مع عوامل الانقاذ والجهود والمساعي الأُخرىٰ الموجودة في المشفوع له، فتنقذ المذنب أو المتَّهم من ورطته.

إن شفاعة أولياء الله للمذنبين تأتي بسبب قُرب هؤلاء من الله تعالىٰ، ومكانتهم وجاههم عنده سبحانه، فهم يشفعون -بإذن الله وضمن شروط خاصّة- للمذنبين والمجرمين كي يغفرالله لهم أو

يقضي حوائجهم.

وبعبارة أُخرىٰ: إن الشفاعة إعانةٌ من أولياء الله ـ بإذن الله ـ لأشخاص لم يقطعوا روابطهم المعنوية مع الله وأوليائه، بالرغم من أنهم مذنبون، هذا تعريف دقيق يجب الانتباه اليه دائماً.

وبتعبير ثالث: إن الشفاعة هي إعانة موجود عال لموجود دان، بشرط أن تكون في الداني القابلية والاستعداد لشمول الشفاعة له، من حيث صلاحيّته للتكامل والرقي الى مرتبة عالية ودرجة سامية، وتُحوّله الى إنسان صالح نزيه.

بعد هذه التعاريف المتعدّدة نقول: إن التاريخ الاسلامي يُثبت أن المسلمين منذ عهد رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وما بعده كانوا يطلبون الشفاعة من أولياء الله الصالحين، سواء في حياتهم أو بعد وفاتهم، ولم يَعتبر أحدٌ من علماء الاسلام بأن هذه الشفاعة مُعارضة للمبادىء والأُصول الاسلامية.

حتى جاء ابن تيميّة ـ في القرن الثامن الهجري ـ بأفكار شاذّة وآراء سقيمة، فاستنكر كثيراً من مبادئ الاسلام وسُنن المسلمين.

وبعده بثلاثة قرون جاء محمّد بن عبدالوهّاب النجدي، فرفع راية الخلاف مع المسلمين وأحدث الفتنة والشقاق بينهم، وأحيىٰ مبتدعات ابن تيميّة بأشدّ ممّا كان عليه.

إن الوهّابيّة تعتقد بالشفاعة ـ من حيث المبدأ ـ ولكن نقطة الخلاف بينها وبين المسلمين هي أنها تُحرِّم الاستشفاع بأولياء الله في الدنيا، وقد عبَّر الوهّابيّون عن عقيدتهم هذه بعبارات قاسية

متضمِّنة للإهانة والاستخفاف بالأنبياء والأولياء، ونحن نتورَّع حتىٰ عن ذِكر تلك العبارات.

وممّا يقولون في الشفاعة: إن نبيّ الاسلام -صلّى الله عليه وآله وسلّم- وسائر الأنبياء والأولياء والملائكة، لهم حقّ الشفاعة في الآخرة فقط، لكن طلب الشفاعة يجب أن يكون من الله لا منهم، بأن يُقال:

«اللّهُمَّ شَفِّعْ نَبِيَّنا مُحَمّداً فينا يَوْمَ الْقِيامَة. أوْ: اللّٰهُمَّ شَفِّعْ فينا عِبادَكَ الصالِحينَ. أو: مَلائِكَتَكَ أونحو ذلك ممّا يُطْلَبُ مِنَ الله لا مِنْهُمْ، فَلا يُقالُ: يا رَسُولَ الله -أو- يا وَلِيَّ الله أسْأَلُكَ الشْفاعَةَ أو غيرها ممّا لا يَقدرعليه إلّا الله، فاذا طلبتَ ذلك في أيام البرزخ كان من أقسام الشرك»(١).

وهكذا ترىٰ الوهّابيّين يرمون المسلمين بالشرك، لأنهم يسألون الشفاعة من النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- وأولياءالله الصالحين في الدنيا والآخرة.

نحن قبل أن نتطرّق الى مناقشة أدلّة الوهّابيّين، نبدأ -أوّلاً- بدارسة المسألة علىٰ ضوء القرآن الكريم والسُنّة الشريفة وسيرة المسلمين، ثم نتناول أدلّة الوهّابيّين بالبحث والمناقشة.

الأدلّة على جواز طلب الشفاعة في الدنيا

إن دليلنا على جواز طلب الشفاعة في الدنيا يتركّب من

(١) الهديّة السنيّة -الرسالة الثانية- ص٤٢.

أمرين، ومع ثبوتهما يتّضح الموضوع بالكامل. أمّا الأمران فهما:

١ ـ إن طلب الشفاعة هو طلب الدعاء بالضبط.

٢ ـ إن طلب الدعاء من الصالحين أمرٌ مستحبٌّ في الاسلام.

و إليك البحث عن هذين الأمرين:

١ ـ طلب الشفاعة هو طلب الدعاء بالضبط

إن شفاعة النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وسائر الشفعاء الصالحين ليست سوىٰ الدعاء الى الله تعالىٰ، إذ أنهم ـ لمنزلتهم الوجيهة عندالله وكرامتهم عليه ـ يبتهلون اليه سبحانه بالدعاء وطلب المغفرة للمذنبين، والله تعالىٰ يستجيب دعاءهم فيشمل عباده العاصين برحمته ومغفرته ويغسل ذنوبهم ويكفّر سيّئاتهم.

إن طلب الدعاء من الأخ المؤمن هو أمرٌ مُسْتَحسن ولم يتردَّد في حُسنه أحدٌ من علماء الاسلام والمذاهب المتعدّدة ـ حتى الوهّابيّة ـ فكيف بدعاء النبيّ والأولياء الصالحين؟!!

طبعاً... لا يمكن القول بأن الشفاعة معناها الدعاء في مواقف يوم القيامة، ولكن يمكن القول بأن من المعاني الواضحة للشفاعة هو الدعاء، وأن مَن يُخاطب أحد أولياءالله ويقول: «يا وَجيهاً عِنْدَالله إشْفَعْ لَنا عِنْدَالله» لا يقصُد إلّا هذا المعنى.

يروي نظام الدين النيشابوري ـ في تفسير قوله تعالىٰ:

«مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها»(١).

---

(١) سورة النساء: آية ٨٥.

يروي عن مقاتل أنه قال:

«اَلشَّفاعَةُ اِلَى اللهِ اِنَّما هِيَ الدَّعْوَةُ لِمُسْلِم».

و قد روي عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أن من يدعو لأخيه المسلم بظهر الغيب يُستجاب دعاؤه وتقول الملائكة: ولك مثلُه.

إن ابن تيميّة هو من الذين يعتبرون طلب الدعاء من الانسان الحيّ صحيحاً، وعلىٰ هذا الأساس فانّ طلب الشفاعة لا يختصّ من النبيّ وأولياء الله، بل يجوز ذلك من كلّ مؤمنٍ يحظىٰ بالوجاهة والمنزلة عنده سبحانه.

و الفخر الرازي هو أحد الذين يُفسّرون «الشفاعة» بالدعاء والتوسُّل الى الله تعالىٰ، فقد قال ـ في تفسير قوله سبحانه:

«وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيءٍ رَحْمَة»(١).

قال:

«هذه الآية تدلّ على حصول الشفاعة من الملائكة للمذنبين(٢)... واذا ثبت هذه في حقّ الملائكة فكذلك في حقّ الأنبياء، لانعقاد الاجماع على أنه لا فرقَ».

و قال أيضاً:

و أيضاً قال تعالىٰ لمحمّد ـ ص ـ: «وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ» فأمَر محمّداً أن يذكر ـ أوّلاً ـ الاستغفار لنفسه، ثم بعده

(١) سورة غافر: آية ٧.

(٢) لأن في نهاية الآية قوله تعالىٰ: «وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحيم».

يذكر الاستغفار لغيره، وحكىٰ عن نوح ـ عليه السّلام ـ أنه قال: «رَبِّ اغْفِرْلي وَلِوالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنينَ وَالْمُؤْمِناتِ»(١).

إن هذا التوضيح من الفخر الرازاي شاهدٌ على أنه يرىٰ معنى الشفاعة هو دعاء الشفيع للمذنب، وطلب الشفاعة هو طلب الدعاء منه.

و قد ورد في الأحاديث الشريفة أن دعاء المسلم لأخيه المسلم هو شفاعة له، فعن ابن عبّاس عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أنه قال:

«ما مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلىٰ جَنازَتِهِ أرْبَعُونَ رَجُلاً لا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئاً إلّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فيهِ»(٢).

لقد جاء ـ في هذا الحديث ـ تعبير «شفَّعهم الله فيه» للذين يدعون لأخيهم المسلم.

و انطلاقاً من هذا الحديث فلو أن رجلاً أوصىٰ ـ في حياته ـ الى أربعين رجل من أصدقائه الأوفياء بأن يقوموا على جنازته بعد وفاته و يدعو له، فهو بذلك قد طلب الشفاعة منهم، وهيّأ أسباب شفاعة عبادالله لنفسه.

---

(١) تفسير الفخر الرازي: ج٧، ص٣٣ و ٣٤. أقول: لقد ثبت بالأدلّة القطعية أن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وغيره من الأنبياء معصومون عن كلّ خطإٍ وذنب، مُطهَّرون من كلّ معصية، ولهذا فالمقصود من قوله تعالىٰ: «لذنبك» ليس هو المعصية والمخالفة، والتفصيل يطلب من مَحلِّه.

(٢) صحيح مسلم: ج٣ ص٥٤.

وقد أفرد البخاري ـ في صحيحه ـ باباً بعنوان «اذا استشفعوا الى الامام ليستسقي لهم، لم يردّهم» وأفرد أيضاً باباً آخر بعنوان «اذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط»(١).

و تدلّ الأحاديث التي ذكرها في هذين البابين أن طلب الشفاعة هو طلب الدعاء بذاته، ولا يجوز تفسير ذلك بمعنى آخر.

الى هنا ننتهي من الاستدلال الأول، وقد ثبت أن طلب الشفاعة ليس إلّا طلب الدعاء لا غير.

و الآن نبدأ البحث عن الموضوع الثاني وهو أن طلب الدعاء من المؤمن مستحب، فكيف من الأنبياء وأولياء الله تعالىٰ ؟!:

٢ ـ القرآن و طلب الدعاء من الصالحين

إن الآيات القرآنية تشهد بأن طلب النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ المغفرة من الله لبعض عباده مُفيدٌ ونافعٌ جدّاً... يقول تعالىٰ:

١ ـ «وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ»(٢).

٢ ـ «وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ» (٣).

فما دام دعاء النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ يترك هذا الأثر الكبير والنتيجة الحسَنة لمن دعا له، فما المانع من أن يطلب

(١) صحيح البخاري: ج١.

(٢) سورة محمّد ـ صلّى الله عليه وآله ـ: آية ١٩.

(٣) سورة التوبة: آية ١٠٣.

الانسان من أن يدعو له، مع العلم أن طلب الدعاء ليس إلّا طلب الشفاعة منه، قال تعالىٰ:

٣ ـ «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوّاباً رَحيماً»(١).

إن معنى قوله تعالىٰ: «جاؤُكَ» أي: جاؤا الى النبي وطلبوا منه الدعاء والاستغفار لهم، ولو لا هذا لكان مجيئهم لغواً وباطلاً.

إنّ تشرّفهم بالحضور عند النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وطلبهم الدعاء والاستغفار منه دليلٌ على حدوث ردّ فعلٍ في نفوسهم، وحصول تغيير يُمهِّدْ الأرضية المناسبة لاستجابة الدعاء.

٤ ـ يروي القرآن الكريم عن أولاد يعقوب ـ عليه السّلام ـ أنهم طلبوا من أبيهم أن يستغفر الله لهم، فلبّىٰ النبيّ يعقوب طلبهم، ووفىٰ بوعده، قال تعالىٰ:

«قالُوا يا أبانا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنّا كُنّا خاطِئينَ، قالَ سَوفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبّي...»(٢).

إن كلّ هذه الآيات تدلّ على أن طلب الدعاء من الأنبياء والصالحين ـ الذي هو طلب الشفاعة أيضاً ـ لا يتنافىٰ مع الأحكام الشرعية والقواعد والموازين الاسلامية.

أيّها القارئ الكريم: هناك أحاديث كثيرة بشأن طلب الدعاء من الأولياء الصالحين، وقد صَرفنا النظر عن ذكرها مراعاةً للاختصار.

---

(١) سورة النساء: آية ٦٤.
(٢) سورة يوسف: آية ٩٧ و ٩٨.

٣ ـ الأحاديث النبوية و سيرة الصحابة

روىٰ الترمذي ـ في صحيحه ـ عن أنس أنه قال:

«سَأَلْتُ النَّبيَّ أنْ يَشْفَعَ لي يَوْمَ الْقيامَةِ فَقالَ: أَنا فاعِلٌ، قُلْتُ: فَأَيْنَ أَطْلُبُكَ؟ قالَ: عَلى الصِّراط»(١).

و يأتي سواد بن قارب الى رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ويطلب منه الشفاعة في أبياتٍ أنشَدَهن... ومنها:

فكن لي شفيعاً يومَ لا ذوشفاعةٍ
بمُغْنٍ فتيلاً عن سواد بن قاربِ(٢)

و جاء في التاريخ: أن رجلاً اسمه «تُبّع» كان قبل النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ بأكثر من ألف سنة، وكان قد بلغه أن نبيّ آخرالزمان سوف يظهر من مكّة، فكَتب كتاباً ودفعه الى بعض أقربائه، كي يُسلّموه الى رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وذَكر فيه إسلامه وايمانه وأنه من أُمّة رسول الله، وجاء فيه:

«فَإِنْ لَمْ أُدْرِكْكَ فَاشْفَعْ لي يَوْمَ الِقيامَةِ وَلا تُنْسِني».

و مات الرجل و كان الكتاب ينتقل من واحد لاخر حتىٰ بُعث النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فلما وصَل الكتاب بيده قال ـ ثلاث مرّات ـ:

«مَرْحَباً بِالأَخِ الصّالِح»(٣).

---

(١) سنن الترمذي: ج٤ ص٤٢ باب ما جاء في شأن الصراط.

(٢) الدرر السَنيّة لزيني دحلان: ص٢٩.

(٣) المناقب لابن شهراشوب: ج١ ص١٦، بحارالأنوار: ج١٥ ص٢٢٤.

فاذا كان طلب الشفاعة شركاً بالله، لما عبّر النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ عن تبّع بـ «الأخ الصالح» ولما قال ثلاثاً «مرحباً».

هذه بعض الأحاديث التي تُثبت جواز طلب الدعاء والشفاء من رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ في حياته الكريمة.

٤ ـ طلب الشفاعة بعد الموت

و يُستفاد من مجموعة من الروايات أن الصحابة كانوا يطلبون الشفاعة من رسول الله ـ صلّى الله عليه و آله و سلّم ـ بعد وفاته، وإليك بعض النماذج:

١ ـ قال ابن عبّاس: لمّا فرغ أميرالمؤمنين ـ عليه السّلام ـ من تغسيل النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قال:

«بِأبي أنْتَ وَأُمّي... طِبْتَ حَيّاً وَطِبْتَ مَيّتاً... وَاذْكُرْنا عِنْدَ رَبّك»(١).

٢ ـ و يُروىٰ أنه لمّا توفي رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ كشَفَ أبوبكر عن وجهه وقبّله وقال:

«بِأبي أنْتَ وَأُمّي، طِبْتَ حَيّاً وَمَيّتاً، اذْكُرْنا عِنْدَ رَبّك»(٢).

إن هاتين الروايتين ـ وأمثالها ـ تدلّ على أنه لا فرق بين طلب الشفاعة من الشفيع في حياته و بعد وفاته، وقد كان الصحابة

(١) نهج البلاغة: رقم الخطبة ٢٣٠.

(٢) كشف الارتياب: ص٦٥ نقلاً عن خلاصة الكلام.

يطلبون الدعاء من النبيّ ـصلّى الله عليه وآله وسلّمـ بعد وفاته، فلو كان طلب الدعاء منه صحيحاً بعد وفاته فانَّ طلب الشفاعة ـالذي هو نوع من طلب الدعاءـ سيكون صحيحاً أيضاً(١).

والخلاصة: بالاستناد الى ما سبق من الآيات والروايات وسيرة المسلمين ـعلى مرِّ العصور والقرونـ يُعتبر طلب الشفاعة أمراً بديهيّاً لا يترك أيَّ مجال للشكّ فيه أبداً.

---

(١) لقد أفردنا كتاباً حول الشفاعة وذكرنا فيه مائة حديث، أربعة وأربعين منها مِن كُتب أُهل السنّة والباقي منها مِن كُتب الشيعة، فراجِع لمزيد الاطلاع.

الفصل الخامس عشر

أدلّة الوهّابيّين على حرمة طلب الشفاعة

لقد ذكرنا في الفصل السابق أدلّة جواز طلب الشفاعة ـ من آيات وأحاديث ـ والآن جاء دور ذِكر أدلّة الوهّابيّين على حرمة ذلك، ومناقشتها مناقشة موضوعية «لِيُحقَّ الله الحقَّ بكلماته».

لقد استدلّ الوهّابيّون على حرمة طلب الشفاعة بأُمور نذكرها فيما يلي:

١ ـ طلب الشفاعة شرك بالله

إن ما تعنيه الوهّابيّة من الشرك هو الشرك في العبادة، حيث إنها تزعم أن طلب الشفاعة من الشفيع هو عبادته.

لقد تحدّثنا ـ في فصل سابق وبالتفصيل ـ عن العبادة ومعناها، وذكرنا بأن أيَّ طلب من الانسان ـ حتىٰ طلب الشفاعة ـ إنما يكون عبادة اذا كان مقروناً بالاعتقاد بأنه: «إلٰهٌ وربٌّ» أو «مصدر لأفعال الله ومُدبِّر مستقلّ لشؤون الكون وقائم بما يرجع اليه سبحانه».

إن طالب الشفاعة من الشفعاء الصالحين ـ الذين أذِنَ الله لهم

بالشفاعة- إنما يعتبرهم عباداً لله، مقرَّبين لديه، وُجَهاء وكُرماء عليه، وليس هناك أيّ اعتقاد بالوهيّتهم ورُبوبيّتهم أو كونهم مصدراً مستقلاّ لأفعال الله تعالىٰ أو أن الشفاعة والمغفرة قد فُوِّضت اليهم تفويضاً مطلقاً لايحتاج الى إذن الله سبحانه.

كلّا، إن الشفعاء الصالحين إنما يشفعون في إطار «إذن الله سبحانه» لمن يستحقّ الشفاعة ويليق بها، بأن تكون علاقاتهم المعنوية متّصلة بالله، غير مقطوعة مع الشفعاء.

و من الواضح أن طلب الشفاعة من الميّت لو كان معناه عبادته لكان الطلب من الشفيع الحي عبادة له أيضاً.

و قد ذكرنا -في فصلٍ سابق- أن القرآن يدعو المسلمين الى الحضور عند رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- وطلب الاستغفار لهم من الله سبحانه، وليس هٰذا الطلب سوىٰ طلب الشفاعة من النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- في حياته، ولا يمكن أن يكون هذا العمل شركاً في زمان، واعتقاداً بوحدانيَّة الله في زمان آخر.

كما ذكرنا أيضاً -في فصل الاستعانة بأولياء الله- أن الاستشفاع بالوليّ الصالح اذا لم يكن باعتقاد اُلوهيَّته وربوبيَّته فلا يُعتبر شركاً أبداً، فمثلاً يقول تعالىٰ:

«وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»(١).

فيحصر الاستعانة بذاته المقدّسة، ثم يقول أيضاً:

---

(١) سورة الفاتحة: آية ٥.

«وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ»(١).

فهل يقول قائل: إن الاستعانة بالصبر شِركٌ بالله؟!

طبعاً.. لا، لأن الاستعانة المحرَّمة هي المقرونة بالايمان بربوبيّة غيرالله سبحانه، وهذا ما لا يؤمن به أحد من المسلمين.

٢ ـ المشركون والتشفّع بالأصنام

بعد إبطال الدليل الأول للوهّابيّة على حرمة طلب الشفاعة من الأولياء، يأتي دور إبطال الدليل الثاني وهو: إن الله تعالىٰ إنما اعتبر عَبَدة الأصنام مشركين، لأنهم كانوا يطلبون الشفاعة من أصنامهم، وكانوا يبكون أمامها ويطلبون الوساطة منها، كماقال تعالىٰ:

«وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هٰؤلاء شُفَعاؤُنا عِنْدَاللهِ»(٢).

وعلىٰ هذا الأساس فإن مطلق طلب الشفاعة من غير الله يُعتبر شركاً بالله وعبادة للشفيع.

الجواب:

أولاً: ليست في هذه الآية أيّة دلالة على ما ترتئيه الوهّابيّة أبداً، لأن القرآن عند ما يَعتبر أُولئك مشركين فليس لأجل طلبهم

---

(١) سورة البقرة: آية ٤٥.

(٢) سورة يونس: آية ١٨.

الشفاعة من الأصنام، بل بسبب عبادتهم لها، عبادة تؤدّي بهم الى الاستشفاع بها أيضاً.

و لو كان مُجرَّد طلب الشفاعة من الأصنام عبادة لها و موجباً للشرك، لما كانت هناك حاجة الى قوله تعالى: «وَيَقُولُونَ هٰؤُلَاء شُفَعاؤُنا» بل كان قوله سبحانه: «وَ يَعْبُدُونَ» كافياً لنسبة الشرك اليهم، فإضافة الجملة الثانية على الأُولىٰ دليل على أنهما شيئان مُستقلّان، وأن موضوع عبادة الأصنام يفترق عن موضوع طلب الشفاعة منهم.

إن عبادة الأصنام دليل على الشرك بالله تعالىٰ، و أمّا الاستشفاع بالحجَر و الخشَب فهو دليل على الجهل و الحمق و عدم المعرفة.

بالإضافة الى أن الآية لا تدلّ على أن طلب الشفاعة من الأصنام هو عبادة لها، فكيف يمكن اعتبار الاستشفاع بأولياء الله دليلاً على عبادتهم؟!!

فالآية لا ترتبط بالبحث إطلاقاً.

ثانياً: لنفرض ـ جَدَلاً ـ أن علّة الشرك في أُولٰئك هو استشفاعهم من الأصنام، ولكن بين استشفاع المشركين بالأصنام و استشفاع المسلمين بأولياء الله فرقٌ كبير و بُعدٌ واسع كما بين السماء و الأرض، لأن المشركين كانوا يعتبرون الأصنام مالكة للشفاعة والمغفرة، وكأنَّ الله تعالىٰ في مَعزل عنها تماماً، والأصنام هي صاحبة الاختيار، فمن الواضح أن هذا الاستشفاع هو عبادة

للأصنام، لأنه مقرون مع الاعتقاد بربُوبيّتها واُلوهيّتها ومَصْدَريّتها لأفعال الله وشؤون الكون.

هذا... في حين أن الانسان المسلم يطلب الشفاعة والدعاء من الشفيع باعتباره عبداً مقرَّباً الى الله، وعبداً وجيهاً مأذوناً من عندالله في الشفاعة.

بالله عليك أيّها القارئ: ألَا يكون القول بعدم الفرق بين هذين مُخالفاً للعقل ومُنافياً للمنطق وبعيداً عن الإنصاف؟!!

أَلا تُدرك الفرق جيّداً بينهما كما تدرك الفرق بين ظلام الليل ونور النهار؟!!

٣ ـ طلب الحاجة من غير الله حرام

بعد إبطال الدليل الثاني للوهّابيّة على حرمة الاستشفاع من أولياء الله، يأتي الدليل الثالث وهو عدم جواز الدعاء وطلب الحاجة من غيرالله تعالىٰ، والاستشفاعُ من الأولياء نوعٌ من طلب الحاجة، فهو حرامٌ بنَصّ القرآن الكريم، قال تعالىٰ:

«فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أحَداً»(١).

فالجمع بين القول بحرمة دعاء غير الله تعالىٰ وبين ثبوت الشفاعة للأولياء هو الدعاء الىٰ الله بأن يُشفِّع أولياءه في حقّ الانسان.

و الدليل على أن دعاء غيرالله عبادة للمدعوّ، هو قوله تعالىٰ:

---

(١) سورة الجن: آية ١٨.

«أُدْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ، إِنَّ الَّذينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتي سَيدخُلوُنَ جَهَنَّم دَاخِرينَ»(١).

فلو تأمّلنا في الآية لرأينا أنها بُدأتْ بلفظ «الدعوة» وخُتمتْ بلفظ «العبادة» وهذا دليل على أن مفهوم الكلمتين واحد، وقد روي عن النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم-:

«الدُعاء مُخُّ العِبادَة»(٢).

الجواب:

أولاً: ليس المقصود من تحريم دعوة غيرالله -في قوله سبحانه: «فلا تدعوا»- الدعوة المطلقة، بل المقصود هو تحريم العبادة لغيرالله، والدليل على هذا هو بداية الآية حيث قال تعالىٰ:

«وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلّهِ فَلا تَدْعُوا...».

فالآية - بمجموعها - تدلّ على أن الدعوة المحرّمة هي المقرونة بالعبادة والاعتقاد بالوهيّة ذلك المدعوّ وربوبيّته وتَصرُّفه في شؤون الخلق والكون(٣) وليس هذا الاعتقاد موجوداً لمن يتشفّع به المسلمون من أولياء الله تعالىٰ - كما هو واضح -.

ثانياً: إن ما تُحرّمه الآية وتنهىٰ عنه أن ندعو مع الله أحدا،

(١) سورة غافر: آية ٦٠.

(٢) سفينة البحار: مادة «الدعاء».

(٣) فقوله تعالىٰ: «فَلا تدعُوا مَعَ اللهِ اَحَداً» معناه: فلا تعبدوا مع الله أحداً، كما يقول سبحانه في آية اخرىٰ: «وَالَّذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلهاً آخر» سورة الفرقان: آية٦٨: أي لا يعبدون مع الله إلهاً آخر.

ونجعله مساوياً في الدعاء، كما تدلّ علىٰ هذا جملة «مع الله» فإذا طلب إنسان من النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- أن يبتهل الى الله بالدعاء والتوسّل لقضاء حاجته وغفران ذنوبه، فليس معناه أنه دعا مع الله أحدا، بل إن هذا الدعاء -في الحقيقة- ليس إلّا دعاء الله سبحانه.

و اذا كانت بعض الآيات تَعتبر طلب الحاجة من الأصنام شركاً فإنما هو بسبب أنهم كانوا يعتبرون الأصنام آلهة صغاراً تملك الإختيار الكامل لأفعال الله تعالىٰ، كلّها أو بعضها، ولهذا ترىٰ القرآن الكريم ينتقد هذه الأفكار الباطلة فيقول:

«وَالّذينَ تَدعُونَ مِنْ دونِهِ لا يَسْتَطيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ»(١).

و يقول أيضاً:

«إنَّ الّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُون اللهِ عِبادٌ أمْثالُكُمْ»(٢).

و خلاصة القول: إن المشركين كانوا يعتبرون أصنامهم آلهة صغاراً، وأن أفعال الله تعالىٰ مفوَّضة اليها بشكل مطلق،، لكنّ طلب الشفاعة والدعاء من إنسان منَحه الله هذا الحقّ وهذه المنزلة فاقد لهذه الخصائص والشروط. فأين ذاك مع الاعتقاد بكرامة وليّ صالح و وجاهته عندالله والتشفّع به الى الله سبحانه؟!

قليلاً من الإنصاف والموضوعيّة!

(١) سورة الأعراف: آية ١٩٧.

(٢) سورة الاعراف: آية ١٩٤.

«أفلا تعقلون»؟!

ثالثاً: إن كلمة «الدعوة» لها معنىً واسعاً، حتىٰ أنها تُستعمل -أحياناً ومن باب المجاز- في العبادة أيضاً، كما استدلّوا به في الآية(١) والحديث(٢) مع العلم أن هذه الاستعمالات الجزئية المجازية لا تكفي، دليلاً على أن نُفسّر «الدعوة» بمعنى العبادة دائماً، وأن نَعتبر طلب الحاجة والدعاء من أحدٍ شركاً.

٤ ـ الشفاعة حقٌّ خاصٌّ بالله فقط

أيّها القارئ الكريم: بعد إبطال الدليل الثالث للوهّابيّة نذكر الدليل الرابع وهو قوله تعالىٰ:

«أم اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعاءَ، قُلْ أوَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ، قُلْ للهِ الشَفاعَةُ جَميعاً»(٣).

و وجه الاستدلال بهذه الآية هو تصريحها باختصاص الشفاعة بالله سبحانه.

إذن: ماذا يعني طلب الشفاعة من غيرالله؟

الجواب:

ليس معنى قوله تعالىٰ: «لله الشفاعة جميعاً» ان الشفاعة خاصّة

---

(١) وهي: «ادعوني أستجب لكم».

(٢) وهو: الدعاء مُخّ العبادة.

(٣) سورة الزُمر: آية ٤٣ ـ ٤٤.

بالله ولا يحقّ لغيره أن يشفع، لأنه لا شكّ أن الله لا يشفع لأحدٍ عند آخر، بل يعني أنه تعالىٰ مالكُ أصل الشفاعة لا الأصنام، وذلك لأن الشفيع يجب أن يكون ذاعقلٍ وشعورٍ أولاً ومالكاً للشفاعة ثانياً، في حين أن الأصنام تفقد هذين الوصفين، ولهذا قال سبحانه:

«قُلْ: ١ ـ أوَلَو كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً.

٢ ـ وَلا يَعْقِلُونَ».

إذن: تركيز الآية إنما هو على أن الله تعالىٰ هو مالك الشفاعة لا الأصنام، وأن الله يمنح هذه الصلاحية لمن تتوفَّر فيه اللياقة والأهليَّة ليستشفع لعباده،فلا علاقة لهذه الآية مع الموضوع الذي نتحدّث عنه، لأن المسلمين يعتبرون الله وحده «مالك الشفاعة» وليس أولياؤه، ويعتقدون أنّ مَن أذِن الله له في الشفاعة قادرٌ علىٰ الاستشفاع دون غيره.

كما أن المسلمين يعتقدون ـ بالاستناد الى الآيات والأحاديث ـ بأن الله تعالىٰ قد أذِن للنبي وآله الأطهار ـ عليهم السّلام ـ بالشفاعة، ولذلك فنحن نستشفع بهم.

وهكذا ظهرلك ـ أيها القارئ ـ عدم العلاقة بين تلك الآية وهذا البحث، وعدم العلاقة أيضاً بين الحديث الذي ذكروه وهذا البحث.

٥ ـ لَغْويّة الاستشفاع بالميّت

إن آخر دليل ذكره الوهّابيّون ـ علىٰ حرمة الاستشفاع من

الأولياء- هو أن طلب الشفاعة من أولياء الله في هذه الحياة هو طلب الحاجة من الميّت الفاقد للسمع، وقد استدلّوا على ذلك بآيتين:

١ - «إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوتىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُمَّ الدُعاءَ إِذا وَلَّوا مُدْبِرِينَ»(١).

و وجه الاستدلال بها: أن القرآن الكريم شبَّه المشركين بالأموات، وهي تُخاطب النبي -صلّى الله عليه وآله وسلّم- بأنك لا تستطيع أن تُفهم هؤلاء، لأنهم كالموتىٰ لا يسمعون، فلو كان الموتىٰ قادرين على التكلّم والسماع لما صحَّ تشبيه المشركين بالموتىٰ.

٢ - «إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ في القُبُورِ»(٢).

و الاستدلال بهذه الآية كالاستدلال بالآية السابقة، في عدم قدرة الموتىٰ على السماع والتكلّم، وعلى هذا فالاستشفاع منهم كالاستشفاع من الجمادات.

الجواب:

إن الشرذمة الوهّابيّة تلجأ دوماً الى مسألة الشرك في ردّ الفِرق والمذاهب الاسلامية، وتتّهم المسلمين بالكفر تحت ستار الدفاع عن وحدانية الله واختصاص العبادة به.

---

(١) سورة النحل: آية ٨٠.

(٢) سورة فاطر: آية ٢٢.

و لكنها -في هذا الاستدلال- غيَّرتْ اسلوبها وتشبَّثتْ بالقول: إن الاستشفاع بالأولياء لغوٌ ولا فائدة فيه، لكونهم موتىٰ.

و لكن هذه الشرذمة -الغريبة عن القرآن- تجاهلت و تغافلت عن الأدلّة العقلية والشرعية التي تُثبت حياة الأولياء بعد الموت.

لقد أثبت فلاسفة الاسلام أن الروح -بعد ما تتجرَّد عن هذا الجسم المادّي وتستغني عنه- تَظلّ باقية الى مالانهاية، وتتمتع بحياة وإدراك خاصّ، وقد ذكر الفلاسفة الإلهيّون عشرة أدلَّة عقلية على هذا الموضوع، ممّا لم يترك مجالاً للشكّ والتردّد فيه، لأهل الإنصاف والوجدان.

وبالاضافة الى الأدلّة العقلية... فهذا كتاب الله يُنادي -بأعلىٰ صوته- بالحياة بعد الموت(١) وكذلك مئات الأحاديث الشريفة المرويَّة في هذا المجال.

فما هذا الدليل العليل أيّها الوهّابيّون؟!

و تسأل: فما معنى تلك الآيتين؟

الجواب: إن معناهما أن الأجساد الراقدة تحت التراب غير قادرة على الفهم والإدراك، وهذا طبيعي، إذ أن الجسد عندما يتجرَّد عن الروح يبقىٰ جماداً لا فهم له ولا إدراك.

و لكن النقطة المهمّة -هنا- هو أن الذين نُخاطبهم ونستشفع

---

(١) راجع آية ١٦٩ و ١٧٠ من سورة آل عمران، وآية ٤١ من سورة النساء، وآية ٤٥ من سورة الأحزاب، وآية ١٠٠ من سورة المؤمنون، وآية ٤٦ من سورة غافر، كلّها تدلّ على الحياة بعد الموت، وقد تحدَّثنا عن هذا الموضوع في فصلٍ سابق.

منهم ـ وكما يؤكّد القرآن الكريم ـ ليس هو الجسد المدفون تحت التراب، وإنما هي الروح الطاهرة والحيَّة التي تعيش في الجسد البرزخي في عالَم البرزخ.

فلو لم تتمكّن الأجساد المدفونة في الأرض من الإدراك والفهم، فهذا لا يدلّ على أن أرواحها الطاهرة ونفوسها الطيّبة ـ التي هي حيَّة تُرزَق في العالَم الآخر ـ غير قادرة على الإدراك والفهم.

و أن السلام والتحيّة والزيارة هي لتلك الأرواح النورانيَّة الخالدة، وطلب الشفاعة منها أيضاً.

و تسأل: فلماذا يقوم المسلمون بزيارة قبور أولياء الله؟

الجواب: للأُمور التالية:

١ ـ ورود الأحاديث الشريفة المتواترة في استحباب زيارة مراقد الأولياء وفي طليعتهم رسول الله وأهل بيته المعصومون ـ عليهم الصلاة والسّلام ـ وأن فيها مرضاة الله وحُسن ثوابه. وقد ذكرنا بعض تلك الأحاديث عند البحث عن زيارة النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ.

٢ ـ لأن زيارتها تُجسّد ـ في أذهاننا ـ وجودهم المبارك، وتُهيّيء أنفسنا للإتصال بأرواحهم المقدّسة وأجوائهم الربّانية، ومن خلال السلام عليهم نشعر وكأننا نتحدّث اليهم وهم يستمعون الينا، كما جاء في إحدى الزيارات المنصوصة:

«أشْهَدُ أنَّكَ تَشْهَدُ مَقامي وَتَسْمَعُ كَلامي وأنّكَ حَيٌّ عِنْدَ رَبِّكَ

تُرْزَق، فَاسألْ رَبَّكَ وَرَبّي قَضاء حَوائِجي»(١).

وجاء أيضاً:

«اَللّهُمَّ... وَأعَلَمُ أنَّ رَسُولَكَ وَخُلَفاءَكَ -عليهم السّلام- أحْياءٌ عِنْدَكَ يُرزَقُونَ، يَرَوْنَ مَقامي وَيَسْمَعُونَ كَلامي وَيَرُدُّونَ سَلامي، وَ أنَّكَ حَجَبْتَ عَنْ سَمْعي كَلامَهُمْ، وَفَتَحْتَ بابَ فَهْمي بِلَذيذ مُناجاتِهِم...».

٣ ـ لأن عشرات الأحاديث الشريفة تُصرِّح بأن أجساد الأنبياء والأوصياء ـ وآخرين أيضاً ـ تبقىٰ محفوظة في التراب ـ بإذن الله تعالى ـ من دون أن تتلاشىٰ أو تفنىٰ، وفي هذا المجال قصص وقضايا كثيرة لا مجال لذكرها، ونكتفي بالاشارة الى ما ذكره المؤرّخون من أن المسلمين حفَروا قنوات للماء في أرض «أُحُد» بالمدينة المنوَّرة ـ بعد واقعة أُحُد بخمسين سنة ـ فانكشف التراب عن أجساد مُخضَّبة بالدماء، وهي سالمة كأنها دُفنت الساعة، لم تفسد حتىٰ اكفانها، ووصل الخبر الى المدينة فهرَع من كان فيها من الصحابة وغيرهم ـ حتى النساء ـ فتعرَّفوا على تلك الأجساد بأسمائهم وأسماء آبائهم، وأنها أجساد شهداء أُحُد، بقيت سالمة تتحدّىٰ الزمان والتراب، بإذن الله القدير سبحانه.

فاذا كان الأمر هكذا بالنسبة الى هؤلاء، فما تقول في جسد رسول الله والأئمة الهداة المعصومين من آله الطاهرين؟!!

لا شكّ أنها تبقى محفوظة من كلّ شائبة، وأن لها عندالله حُرمة

(١) كتاب عُدَّة الداعي: لابن فهد الحلّي عن الامام الصادق ـ عليه السّلام ـ.

عظيمة وقداسة كبيرة.

والبُقعة التي تحتضن جسَد أحد أولياء الله، تكتسب الشرف والكرامة بذلك، فالحضور في تلك البقعة وعند ذلك المرقد الطاهر يفيض على الانسان الرحمة الإلٰهية والخيرِ والبركة.

و هكذا ظَهَرَ لك -أيّها القارئ الكريم- أن الأدلّة التي يستدلّ بها الوهّابيّون علىٰ حرمة الاستشفاع من أولياء الله أدلّة واهية ضعيفة، وأن الحقّ هو ما يقوم به المسلمون، تَبعاً للقرآن والأحاديث الشريفة.

الفصل السادس عشر

الاعتقاد بالقدرة الغيبيّة لأولياء الله تعالىٰ

هل الاعتقاد بالقدرة الغيبية لأولياء الله شِركٌ بالله؟

ممّا لا شكَّ فيه أن الانسان لا يطلب حاجته من أحدٍ إلّا اذا تأكَّد من قدرة ذاك علىٰ قضاء حاجته وتلبية طَلبه.

و هذه القدرة على قِسمين:

١ ـ القدرة المادّية الظاهرية، بأن تطلب الماء من إنسان، فيملأ لك الإناء ماء ويُناولك.

٢ ـ القدرة الغيبية المستقلّة عن المادّة، والخارجة عن المجاري الطبيعية، كأن يعتقد الانسان ـ مثلاً ـ بأن الامام عليّ بن أبي طالب ـ عليهما السّلام ـ قادر على قلع باب خيبر ـ الذي يعجز الانسان عن قلعه عادة ـ بقوّة غيبية تتفوّق علىٰ قدرة البشر.

أو يعتقد بأن النبيّ عيسىٰ ـ عليه السّلام ـ قادر بدعائه علىٰ شفاء المريض الذي صعب علاجه، من دون استعمال دواء أو إجراء عملية جراحية.

اذا عرفت هذا... فاعلم أن الاعتقاد بهذه القدرة الغيبية ـ اذا كان مُستنداً الى قدرة الله وإذنه وإرادته ـ هو كالاعتقاد بالقدرة

المادّية الطبيعية، وليس شركاً بالله سبحانه، لأن الله الذي وهَب القدرة المادّية لشخصٍ قادر على أن يهب القدرة الغيبية لشخصٍ آخر، دون الاعتقاد بكون المخلوق خالقاً أو مُستغنياً عن الله تعالىٰ.

الرأي الوهّابي

يعتقد الوهّابيّون بأنه لو طلب إنسان حاجة من أحد أولياء الله ـ حيّاً كان أم ميّتاً ـ كأن يشفي مريضه أو يُعيد عليه مفقوده أو يقضي ديونه أو غير ذلك، فقد آمن بوجود قدرة غيبية عند مَن دعاه وسأله، بحيث يستطيع أن يخرق بها القوانين الطبيعية الحاكمة في هذا الكون، والاعتقاد بهذه القدرة لغيرالله إعتقاد بالوهيَّة ذلك الغير، وطلب الحاجة منه مع هذا الاعتقاد شركٌ بالله سبحانه.

مثال ذلك: لو طلب الانسان ـ العطشان في الصحراء ـ ماء من خادمه، فإن طلبه هذا ليس طَلباً لخرق القوانين الطبيعية، فهو جائز وليس شركاً.

أمّا لو طلب نفس هذا الطلب من نبيٍّ أو إمام يرقد تحت التراب، أو يعيش في بلدة أُخرىٰ ومكان آخر، أو كان غائباً عن الأبصار، فقد أشرك بالله تعالى، لأنه يعتقد بأن ذلك النبيّ أو الامام يستطيع أن يُهيّيء الماء، خارج نطاق القوانين والأسباب الطبيعية، أي: بالقدرة الغيبية، وهذا اعتقاد بالوهيّة ذلك المدعو: النبيّ أو الإمام.

وقد صرَّح بهذا الرأي الكاتب الوهّابي «أبو الأعلىٰ المودودي» حيث قال:

«إن التصوّر الذي لأجله يدعو الانسانُ الإلٰه ويستغيثه ويتضرَّع اليه هو -لا جَرَم- تصوُّر كونه مالكاً للسلطة المهيمنة على قوانين الطبيعة»(١).

رأْينا حول هذا الكلام

إن الخطأ الذي ارتكبه المودودي -ونظراؤه- هو أنه تصوَّر بأنَّ الاعتقاد بالسلطة الغيبيّة لغيرالله شرك به سبحانه مطلقاً، ولم يُفرِّق -أو لم يرد أن يُفرِّق- بين الاعتقاد بالقدرة الغيبية المستمدّة من الله والمعتمَدة عليه، وبين القدرة المستقلّة عنه سبحانه، حيث إن الشرك هو الاعتقاد الثاني لا الأول.

إن القرآن الكريم يذكر -بصراحة تامّة- أسماء أشخاص كانت لهم القدرة الغيبية، وكانت إرادتهم تتحكّم على قوانين الطبيعة وتُغيِّر مجراها.

وإليك أسماء بعض من أشار اليهم القرآن:

١ ـ القدرة الغيبية للنبيّ يوسف

قال يوسف -عليه السّلام- لإخوته:

«إذْهَبُوا بِقَميصي هٰذا فَأَلْقُوهُ عَلىٰ وَجْهِ أَبي يَأْتِ بَصيراً».

---

(١) المصطلحات الأربعة: ص١٨.

«... فَلَمّا أنْ جاءَ الْبَشيرُ أَلْقاه عَلىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصيراً»(١).

إن ظاهر هذه الآية يدلّ على أن النبيّ يعقوب ـ عليه السّلام ـ استعاد بَصَره الكامل بالقدرة الغيبية التي استخدمها يوسف ـ عليه السّلام ـ من أجل ذلك، ومن الواضح أن استعادة يعقوب بَصَره لم يكن من الله بصورة مباشرة، بل تحقّقت بإذنه سبحانه، بواسطة النبيّ يوسف ـ عليه السّلام ـ.

إن النبيّ يوسف كان السبب في عودة بَصَر أبيه كاملة، ولولا ذلك لما أَمر إخوانه بأن يذهبوا بقميصه ويلقوه على وجه أبيه، بل كان يكفي أن يدعو الله تعالىٰ لذلك فقط.

إن هذا تصرُّفٌ غيبيّ صدَر من أحد أولياء الله ـ يوسف ـ وغيَّر المجرى الطبيعي بإذنه سبحانه، ولا يقدر علىٰ هذا التصرُّف إلّا مَن مَنَحَه الله السلطة الغيبية.

٢ ـ السلطة الغيبية للنبيّ موسىٰ

لقد منح الله سبحانه القدرة الغيبية للنبيّ موسىٰ ـ عليه السّلام ـ فضَرب بعصاه الحجَر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، بعدد قبائل بني إسرائيل، كما قال سبحانه:

«قُلْنا اضْرِبْ بِعَصاكَ الحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً»(٢).

واستخدم موسىٰ ـ عليه السّلام ـ قدرته الغيبية مرّةً أُخرىٰ عندما

(١) سورة يوسف: آية ٩٣ و ٩٦.

(٢) سورة البقرة: آية ٦٠.

ضرَب بعصاه البحر ليفتح ـ في عُمق البحر وعلى أرضه ـ اثني عشر طريقاً يابساً لبني إسرائيل، كي يمرّوا فيه و يعبروا البحر، فتراكمت المياه كالجبال على أطراف هذه الطُرق من دون أن تتدحْرج قطرةٌ منها في الطريق!.

قال تعالىٰ:

«فَأوْحَيْنا اِلىٰ مُوسىٰ أن اضْرِبْ بِعَصاكَ اَلْبَحرَ فانْفَلَقَ، فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ الْعَظيم»(١).

في هذين الموقفين لا يمكن أن نتجاهل دور النبيّ موسىٰ ـ عليه السّلام ـ في تفجير العيون وفتح الطرق على أرض البحر، وأنه استفاد من قدرته الغيبية، فتحقّق كلّ ذلك بإذن الله وإرادته سبحانه.

٣ ـ السلطة الغيبية للنبيّ سليمان

لقد كان النبيّ سليمان ـ عليه السّلام ـ يتمتع بقدرات غيبية متعدّدة، وقد عبَّر عن تلك المواهب والمنح الإلٰهية العظيمة بقوله ـ كما في القرآن الكريم ـ:

«وَاُوتينا مِنْ كُلِّ شَيء»(٢).

وقد جاء تفصيل الحديث عن تلك المواهب والقدرات الإلٰهية الممنوحة له، في كلٍّ من سورة النمل من آية ١٦ الى ٤٤، وسورة سبأ

(١) سورة الشعراء: آية ٦٣.

(٢) سورة النمل: آية ١٦.

آية ١٢، وسورة الأنبياء آية ٨١، وسورة ص من آية ٣٦ الى ٤٠.

إن التأمّل في هذه الآيات يكشف لنا عن جانب من المواهب العظيمة والقدرات الغيبية التي مَنَحها الله لعبده ونبيّه سليمان ـ عليه السّلام ـ وقبل أن تفتح القرآن لتقرأ الآيات المشار اليها، نذكر لك الآن بعض تلك الآيات، كي تتجلّى لك عظمة تلك السُلطة الغيبية وترىٰ بعينك أن القرآن الكريم يُثبت القدرة الغيبية لبعض عبادالله تعالىٰ.

لقد كانت للنبيّ سليمان السُلطة على الجنّ والطيور، وكان يعرف منطق الطير ولغات الحشرات، يقول الله تعالىٰ:

«وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ دَاوُدَ وَ قالَ يا أَيُّها النّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ، وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيء، إنَّ هٰذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينَ، وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الإنْسِ وَالطَّيْرِفَهُمْ يُوزَعُونَ، حَتّىٰ إذا أَتَوْا عَلىٰ وادِ النمل قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّها النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ، لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ، فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَ قالَ رَبِّ أوزِعْني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلىٰ والِدَيَّ» الى آخر الآيات(١).

أيّها القارئ الكريم: ولو قرأت ـ في القرآن الحكيم ـ قصّة «الهُدهُد» الذي أرسله سليمان ـ عليه السّلام ـ مبعوثاً الىٰ ملكة سَبأ، حاملاً رسالة منه اليها، لا ستولتْ عليك الدهشةُ والحيرة من القدرة الغيبية التي كانت له، لهذا نرجو منك التأمّل في الآيات

---

(١) سورة النمل: آية ١٦ الى ١٩ وما بعدها.

٢٠ الى ٤٤ من سورة النمل، كي تتأكّد اكثر من بُطلان مذهب الوهّابيّة وتناقضه مع القرآن.

هذا وقد كانت للنبيّ سليمان ـ بتصريح القرآن الكريم ـ السلطة على الريح، تجري بأمره حيث يشاء، قال تعالى:

«وَ لِسُلَيْمانَ الريحَ عاصِفَةً، تَجْري بِأَمْرِهِ إلى الأَرْضِ الّتي بارَكْنا فيها، وَ كُنّا بِكُلِّ شَيءٍ عالِمينَ»(١).

إن ما يُلفت الانتباه ـ في هذه الآية ـ هو قوله سبحانه: «تَجْري بِأَمْرِهِ» حيث يدلّ على سلطة سليمان الغيبية على الريح، وتحكُّمه في مسيرها ومجراها.

٤ ـ النبيّ عيسىٰ و القدرة الغيبية

يمكننا أن نتعرّف على جانب من القدرة الغيبية التي كانت للنبيّ عيسىٰ ـ عليه السّلام ـ من خلال التأمّل في الآيات القرآنية التي تتحدّث عنه وعنها، ومنها قوله تعالىٰ ـ عن لسان عيسىٰ ـ:

«إنّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإذْنِ اللهِ، وَ أُبْرِءُ الأَكْمَه وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِ المَوْتىٰ بِإذْنِ اللهِ، وَ أُنَبِّئُكُمْ بِما تَأكُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ في بُيُوتِكُمْ، إنَّ في ذٰلِكَ لآيَةً لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ»(٢).

لقد تكرّر قوله «بإذن الله» مرّتين في هذه الآية، تأكيداً على

---

(١) سورة الأنبياء: آية ٨١.

(٢) سورة آل عمران: آية ٤٩.

أن التصرُّفات الغيبيَّة التي يقوم بها أولياء الله إنما هي بالاستمداد من قدرة الله تعالىٰ وإرادته، ولهذا ترىٰ عيسىٰ -عليه السّلام- يعتبر تصرُّفاته كلّها رهينة بإذن الله تعالىٰ، وهكذا غيره من الأنبياء والأولياء قال تعالىٰ:

«وَما كانَ لِرَسُولٍ أنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إلاّ بِإذْنِ الله»(١).

ولكنك ترىٰ في الوقت نفسه أن النبيّ عيسىٰ ينسب كلّ أعماله الغيبية إلى نفسه الشريفة فيقول: «أخلق» «أنفخ» «أُبرىء» «أُحيِ» «أُنبِّئُكم» بصيغة المتكلّم وحده.

هذا وليس النبيّ يوسف وموسىٰ وعيسىٰ وسليمان هم فقط الذين كانت لهم القدرات الغيبية، بل هناك مجموعة من الأنبياء الذين كانوا ولا يزالون يملكون تلك القدرة، وهذا البحث يتطلّب كتاباً مُستقلاً، وقد تحدَّثنا حوله بالتفصيل في كتاب «القدرة المعنوية للأنبياء» وقد طُبع عدَّة مرات.

٥ ـ الملائكة والقدرة الغيبية

إن الملائكة يتمتَّعون بالسلطة الغيبية أيضاً، فهذا القرآن الكريم يَصِف جبرئيل بقوله:

«شَديدُ القُوىٰ»(٢).

وَيصف بعضَ الملائكة بقوله:

---

(١) سورة الرعد: آية ٣٨.

(٢) سورة النجم: آية ٥.

«وَالْمُدبِّراتِ أمْراً»(١).

وغيرهما من الآيات التي تُصرِّح ـ أو تُشير ـ بأن الملائكة تتولّىٰ إدارة شؤون العالَم، مِن قبْض الأرواح وحراسة الناس والمحافظة عليهم وكتابة الأعمال «كراماً كاتبين» ومُبيدات الأُمم الطاغية، وغير ذلك من مسؤوليات هذا الكون.

إن كلّ مَن له إلمام بالقرآن الكريم ـ حتىٰ لو كان قليلاً ـ يعلم بأنَّ للملائكة قدرات غيبيَّة، وأنها تقوم بتصرُّفات إعجازية بإذن الله وقوّته.

فلو كان الاعتقاد بالسلطة الغيبية يستلزم الاعتقاد بالأُلوهية، لكان كلّ واحدٍ من الأنبياء والملائكة إلٰهاً من دون الله سبحانه، وهذا واضح البُطلان.

فما هو الحَلّ؟

ما هو الحلّ والقولُ الفصل؟

الجواب: لقد ذكرنا أن الحلّ والقول الفصل هو في الفرق والتمييز بين القدرة المستقلَّة والقدرة المكتسَبة، فالاعتقاد بالقدرة المستقلَّة ـ لغيرالله ـ يستلزم الشرك به سبحانه، بينما الاعتقاد بالقدرة المكتسَبة ـ في أيّ مجال ـ هو التوحيد بذاته.

الى هنا تبيَّن لك ـ أيها القارئ ـ أن الاعتقاد بالقدرة الغيبية لدىٰ أولياء الله تعالىٰ لن يُرافقه الشرك بل هو التوحيد بعينه،

---

(١) سورة النازعات: آية ٥.

بشرط أن تَعتبر تلك القدرة مُسْنَدة الى القدرة الأزلية لله تعالى.

كما تبيَّن لك بأنه ليس معنىٰ التوحيد أن تُسنِد الأفعال الطبيعية الى الانسان، وتُسنِد الأفعال الغيبية الى الله تعالىٰ، بل إن حقيقة التوحيد هي أن تُسند كلّ الأفعال اليه تعالىٰ، وتعتبر القوىٰ والطاقات والقدرات نابعة منه وتابعة اليه جلَّ جلالُه.

و الآن... آن الأوان كي نتحدّث عن الركن الثاني ـ في هذا الفصل ـ وهو جواز طلب الأعمال الإعجازية الغيبية من أولياء الله تعالىٰ.

طَلب الأعمال الغيبية من الأولياء

هل يجوز أن تطلب مِن أحد أولياء الله عملاً إعجازياً؟

و هل يُعتبر هذا الطلب شِركاً؟

في البداية نقول: ممّا لا يختلف فيه اثنان هو أنّ **«لكلّ معلولٍ علّة ولكل مُسبَّبٍ سَبب»** فكلّ شيء لا يمكن أن يكون له وجود إلّا بسبب، فالحياة حياة الأسباب والمسبّبات، وبالتالي: لا توجد في العالَم ظاهرة دون أن يكون لها سبب.

كذلك معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء لا تحدث بدون سبب، بَيدَ أنَّ السبب ليس سبباً مادّياً طبيعياً، بل هوغيبيّ ماورائيّ فوق التصوّر.

فمثلاً: اذا تحوّلتْ عصا موسىٰ الى ثعبان، وأحيىٰ عيسىٰ الموتىٰ، وانشقّ القمر لرسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ

وسبَّحتْ حبّات الرمال في يده، وغير ذلك من معجزات الأنبياء... فإن كلّ هذه لم تحدث بلا سبب، ولكن السبب ـ كما قلنا ـ ليس مادّياً ملموساً نراه بأعيننا، لا أنها حدثت بلا سبب أبداً.

بعد هذه الكلمة الخاطفة... نتحدّث الآن عن الموضوع المطروح على بساط التحقيق وهو: طلب الأعمال الاستثنائية والإعجازية من أولياءالله.

إن الوهّابيّة ـ الضالّة المضلّة ـ تدّعي أنَّ طلب الأعمال الخارقة للطبيعة شِرك بالله سبحانه، ولكنَّ طلب الأعمال المادّية الطبيعية ليس كذلك، فما هو رأي الاسلام حول هذا الإدّعاء؟

الجواب: هذا القرآن الكريم خير دستور نتحاكم اليه، ترىٰ في مواضع متعدّدة منه التصريح بأنه قد طلب من الأنبياء ـ وغيرهم ـ القيام بأعمال إعجازية خارجة عن إطار القوانين الطبيعية المادّية.

فمثلاً: طلب قوم موسىٰ ـ عليه السّلام ـ منه أن يوفّر لهم الماء والمطر ويُنقذهم من الجفاف الذي كانوا يُعانون منه، وصدر الأمر من الله تعالىٰ بتلبية طلبهم، قال سبحانه:

«وَ أَوْحَيْنا إِلىٰ مُوسىٰ ـ إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ ـ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ»(١).

فإن قال قائل: لا مانع من طلب المعجزة من الانسان الحي، والبحث إنما هو حول الطلب من الميّت.

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٦.

فالجواب: إن الحياة بعد الموت لا يُغيّران حقيقة التوحيد والشرك، بأن يكون الشيء توحيداً في حال الحياة وشركاً في حال الممات، أو بالعكس، بل تبقى الحقيقة ثابتة على كلّ حال.

نعم... يمكن أن يكون للحياة والموت أثر في فائدة الطلب أو عدمها، أمّا حقيقة التوحيد والشرك فلا تؤثّران فيهما.

النبيّ سليمان يطلب عَرش بلقيس

يُحدّثنا القرآن الكريم أن النبيّ سليمان ـ عليه السّلام ـ طلب من الحاضرين عنده أن يُحضر أحدهم عرش بلقيس، بقدرة ماورائية غيبية وخارقة للطبيعة، فقال لهم ـ كما في القرآن الكريم ـ:

«أَيُّكُمْ يَأْتيني بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُوني مُسْلِمينَ؟

قالَ عِفْريتٌ مِنَ الْجِنِّ أنا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَإِنّي عَلَيْهِ لَقَويٌّ أَمينٌ.

قالَ الَّذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ، فَلَمّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قالَ هٰذا مِنْ فَضْلِ رَبّي»(١).

فاذا صحَّ مذهب الوهّابيّين ـ في حرمة طلب الأعمال الخارقة من أحدٍ إلّا الله ـ لكان طلب النبيّ سليمان من الحاضرين ـ إحضارَ عرش بلقيس بقوّة ماورائية ـ كفراً وشركاً!!.

و كان طلب المعجزة ممّن يدّعي النبوّة ـ في أيّ عصر ومصر ـ

---

(١) سورة النمل: آية ٣٨ الى ٤٠.

كفراً وشركاً، وقد كان الناس يُطالبون كلَّ من يدَّعي النبوّة ـ صادقاً كان أم كاذباً ـ بالمعجزة الخارقة للطبيعة، دليلاً على صِدق دعواه واتصاله بالعالم الأعلىٰ، ولم يطلبوا ذلك من الله الذي بَعَثه، بل كانوا يقولون:

«إنْ كُنْتَ جِئتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقينَ»(١).

و هذه عادة كلّ الشعوب والأُمم في العالم، حيث تريد التمييز بين النبيّ الصادق والمتنبّىء الكاذب، فتُطالبه بالمعجزة الدالَّة على قدرته الغيبية، وكان الأنبياء ـ بدَورهم ـ يدعون الناس لمشاهدة معجزاتهم الدالَّة على صدقهم.

و قد سجَّل القرآن الكريم بعض ما دار بينهم و بين الأُمم من حوار حول هذا الموضوع، دون أن ينتقدهم على طلبهم المعجزة من الأنبياء، ممّا يدلّ علىٰ موافقته لهذا الطلب.

و لنذكر مثالاً: لو أنَّ أُمَّة ـ تبحث عن الحق ـ جاءت الى النبيّ عيسىٰ ـ عليه السّلام ـ وقالت به «إن كنتَ صادقاً في دعوىٰ النبوّة فأبْرىء هذا الأعمىٰ ورُدَّ اليه بَصَره، واشفِ هذا الأبرص» فإن هذه الأُمَّة لا تُعتبر مُشركة، بل تُعَدُّ من الأُمم الراقية التي تبحث عن الحقيقة، وتُمدح على ذلك.

و الآن، لو فرضنا وفاة النبيّ عيسى ـ عليه السّلام ـ(٢)

(١) سورة الأعراف: آية ١٠٦.

(٢) بالرغم من أنه حيٌّ يُرزَق كما قال تعالىٰ: «وما قتلوه وما صلبوه ولكنْ شُبِّه لهم... بل رَفَعه الله اليه...» وتقول الأحاديث الصحيحة إن النبيّ عيسىٰ سوف يعود الىٰ الأرض يوم ظهور الإمام المهديّ المنتظر ـ عجلّ الله ظهورَه ـ ليكون ردءً له وظهيراً.

وطلبْت أُمّتُه من روحه الطاهرة أن يُبرىء الأكمه والأبرص، فلماذا تُعتبر مشركة، مع العلم أن موت النبيّ وحياته لا يؤثّران في التوحيد والشرك ؟!(١).

خلاصة القول

وخلاصة القول: إن القرآن الكريم يُصرِّح بأسماء بعض الأولياء الذين اصطفاهم الله ووَهَبهم القدرة الغيبية لتنفيذ الأعمال الماورائية الخارقة للطبيعة، وكان هؤلاء يستخدمون هذه القدرة في الأوقات المناسبة، كما كان هناك أشخاص يأتون إليهم ويطلبون منهم الاستفادة من هذه القدرة.

وهكذا ظَهر لك -أيّها القارئ الكريم- إن آيات القرآن الكريم صريحة في ردّ مذهب الوهّابيّة وإبطال آرائها الشاذّة.

فلو قال الوهّابيّون: إن طلب المعجزة من أولياء الله شِرك.

قلنا: لماذا طلب سليمان -وغيره- ذلك ؟!

فإن قالوا: إن طلب الحاجة من أولياء الله -بطريقة إعجازية- يستلزم الاعتقاد بسلطتهم الغيبية.

قلنا: إن الاعتقاد بالسُلطة الغيبية على نوعين: أحدهما: توحيد بعَينه، والثاني: يستلزم الشرك.

فإن قالوا: إنَّ طلب الكرامات من أولياء الله في حياتهم جائز،

---

(١) للاطّلاع على بعض معجزات النبيّ عيسىٰ راجع آية ٤٩ من سورة آل عمران وآية ١٠٠ و ١٠١ من سورة المائدة.

ولكن طلبها من الموتىٰ غير جائز.

قلنا: إن الموت والحياة ليسا ملاكاً للتوحيد والشرك ، ولا يُغيِّران حقيقة أحدهما.

فإن قالوا: إن طلب الشفاء للمريض و تسديد الدَّين -بطريقة غير عادية- هو طلب فعل الله من غير الله.

قلنا: إنَّ شرط الشرك هو أن تعتقد أُلوهيَّة مَن تدعوه أو بكونه مصدراً لأفعال الله بالاستقلال، وأن طلب فعلٍ غير عادي ليس معناه طلب فعلٍ إلهي من غير الله، لأن مقياس أفعال الله ليس هو خروجه عن إطار القوانين الطبيعية، حتىٰ يكون هذا الطلب طلب فِعل الله مِن عبده، كلّا... بل إن مقياس أفعال الله هو أن يكون فاعله مستقلّاً في إنجازه.

أمّا لو كان فاعله يُنجز ذلك الفعل بالاعتماد على قدرة الله تعالىٰ فإن الطلب منه ليس طلب فعل الله من غير الله.

و لا فرق بين أن يكون الفعل عادياً أو غيبياً.

و نفس هذا القول يأتي بالنسبة الى الاستشفاء من أولياء الله، فإن البعض يُنكرون ذلك ويقولون: إن طلب الشفاء خاصّ بالله سبحانه بدليل قوله تعالىٰ:

«وَإذا مَرِضْتُ فَهُوَيَشفينِ»(١).

فكيف يصحُّ أن يقال: يا رسول الله اشفني؟! وهكذا الأمر بالنسبة الى كلّ عمل خارق للعادة.

---

(١) سورة الشعراء: آية ٨٠.

والجواب: إن الذين يعتقدون هذا الاعتقاد لم يميّزوا ـ ومع الأسف ـ بين الأفعال الإلٰهيَّة والأفعال البشريّة، ولهذا يتصوَّرون بأن أيّ فعلٍ يخرج عن مجراه المادّي الطبيعي فهو من أفعال الله، وأيّ فعلٍ يأخذ مجراه المادّي الطبيعي فهو من أفعال البشر.

إن هؤلاء لم يفهموا ـ أو تجاهلوا ـ المقياس المائز لأفعال الله عن غيرها، ولو كان كلّ فعل يخرج عن مجراه الطبيعي يعتبر من أفعال الله لكانت أفعال المرتاضين ـ في الهند ـ أفعالاً إلٰهيّة، وكانوا جميعاً «آلهة».

وقد ذكرنا اكثر من مرَّة أن المقياس ـ في الأفعال الإلٰهيَّة ـ هو الاستقلال في الفعل، وعدم الاعتماد على أيَّة قدرة أُخرىٰ، والفعل البشري هو عكس ذلك.

إن الانسان يعتمد على الله ويستعين بقدرته في كلّ عمل ـ سواء كان مادّياً أو خارجاً عن حدود المادَّة ـ والكثيرون يحصلون على قدرات اكتسابية ويستغلّونها للوصول الى أهدافهم المنشودة، فهل أن طلب الفعل من هؤلاء شرك بالله؟!

إن نقطة الانحراف عن التوحيد تكمن في الاعتقاد المقرون بالطلب، فإذا كان طالب الحاجة ـ من أحد أولياء الله ـ يعتقد باستقلال ذلك الوليّ فقد اعتبره مستغنياً بالذات، ومعنىٰ ذلك أنه اعتبره مُستغنياً عن الله، وهذا هو الشرك، لأنه لا مستغنيَ بالذات سوى الله الواحد الأحد سبحانه.

وقد كان كثيرٌ من المشركين ـ في العهد الجاهلي وعند طلوع

الاسلام- يعتقدون هذا الاعتقاد بالنسبة الى الملائكة والنجوم وأن الله خلقها وفوّض اليها إدارة الكون وتدبيره، تفويضاً مستقلاًّ تماماً(١) أو -على الأقل- أنها تملك الشفاعة والمغفرة، و تتصرّف كما تشاء حيث تشاء.

المعتزلة والشِرك

أمّا فرقة المعتزلة(٢) فهي تعتبر الانسان -من حيث الوجود- مخلوقاً لله تعالىٰ، ولكنها -في الوقت نفسه- تعتبره مُستقلاًّ من حيث التأثير في الأشياء وإنجاز الأفعال، ولو أن المعتزلة تأمّلوا قليلاً في قولهم هذا، لأدركوا بأن في هذه العقيدة نوعاً من الشرك الخفي، ولكنهم في غفلةٍ منه.

طبعاً هذا الشرك الخفي لا يصل الى درجة شِرك المشركين، والفرق بين الشِركَين هو أن المشركين يدّعون استقلال أصنامهم في إدارة شؤون الكون وأفعال الله تعالىٰ، وهؤلاء يدّعون استقلال الانسان في أعماله.

---

(١) ولذلك عند ما سَأل عمرو بن لحى من أهل الشام عن علّة عبادتهم للأصنام؟ قالوا -في جوابه-: إننا نطلب المطر من هذه الأصنام فتسقينا، ونستعين بها فتُعيننا، وبهذا الاعتقاد اصطحب عمرو معه «هُبَل» وجاء به الى مكّة. راجع سيرة ابن هشام: ج١ ص٧٧.

(٢) كما أن مذاهب السُنّة تنقسم -في فروع الأحكام- الى المذاهب الأربعة كذلك تنقسم في الأُصول والمعارف الى قسمين: الأشاعرة والمعتزلة.

الفصل السابع عشر

الحلف على الله بحقّ الأولياء

إن من نقاط الخلاف بين الوهّابيّين والمسلمين هي أنها تدَّعي حرمة:

١ ـ الحلف على الله بحقّ الأولياء.

٢ ـ الحلف بغير الله.

و تَعتبر ـ أحياناً ـ هذين القَسَمين شركاً بالله في العبادة.

و فيما يلي نضع هذا الموضوع على طاولة البحث والتشريح لاستخراج الحكم الشرعي الصحيح:

الحلف على الله بحقّ الأولياء

إن القرآن الكريم يَصِف بعضَ عبادالله بقوله:

«اَلصّابِرينَ وَالصّادِقينَ وَالْقانِتينَ وَالْمُنْفِقينَ وَالْمُسْتَغْفِرينَ بِالأسْحار»(١).

فلو أن إنساناً قام في جوف الليل وصلّىٰ لربّه ركعات، ثم

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٧.

تضرّع الى الله قائلاً:

«أَللّٰهُمَّ اِنّي أسْألُكَ بِحَقّ الْمُسْتَغْفِرينَ بِالأَسْحار إغْفرلي ذَنْبي».

فكيف يمكن أن نعتبر قوله هذا شركٌ في العبادة؟!

إن الشرك في العبادة معناه عبادة غير الله، أو اعتبار غيره سبحانه إلٰهاً ومصدراً للأفعال الإلٰهية.

أمّا في هذا المجال فإن المصلّي يتوجّه الى الله تعالىٰ ولا يطلب شيئاً إلّا منه سبحانه، فاذا كان هذا العمل حراماً فلابدّ أن يكون له سبب آخر غير الشرك.

نحن هنا نجلب انتباه الوهّابيّين الى أن القرآن الكريم قد ذكر مقياساً ومَحَكّاً للفصل والتمييز بين المشرك -في العبادة- وبين الموحّد، وبهذا المقياس سدّ القرآن الطريق أمام كلّ تفسير بالرأي لمعنى المشرك، وهذا المقياس هو قوله تعالىٰ:

«وَ اِذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ، وَ اِذا ذُكِرَ الَّذينَ مِنْ دُونِهِ اِذاهُمْ يَسْتَبشِرُونَ»(١).

و في آية أُخرىٰ يَصِف القرآن المجرمين -هم المشركون- بقوله:

«إنَّهُمْ كانُوا إذا قيلَ لَهُمْ لا إلٰه إلّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ، وَيَقُولونَ ءإنّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُون»(٢).

إذن: إن المشرك -وفقاً لهاتين الآيتين- هو ذاك الذي يشمئزّ قلبه اذا ذُكر الله الواحد الأحَدُ، ويفرح اذا ذُكرت الآلهة

(١) سورة الزمر: آية ٤٥.

(٢) سورة الصافّات: آية ٣٥ و ٣٦.

الباطلة، أو يستكبر عن الاعتراف بوحدانية الله سبحانه.

بعد هذا المقياس القرآني نتساءل: هل الذي يقوم في ظلام الليل ويقضي ساعات في العبادة والمناجاة والدعاء، ويصلّي بين يدي الله بكلّ إخلاص وخضوع، ويُقْسم على الله بمنزلة أوليائه الصالحين ويسأله بعباده المتّقين... هل أن هذا الانسان يكون مشركاً بعمله هذا؟!

و كيف تمرّد علىٰ ذِكرالله واستكبر عن الاعتراف بوحدانيته سبحانه؟!

لماذا ترى المؤلّفين الوهّابيّين يستندون الى أُسس خيالية وأدلّة أوهن من بيت العنكبوت ويتّهمون المسلمين بالشرك ويعتبرون أنفسهم فقط «شَعبُ الله المختار»؟!!

و كيف يجوز أن يعتبروا تسعة وتسعين بالمائة من أهل القبلة مشركين، ويَعتبروا «النجديّين» هم الموحّدين فقط، مع ماسَبق من المقياس القرآني؟!

و هل خَوّل القرآن تفسير «الشِرك» الى الوهّابيّين حتىٰ يُفسّروه كيفما يشاؤون ويعتبروا جماعة مشركين وأُخرىٰ موحّدين؟!!

بل «طَبَعَ الله على قُلوبِهم فَهُم لا يَفْقَهُون».

أمير المؤمنين والحلف على الله بحقّ الأولياء

إننا نلاحظ القَسم على الله في أدعية أوليائه المقرَّبين، فمثلاً:

هذا إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ -عليه السّلام- تراه يقول في دعائه بعد صلاة الليل:

«اللّٰهُمَّ إنّي أسْألُكَ بِحُرْمَةِ مَنْ عاذَبِكَ مِنْكَ، وَلجأَ إلىٰ عِزِّكَ، وَاسْتَظَلَّ بفَيئِكَ، وَاعْتَصَمَ بِحَبْلِكَ وَلَمْ يَثِقْ إلّا بِكَ...»(١).

و يقول -عليه السّلام- في دعاء علّمه لأحدِ أصحابه:

«... وَبِحَقّ السائِلينَ عَلَيْكَ، وَالرّاغبينَ إلَيْكَ وَالْمُتَعوِّذينَ بِكَ، وَالْمُتَضرِّعينَ اِلَيْكَ، وَبِحَقّ كُلِّ عَبْدٍ مُتعبِّدٍ لَكَ في كُلِّ بَرٍّ أوْبَحْرٍ أوْ سَهْلٍ أوْ جَبَلٍ أدْعُوكَ دُعاء مَنِ اشْتَدَّتْ فاقَتُهُ...»(٢).

فهل لهذه المناجاة المنشِّطة للروح والباعثة على العبادة، وهذا التذلُّل أمام الله... هل لذلك كلّه نتيجة أُخرىٰ سوىٰ ترسيخ وحْدانيّة الله وأنه لا معاذ إلّا به، وإظهار المحبّة والمودّة لأولياء الله وأحبّائه -الذي هو توجُّهٌ الى الله في الوقت ذاته- ؟!!.

مِن هذا المنطق... يجب الكفّ عن توجيه تهمة الكفر والشرك -الرائجة في سوق الوهّابيّة اكثرمن أيّ شيء- وينبغي دراسة الموضوع من زاوية المنطق والبرهان.

لذلك ترىٰ بعض الوهّابيّين -المعتدلين نوعاً ما- عالجوا مسألة «القَسَم على الله بحقّ الأولياء» في إطار الحرمة أو الكراهة، بعكس «الصنعاني» -الوهّابيّ المتطرّف- الذي بحث عن هذه المسألة في نطاق الشرك.

---

(١) الصحيفة العَلوية: ص ٣٧٠.

(٢) الصحيفة العَلوية: ص ٥١.

و الآن... وبعد ما تبيّن محور الحديث، يجب دراسة الموضوع في إطار الحرام والمكروه وبيان الدليل الواضح حول صحة هذا الموضوع وجوازه فنقول:

حقيقة هذا القَسَم في الاسلام و واقعيَّته

لقد ورد «القَسَم على الله بحقّ الأولياء» في أحاديث شريفة متواترة، بعضها مَرويَّة عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وبعضها عن أئمة أهل البيت المعصومين ـ عليهم السّلام ـ وبناءً على هذه الأحاديث لا يمكن القول بحُرمته ولا بكراهته.

و إليك نماذج من ذلك:

١ ـ لقد سبقت الاشارة الى أن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ علَّم ذلك الأعمىٰ الذي جاء يطلب منه أن يردّ الله عليه بَصره، علّمه أن يقول:

«اَللّهُمَّ إنّي أسْألُكَ وَأتَوجَّهُ إلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحمّدٍ نَبيّ الرَّحْمَةِ»(١).

٢ ـ و روىٰ أبو سعيد الخدري عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ هذا الدعاء:

«اَللّهُمَّ إنّي أسْألُكَ بِحَقّ السائِلينَ عَلَيْكَ، وَأسْألُكَ بِحَقِّ مَمْشايَ هٰذا...»(٢).

---

(١) سنن ابن ماجة: ج١ ص ٤٤١، مستدرك الصحيحين: ج١ ص٣١٣، مسند أحمد: ج٤ ص١٣٨ وغيرها.

(٢) سنن ابن ماجة: ج١ ص٢٦١، مسند أحمد: ج٣ حديث٢١.

٣ ـ وقد تاب النبيّ آدم ـ عليه السّلام ـ الى الله بقوله:

«أسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ إلّا غَفَرْتَ لي»(١).

٤ ـ وبعد ما دَفن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ السيّدة فاطمة بنت أسد والدة الامام أمير المؤمنين ـ عليه السّلام ـ دعا لها بقوله:

«إغْفِرْ لاُمّي فاطِمَةَ بنْتِ أسَد، وَوَسِّعْ عَلَيْها مَدْخَلَها، بِحَقِّ نَبِيِّكَ وَ الأنْبِياءِ الّذينَ مِنْ قَبْلي»(٢).

إن هذه الأدعية ـ و إنْ خَلَتْ من لفظ القَسَم بعَينه ـ إلّا أنّ مضمونها هو ذلك، لوجود «باء» القَسَم فيها جميعاً، فعند ما يقول: اَللّهُمّ إنّي أسْألُكَ بِحقِّ السّائلينَ عَلَيك» أي: اُقسِم عليك بحقّهم.

٥ ـ يقول سيّد الشهداء الامام الحسين بن عليّ ـ عليهما السّلام ـ في دعاء له:

«اَللّٰهُمَّ إنّي أسْألُكَ بِكَلِماتِكَ وَمَعاقِدِ عِزِّكَ وَسُكّانِ سَماواتِكَ وَ أرْضِكَ، وَأنْبِيائِكَ وَرُسُلِكَ، أنْ تَسْتَجيبَ لي فَقَدْ رَهَقني مِنْ أمْري عُسْرٌ، فَأسْألُكَ أنْ تُصَلّي عَلىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّد وَأنْ تَجْعَلَ مِنْ أمْري يُسْراً».

و اذا ألقيتَ نظرة على الصحيحة السجّادية المرويّة عن رابع

---

(١) تفسير الدرّ المنثور: ج١ ص٥٩، مستدرك الحاكم: ج٢ ص٦١٥، روح المعاني: ج١ ص٢١٧. وقد مرّت بعض هذه الأحاديث في فصل التوسّل بأولياء الله.

(٢) الفصول المهمّة: ص٣١ لابن الصبّاغ المالكي ـ المتوفى سنة ٨٥٥هـ ـ.

أئمة أهل البيت: الامام زين العابدين -عليه السّلام- لرأيت القَسَم فيه كثيراً جدّاً، فهو خير دليل على صحة هذا النوع من التوسُّل... وإليك نموذجاً منه:

٦ - يقول -عليه السّلام- في دعائه يوم عَرَفة، وهو يُناجي ربّه الكريم:

«بِحَقِّ مَنِ انْتَخَبْتَ مِنْ خَلْقِكَ، وَبِمَنِ اصْطَفَيْتَهُ لِنَفْسِكَ، بِحَقِّ مَنِ اخْتَرْتَ مِنْ بَرِيَّتِكَ، وَمَنِ اجْتَبَيْتَ لِشَأْنِكَ، بِحَقِّ مَنْ وَصَلْتَ طاعَتَهُ بِطاعَتِكَ، وَمَنْ يَنطْتَ(١) مُعاداتَهُ بِمُعاداتِكَ»(٢).

٧ - وعندما زار الامام الصادق -عليه السّلام- مرقد جدّه الامام أميرالمؤمنين -عليه السّلام- دعا في ختام الزيارة بقوله:

«اَللّهُمَّ اسْتَجِبْ دُعائي وَاقْبَلْ ثَنائي وَاجْمَعْ بَيْني وَبَيْنَ أَوْليائي، بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَعَليٍّ وَفاطِمَةَ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ»(٣).

أيّها القارئ الكريم: لقد ورد هذا النوع من الأدعية -المتضمّنة للقَسَم على الله بحقّ أوليائه- كثيراً جدّاً عن الأئمة المعصومين من أهل البيت -عليهم السّلام- ولا يسع المجال لذكر اكثر ممّا سَبق... وكلّ هذه الأدعية تدلّ على جواز القَسَم على الله بحقّ أوليائه الصالحين.

---

(١) ينطْت - مِن أناط ينيطه: الوصْل والربْط.

(٢) الصحيفة السجادية: الدعاء ٤٧.

(٣) زيارة أمين الله المعروفة.

أدلّة الوهّابيّين على الحرمة

لقد ذكر الوهّابيّون بعض الأدلَّة على حرمة القَسَم على الله بحقّ أوليائه، وهي أدلَّة واهية ضعيفة، لا تصلح للحجِّيَّة والاعتبار، والآن نذكرها مع الردّ والاجابة عليها فيما يلي:

الدليل الأول:

قالوا: إتفق علماء السلام على أن القَسَم على الله بالمخلوق ـ أو بحقّ المخلوق ـ حرام(١).

الجواب:

إن معنى الاجماع هو اتفاق علماء الاسلام ـ في عصرٍ واحد، أو في كلّ العصور ـ على حكمٍ من الأحكام الشرعية.

هذا هو الإجماع، وهو حُجّة شرعية عند السُنَّة، نظراً لا تفاق العلماء على ذلك الحكم، وحجّة شرعية عند الشيعة لكونه يكشف عن موافقته لرأي الإمام المعصوم الذي يعيش بين الناس ـ غائباً كان عن أعينهم أم حاضراً ـ.

و الآن لنرى: هل قام إجماع العلماء على الحرمة في هذه المسألة أم لا؟

نحن نصرف النظر ـ الآن ـ عن رأي علماء الشيعة وعلماء السُنَّة

---

(١) كشف الارتياب: ص٣٢ نقلاً عن «الهدية السنيّة».

في هذه المسألة، ونكتفي بذكر فتاوىٰ أئمة المذاهب الأربعة، ونتساءل: هل أفتىٰ أئمة المذاهب الأربعة بالحرمة في هذه المسألة؟

و اذا كانوا قد أفتوا بالحرمة، فنرجو أن تذكروا لنا نَصّ الفتوى مع اسم الكتاب الذي جاء فيه ورقم الصفحة التي تشتمل عليه.

إن كتب الفقه والحديث عند علماء السُنَّة لم تتعرَّض إطلاقاً لهذه المسألة، حتىٰ نعرف نظرتهم الشخصية فيها.

إذن: أين ذلك الإجماع والاتفاق الذي يدَّعيه مؤلّف كتاب «الهدية السَنيَّة»؟!

إن الشخص الوحيد الذي نقل المؤلّف التحريم عنه هو شخص مجهول الشخصية عديم الصيت، اسمه «العزّ بن عبدالسلام»، فهل انصهرتْ المؤلَّفات كلّها في كتاب الهدية السَنيَّة وانصهر علماء الاسلام كلّهم في «العزّ بن عبدالسلام»؟!!

و الجدير بالذكر أن المؤلّف يروي في الكتاب نفسه أن أبا حنيفة وتلميذه أبا يوسف قد أفتيا بكراهة القَسَم بحقّ المخلوق، لا بحرمته.

ثم ما قيمة فتوىٰ إنسان في مقابل الأحاديث الصحيحة المرويّة عن رسول الله وآله الأئمة الأطهار -الذين اتفق علماء السُنّة على أنهم الثِقل الأصغر بعد القرآن وأن أقوالهم حجّة شرعية- ؟!(١).

---

(١) حديث الثقلين متواتر عن رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- وقد ذكره أصحاب الصحاح والسُنن والمحدّثون والمؤرّخون، ولا ينكره إلّا جاهل أو معاند، والحديث هو: **قال** ←

بالإضافة الى أن ما ذكره عن أبي حنيفة غير ثابت.

و خلاصة القول: ليس هناك دليل باسم الإجماع في المسألة إطلاقاً.

الدليل الثاني:

بعد إبطال الدليل الأول للوهّابيّة و بيان عدم صحته نذكر الدليل الثاني وهو قول أحدهم:

«إن المسألة بحقّ المخلوقين لا تجوز، لأنه لا حقّ للمخلوق علىٰ الخالق»(١).

الجواب:

إن هذا الاستدلال ليس إلّا اجتهاداً في مقابل النَصّ الصريح، إذ لو لم يكن للمخلوق حقٌّ في ذمَّةالخالق سبحانه، فلماذا أقسم النبيّ آدم -عليه السّلام- والنبيّ محمَّد -صلّى الله عليه وآله وسلّم- على الله بهذه الحقوق، وسألا من الله الحاجة بسببها -كما ورد في الأحاديث السابقة- ؟!

و بالاضافة الى ذلك... ماذا يقول هؤلاء بشأن الآيات القرآنية التي تُثبت لعباد الله الصالحين حقوقاً في ذمّته سبحانه،

رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إنْ تمسّكتم بها لن تضلّوا بعدي أبداً، وانها لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلّفوني فيهما.

(١) كشف الارتياب: نقلاً عن القدوري.

وكذلك الأحاديث الشريفة؟!

إقرأ هذه الآيات:

«وَ كانَ حَقّاً عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنينَ»(١).

«وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً في التَّوْراةِ وَ الْاِنْجيلِ»(٢).

«كَذٰلِكَ حَقّاً عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنينَ»(٣).

«إِنَّما التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذينَ يَعْمَلُونَ السُوءَ بِجَهالَةٍ»(٤).

و بالإضافة الى ما سبق من الآيات الكريمة... هناك مجموعة كبرىٰ من الأحاديث الشريفة في هذا المجال، وإليك نماذج منها:

١ - «حَقٌّ عَلَى اللهِ عَوْنُ مَنْ نَكَحَ الْتِماسَ العِفافِ مِمّا حَرَّمَ اللهُ»(٥).

٢ - قالَ رَسُولُ اللهِ - صلّى الله عليه [وآله] وسلّم -: «ثَلاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللهِ عَوْنُهُمْ: اَلْغازي في سَبيلِ اللهِ، وَ الْمُكاتَبُ الَّذي يُريدُ الأداء، وَ الناكِحُ الَّذي يُريدُ التَعَفُّفَ»(٦).

٣ - «أتَدْري ما حَقُّ الْعِباد عَلَى اللهِ...»(٧).

نعم... من الواضح أنه ليس لأحدٍ بذاته حقٌّ على الله تعالىٰ،

---

(١) سورة الروم: آية ٤٧.

(٢) سورة التوبة: آية ١١.

(٣) سورة يونس: آية ١٠٣.

(٤) سورة النساء: آية ١٧.

(٥) الجامع الصغير للسيوطي: ج٢ ص٣٣.

(٦) سنن ابن ماجة: ج٢ ص٨٤١.

(٧) النهاية لابن الأثير: مادّة «حق».

حتىٰ لو عبدالله قروناً طويلة، خاشعاً خاضعاً لله، لأن كلّ ما للعبد فهو من عندالله تعالىٰ، فلم يبذل العبد شيئاً من نفسه في سبيل الله كي يستحقّ بذاته الثواب.

ونسأل: فما معنى «الحق»؟

الجواب: إن المقصود من الحق ـ في هذه العبارات ـ هو الجزاء والمنزلة التي يمنحها الله لعباده مقابل طاعتهم وانقيادهم له سبحانه، فهو مَزيدٌ من التفضُّل والعناية منه تعالىٰ، ويدلّ على ألطافه وعظمته.

فهذا «الحق» الذي نُقِسم به على الله ـ حقٌّ جَعله الله، لا أنَّ العبدَ له حقٌّ على الله، وقد أُشير الى هذا المعنى بالذات في بعض الأحاديث الشريفة.

وهذا مِثل القَرض الذي يستقرضه الله من عباده في قوله سبحانه:

«مَنْ ذَا الَّذي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً»(١).

إن هذه التعهّدات الإلٰهية ـ ومَنْح الحقّ لعباده ـ نابعة من ألطاف الله وعناية الفائقة بعباده الصالحين حيث يَعتبر ذاته المقدّسة مديونة لعباده، ويَعتبر عباده أصحاب الحق، وفي هذا الأمر من الترغيب والتشجيع الى طاعة الله ما لا يخفىٰ.

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٤٥.

الفصل الثامن عشر

الحِلف بغير الله تعالىٰ

إن الحلف والقَسَم بغير الله هو من المسائل الحسّاسة عند الوهّابيّين، والتي يُهرِّجون ضدّها في أبواقهم وأقلامهم المنحرفة.

فهذا «الصنعاني» -من مؤلّفي الوهّابيّة- يعتبر الحلف بغيرالله شركاً!!(١).

كما يعتبره مؤلّف «الهدية السَنيّة» شركاً صغيراً(٢).

نحن الآن نقوم -بحول الله وقوّته- بدراسة المسألة -دراسة موضوعية بعيدة عن التعصُّب- متّخذين من كتاب الله وسُنَّة رسوله والأئمة المعصومين -عليهم السّلام- مصباحاً منيراً يُضيء لنا الدرب في هذا المجال -وكلّ مجال-.

الأدلّة على جواز الحِلف بغيرالله

الدليل الأول:

إن القرآن الكريم هو الثِقل الأكبر والقائد الأعلىٰ والمَثَل الحيّ

---

(١) تطهير الاعتقاد للصنعاني: ص١٤.

(٢) الهدية السَنيّة: ص ٢٥.

لكلّ مسلم، وترىٰ فيه الحلف بغيرالله في عشرات المواضع منه، بحيث يؤدّي ذِكرها بالتفصيل الى إطالة البحث.

فمثلاً: أقسم الله تعالىٰ ـ في سورة الشمس وحدها ـ بثمانية أشياء من مخلوقاته وهي: الشمس، ضُحى الشمس، القمر، النهار، الليل، السماء، الأرض، النفس الانسانية(١).

كما أقسم سبحانه ـ في سورة النازعات ـ بثلاثة أشياء(٢) وأقسم بشيئين في سورة المرسَلات(٣) وكذلك ورَد الحلف بغيرالله في سورة «الطارق» و «القلم» و«العصر» و«البَلد».

و إليك نماذج من آيات الحلف بغيره سبحانه، من سُوَر أُخرىٰ:

«وَ التّينِ وَ الزَّيْتُونِ، وَ طُورِ سينينَ، وَهٰذا الْبَلَدِ الأَمينِ»(٤).

«وَ اللَّيْلِ اِذا يَغْشىٰ، وَ النَّهارِ اِذا تَجَلّىٰ»(٥).

«وَ الفَجْرِ وَ لَيالٍ عَشْرٍ، وَ الشَفْعِ وَالْوَتْرِ، وَ اللَّيْلِ اِذا يَسْرِ»(٦).

«وَ الطُّورِ وَ كِتابٍ مَسْطُورٍ، في رَقٍّ مَنْشُورٍ، وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، والْبَحْرِ الْجَسْجُورِ»(٧).

---

(١) سورة الشمس: آية ١ الى ٧.

(٢) سورة النازعات: آية ١ الى ٣.

(٣) سورة المرسلات: آية ١ الى ٣.

(٤) سورة التين: آية ١ الى ٣.

(٥) سورة الليل: آية ١ و ٢.

(٦) سورة الفجر: آية ١ الى ٤.

(٧) سورة الطور: آية ١ الى ٦.

«لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ»(١).

فكيف يجوز الحكم بأن الحلف بغيرالله شرك وحرام، مع هذه الآيات القرآنية الزاخرة بذلك ؟!

فإن قال قائل: إن هذا القَسَم خاصٌّ بالله سبحانه.

فالجواب: كلّا... إن القرآن كتابُ هدايةٍ للبَشر، والناس يتّخذونه قدوة وأُسوة، فلو كان هذا النوع من الحلف حراماً على عبادالله، لكان المفروض أن يُحذّر منه القرآن ويذكر بأن هذا القَسم هو من خصائص الله تعالىٰ ،عدم ذِكرذلك دليلٌ على عدم اختصاصه به سبحانه.

و قد قال بعض مَن لا ذَوق له ـ ممّن يجهل أهداف القرآن ـ بأنه يمكن أن يكون ما يصدر من الله جميلاً، وصدور نفس ذلك الشيء من غيره قبيحاً.

و الجواب علىٰ هذا واضح، لأن الحلف بغيرالله لو كان شركاً و تشبيهاً لغير الله بالله،فلماذا صَدر هذا الشِرك ـ الصغير أو المطلق ـ من الله تعالىٰ ؟!

أيصحّ أن يجعل الله لنفسه شريكاً، ويمنع غيره من ارتكاب مثل هذا الشِرك ؟!

الدليل الثاني:

لقد حَلف النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ بغيرالله في موارد

---

(١) سورة الحجر: اية ٧٢.

عديدة منها:

١ ـ روىٰ مسلم في صحيحه:

«جاء رَجُلٌ إلَى النَّبيّ فَقالَ: يا رَسُولَ الله أيُّ الصَدَقَةِ اَعْظَمُ اَجراً؟ فَقال: أما ـوَأبيك ـ لَتُنَبَّئَنَّهُ أنْ تَصَدَّقَ وَأنْتَ صَحيحٌ شَحيحٌ، تَخْشى الفَقْرَ وَتأمَلُ الْبَقاء»(١).

٢ ـ و روىٰ مسلم أيضاً:

«جاء رَجُلٌ إلىٰ رَسُولِ الله ـمِنْ نَجْدٍ ـ يَسْألُ عَنِ الإسْلام، فَقالَ رَسُولُ الله ـ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ـ: خَمْسُ صَلَواتٍ في اليَوْمِ وَاللَّيْلِ.

فَقالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرَهُنَّ؟

قالَ: لا... إلّا أنْ تَطَوَّعَ، وَصِيامُ شَهْرِ رَمَضان.

فَقالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟

قالَ: لا... إلّا أنْ تَطَوَّعَ، وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ الله الزكاة.

فَقالَ الرَّجُلُ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟

قالَ: لا... إلّا أنْ تَطَوَّعَ.

فَأَدْبَرَ الرَجُلُ وَهُوَيَقُولُ: واللهِ لا أزيدُ عَلىٰ هٰذا وَلا أنْقُصُ مِنه.

فَقالَ رَسُولُ الله: أفْلَحَ ـوَأبيه ـ (٢) إنْ صَدَق.

ـ أوقال ـ: دَخَلَ الجَنَّةَ ـوَأبيه ـ إنْ صَدَق(٣).

٣ ـ وجاء هذا الحديث في مسند أحمد بن حنبل، وفي نهايته أن

---

(١) صحيح مسلم: ج٣ كتاب الزكاة باب أفضل الصَدقة ص٩٤.

(٢) أي: قَسَماً بأبيه. فالواو واوالقَسم.

(٣) صحيح مسلم: ج١ باب ماهو الاسلام ص٣٢.

النبيّ قال له:

«... فَلَعَمْري لإنْ تَكَلَّم (١) بِمَعْرُوفٍ وَتَنْهىٰ عَنْ مُنْكَرٍ، خَيْرٌ مِنْ أنْ تَسْكُتَ» (٢).

و هناك أحاديث أُخرىٰ، لا يسع هذا الكتاب ذِكرها (٣).

و قد أقسم الإمام أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب ـ عليهما السّلام ـ الذي يُعتبر النموذج البارز للتربية الاسلامية والقيَم العالية أقسَم بنفسه الشريفة اكثر من مرَّة في خُطبه ورسائله وكلماته (٤) وكذلك أقسم أبوبكر بن أبي قحافة باب الشخص الذي كان يتكلّم معه (٥).

المذاهب الأربعة والحلف بغير الله

قبل أن نتناول أدلّة الوهّابيّة على حرمة الحلف بغير الله، من الأفضل أن نسجّل فتاوىٰ أئمة المذاهب الأربعة حول هذه المسألة (٦):

---

(١) أي تتكلّم ـ للمخاطب ـ كما في قوله تعالىٰ: **«فأنت له تصدّىٰ»** أي: تتصدّىٰ.

(٢) مسند أحمد: ج٥ ص٢٢٥.

(٣) للتفصيل راجع مسند أحمد: ج٥ ص٢١٢، وسنن ابن ماجه: ج٤ ص٩٩٥ وج١ ص٢٥٥.

(٤) راجع نهج البلاغة ـ تعليق محمّد عبده ـ: خطبة رقم ٢٣ و٢٥ و٥٦ و٨٥ و١٦١ و١٦٨ و١٨٢ و١٨٧ والرسالة رقم ٦ و٩ و٥٤.

(٥) كتاب الموطّأ: لمالك بن أنس ـ إمام المالكية ـ المطبوع مع شرح الزرقاني ج٤ ص١٥٩.

(٦) للتفصيل راجع كتاب الفقه على المذاهب الأربعة: كتاب اليمين ج١ ص٧٥ طبعة مصر.

أمّا الحنَفيّة فيقولون بأن الحلف بالأب والحياة ـ كقول الرجل: وأبيك، أو: وحياتك ـ وماشابه مكروه.

و أمّا الشافعيّة فيقولون بأن الحلف بغيرالله ـ لو لم يكن باعتقاد الشرك ـ فهو مكروه.

و أمّا المالكيّة فيقولون: إن في القَسم بالعظماء والمقدّسات ـ كالنبيّ والكعبة ـ فيه قولان: الحرمة والكراهة، والمشهور بينهم هو الحرمة.

و أمّا الحنابلة فيقولون بأن الحلف بغيرالله وبصفاته سبحانه حرام، حتىٰ لو كان حلفاً بالنبيّ أو بأحد أولياء الله تعالىٰ.

هذه فتاوىٰ أئمة المذاهب الأربعة، ولسنا الآن في مقام المناقشة مع القائلين منهم بالحرمة، وأن فتاواهم من الاجتهاد في مقابل النصوص القرآنية وسُنّةِ النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وسيرة أولياء الله سبحانه، وأن علماء هذه المذاهب سدُّوا باب الاجتهاد على أنفسهم، فصاروا مجبورين على الأخذ بآراء أئمة المذاهب الأربعة فقط.

و لسنا واثقين ممّا نُسب اليهم في هذه المسألة، لأن القسطلاني ذكر(١) عن مالك بن أنس أنه كان يقول بكراهة الحلف بغيرالله.

و نسبة الحرمة الى الحنابلة غير ثابت أيضاً، لأن ابن قدامة يذكر ـ في كتاب المغني الذي كتبه إحياء لفقه الحنابلة ـ أن أحمد

(١) في كتاب إرشاد الساري: ج٩ ص٣٥٨.

بن حنبل أفتىٰ بجواز الحلف بالنبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وأنه ينعقد لأنه أحد رُكني الشهادة، وقال ـ أحمد ـ :

«لو حَلَفَ بالنبيّ انعقد يمينه، فإنْ حَنث لزمتْه الكفّارة».

مع كلّ ما سبَق من الأقوال... لا يمكن التأكّد ـ إطلاقاً ـ من أن أحد أئمة المذاهب الأربعَة قد أفتىٰ بحرمة الحلف بغير الله تعالىٰ.

أيّها القارئ الكريم: بعد الاطّلاع على فتاوىٰ أئمة المذاهب الأربعة، ننتقل الى ذِكر حديثين تمسَّك بهما الوهّابيّون في حرمة الحلف بغير الله، وأراقوا من أجل ذلك دماء الأبرياء(١) واستهدفوا ملايين المسلمين بسهام التكفير السامَّة:

الحديث الأول:

«إنَّ رَسُولَ الله سَمِعَ عُمَرَ وَهُوَ يَقُول: وَ أَبي، فَقالَ: إنَّ الله يَنْهاكُمْ أنْ تَحْلِفُوا بِآبائِكُمْ، وَمَنْ كانَ حالِفاً فَلْيَحْلِفْ بِالله أوْ يَسْكُت»(٢).

الجواب:

أولاً: لعلّ النهي عن الحلف بالآباء قد جاء لأنهم ـ في

---

(١) لقد شنَّ الوهّابيّون هجومين علىٰ مدينة كربلاء المقدّسة، كان أحدهما في عام ١٢١٦هـ والآخر في عام ١٢٥٩هـ، ولم يرحموا صغيراً ولا كبيراً، حتىٰ أنهم قتلوا ستة آلآف مسلم خلال ثلاثة أيام فقط، ونَهبوا كلَّ ما كان في الحرم الحسينيّ الشريف من نفائس قيّمة، إقتداءً بما فعله جيش يزيد بن معاوية عند الهجوم علىٰ مدينة رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ولكن لماذا؟ لماذا هذه الحملات الحاقدة؟ السبب هو أن هؤلاء المسلمين كانوا يُقسمون على الله بأبناء رسول الله ويحملون المحبّة والمودّة تجاههم.

(٢) سنن ابن ماجة: ج١ ص٢٧٧، سنن الترمذي: ج٤ ص١٠٩ وغيرهما.

الغالب ـ كانوا مشركين وعَبَدة للأصنام، ولهذا فلا حُرمة ولا كرامة لهم حتىٰ يحلف أحدٌ بهم.

و قد جاء في الحديث عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ :

«لا تَحْلِفُوا بِآبائِكُمْ وَلا بِالطَّواغيت»(١).

و روي أيضاً:

«لا تَحْلِفُوا بِآبائِكُمْ وَلا بِأُمّهاتِكُمْ وَلا بِالأَنْدادِ»(٢).

ثانياً: إن المقصود من النهي عن الحلف بالأب هو ذلك الحلف الذي يُفصل به في القضاء والخُصومات وحسم الخلافات، لأن علماء الاسلام اتفقوا على أن اليمين التي تحسم الخلاف والنزاع هو الحلف بالله سبحانه وبصفاته التي هي عين ذاته فقط، أمّا سوى ذلك فلا.

مع وجود هذه القرائن الواضحة... كيف يمكن أن يقال بأن النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ نهىٰ عن الحلف بالمقدّسات ـ كالكعبة والقرآن وأولياء الله تعالى ـ مع العلم أن النهي خاصّ بمورد معيّن، وأن النبيّ بنفسه كان يحلف بغيرالله؟

الحديث الثاني:

«جاء ابن عُمَرَ رَجُلٌ فَقالَ: أحْلِف بِالْكَعْبَة؟ قالَ لَهُ: لا، ولكنْ إحْلف

(١) سنن النسائي: ج٧ ص٧، سنن ابن ماجة: ج١ ص٢٧٨، والطواغيت: هي الأصنام.

(٢) سنن النسائي: ج٧ ص٩.

بِرَبِّ الْكَعْبَة، فَإِنَّ عُمَرَ كانَ يَحْلِفُ بِأبيه فَقالَ رَسُول الله: لا تَحْلِفْ بِأبيكَ فَإِنَّ مَنْ حَلَفَ بِغَيْر اللهِ فَقَدْ أشْرَكَ »(١).

الجواب الأول:

إن هذا الحديث يتألّف من ثلاثة أُمور:

١ ـ إن رجلاً جاء الى ابن عمر فقال: أحلف بالكعبة؟ فأجابه بقوله: لا، ولكن إحلف بربِّ الكعبة.

٢ ـ إن عمر بن الخطّاب كان يحلف بأبيه، فنهاه النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ عن ذلك.

٣ ـ إن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ علّل ذلك بقوله «مَن حَلف بغيرالله فقد أشرك».

و القدر المتيقّن منه كما هو مورد كلام الرسول ما اذا كان المحلوف به شيئاً غير مقدّس كالكافر والصنم. ولكن ابن عمر اجتهد بأن قول النبيّ «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ اَشْرَكَ» الذى ورد في الحلف بالمشرك ـ وهو الخطّاب الذي هو والد عمر ـ اجتهد بأنه يشمل الحلف بالمقدّسات أيضاً كالكعبة، مع العلم بأن كلام النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قد ورد في الحلف بالمشرك كما أوضحناه عند البحث عن الحديث السابق، وعلى ذلك فقد كان كلام الرسول في الضابطة التي أعطاها خاصّاً بما اذا كان المحلوف به أمراً غير مقدّس ولكن ابن عمر اجتهد وجعله أعمّ منه ومن

(١) السنن الكبرى للبيهقي: ج١٠ ص٢٩، وقريب منه في مسند أحمد: ج٢ ص٦٩.

غيره، واجتهاده حجّة على نفسه لا على غيره.

و قد أوضحنا سابقاً بأن النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- كان يحلف بغيرالله سبحانه كثيراً، فيجب أن نحمل قوله: «مَن حَلف بغيرالله فقد أشرك» على الحلف بالمشرك وأمثاله، لا علىٰ الحلف بالمقدّسات كالقرآن والكعبة والنبيّ، بدليل أن النبي إنما أعطى هذه الظابطة عند حلف عمر بأبيه المشرِك.

فتطبيق هذا الحديث على الأعمّ من المشرك وغيره اجتهادٌ من ابن عمر، واجتهاده حجّة لنفسه فقط لا لغيره.

و تسأل: لماذا اعتبر رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- الحلف بالمشرك شركاً؟

و الجواب: لأن الحلف به نوع من التشييد بشخصيّته والتعظيم له والتصديق لدينه الباطل وعقيدته المنحرفة.

والخلاصة: إننا نُسلّم أصل الحديث، ولا نُسلّم اجتهاد ابن عمر، نظراً لمخالفته لسُنّة رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- وسيرة الصحابة، فالقاعدة المذكورة في حديث النبيّ الكريم مختصَّة بما حَلف به عمر، ولا تعمّ المقدّسات الاسلامية أبداً.

و أمّا الحلف بالكعبة والقرآن والأنبياء والأولياء -في غير القضاء والخصومات- فهو خارج عن تلك القاعدة العامّة، وليس شركاً ولا حراماً.

الجواب الثاني:

و هنا جواب آخر أوضح من الجواب الأول وهو: إن قول

النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم-: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ أشْرَكَ» يشير الى حلفٍ خاصّ وهو الحلف بالأصنام -كاللّات والعُزّى- فقط ولايعمّ الانسان المشرك فضلاً عن المقدّسات.

ويؤيّد هذا الجواب ما رواه النسائي في سُنَنه إن النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- قال:

«مَنْ حَلَفَ فَقالَ في حَلْفِهِ: بِاللّاتِ وَالْعُزّىٰ فَلْيَقُلْ: لا الٰهَ الا الله» (١).

وما رواه -في نفس المصدر- إن النبيّ -صلّى الله عليه وآله- قال:

«لا تَحْلِفُوا بِآبائِكُمْ وَلا بِأُمَّهاتِكُمْ وَلا بِالأَنْدادِ».

إن الحديث الأول يدلّ على أن رَواسب الجاهلية كانت باقية في بعض النفوس، فكانوا يحلفون بأصنامهم المعبودة من دون الله، فأمرهم النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- بقول: «لا اِلٰهَ اِلّا الله» من أجل القضاء على تلك الرواسب الجاهلية.

ويُستفاد ممّا رواه إمام الحنابلة أن قوله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ أشْرَكَ» كان حديثاً مستقلّاً، فجاء ابن عمر وأدخل اجتهاده الشخصي -في عموم الحلف بالأب وبالمقدّسات- في سياق الحديث، لم يكن الحلف بالآباء ولا المقدّسات داخلاً فيه، وإن أدخلهما فيه ابن عمر.

الحديث الذي رواه إمام الحنابلة هو هذا:

«عَنْ ابْن عُمَرَ قالَ: كانَ يَحْلِفُ أبي، فَنَهاهُ النَّبِّي، قالَ: مَنْ حَلَفَ

---

(١) سُنَن النسائي: ج٧ ص٨.

بِشَيءٍ دُونَ اللهِ فَقَدْ أشْرَكَ »(١).

فإنك ترىٰ حديث النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ مُستقلاً عن مقالة ابن عمر، ولم يأتِ بـ «واو» العاطفة أو «فاء» التفريع، بل قال «فنهاه النبي، قال: ...» ممّا يدلّ على أن الحديث صدر في وقتٍ آخر، بصورة مستقلّة.

أيّها القارئ الكريم: لقد تلخّص مِن كلّ ما سَبق:

١ ـ إن الحلف بغير الله لا مانع منه شرعاً، وقد صدَر ذلك من الله تعالىٰ في القرآن الكريم ومن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وخليفته أمير المؤمنين عليّ ـ عليه السّلام ـ والمسلمين.

٢ ـ إن الحلف بغير الله لا يصحّ ـ ولا نقول: لا يجوز ـ لا يصحّ في القضاء والخصومات، بل لابدّ منَ الحلف بالله جلّ جلاله أو بإحدىٰ صفاته التي هي عين ذاته سُبحانه، وقد ثبت هذا بالدليل الخاصّ ولا علاقة له بهذا البحث.

٣ ـ إن الحديثين اللّذين استدلّ بهما الوهّابيّون الضالّون ـ على حرمة الحلف بغير الله ـ لا علاقة لهما بما نحن فيه من الحلف بالمقدّسات الاسلامية ـ كالقرآن والكعبة والأنبياء والأئمة والأولياء ـ بل هي خاصّة بالحلف بالأمور غير المقدّسة كالآباء المشركين والأصنام المعبودة في الجاهلية.

و هكذا يتعرّىٰ الوهّابيّون من الأقنعة «الاسلامية!!» المزيّفة التي يُلبسون بها آراءهم الشاذّة وأفكارهم الباطلة والحمد لله رب العالمين.

---

(١) مسند أحمد: ج٢ ص٣٤.

الفصل التاسع عشر

الإستغاثة بأولياء الله تعالىٰ

هل يجوز نداء أولياء الله والاستغاثة بهم في الشدائد والمكاره؟

هذه المسألة من المسائل التي وقع الاختلاف فيها بين الوهّابيّين والمسلمين. فالسُنّة الاسلامية قائمة بين المسلمين على الاستغاثة بالأنبياء وأولياء الله، وندائهم بأسمائهم عند الشدائد والمصاعب والأخطار المحتملة، سواء كانت الاستغاثة عند قبورهم الشريفة أو في مكان آخر. ولا يرى المسلمون بأساً في هذه الاستغاثة، ولا شِركاً ولا مُخالفةً للدين، في حين يتعصَّب الوهّابيّون ضدّ هذه الظاهرة الاسلامية تعصُّباً شديداً، و يتذرَّعون ببعض الآيات القرآنية -التي لا علاقة لها بالمسألة أبداً- لتلبيس باطلهم بالحق، كقوله تعالىٰ:

«وَأَنَّ الْمَساجِدَ للهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أحَداً»(١).

و لكي تطّلع -أيّها القارئ الكريم- على الآيات القرآنية التي يستدلّ بها الوهّابيّون على رأيهم الشاذ، نتناول تلك الآيات

---

(١) سورة الجن: آية ١٨.

بالبحث والتشريح -إن شاءالله تعالىٰ- كي تعرف تفسيرها الصحيح، وبذلك نردّ عليهم من نفس القرآن الكريم الذي زعموا أنهم يستدلّون به قبل كلّ شيء، نذكر بعض تلك الآيات:

«لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ، وَالَّذينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجيبُونَ لَهُمْ بِشَيء»(١).

«وَالَّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ»(٢).

«وَالَّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمير» (٣).

«إِنَّ الَّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ»(٤).

«قُلِ ادْعُوا الَّذينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْويلاً»(٥).

«أُولٰئِكَ الَّذينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ اِلىٰ رَبِّهِمُ الْوَسيلَةَ»(٦).

«وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ »(٧).

«إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ»(٨).

---

(١) سورة الرعد: آية ١٤.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٩٧.

(٣) سورة فاطر: آية ١٣.

(٤) سورة الأعراف: آية ١٩٤.

(٥) سورة الإسراء: آية ٥٦.

(٦) سورة الإسراء: آية ٥٧.

(٧) سورة يونس: آية ١٠٦.

(٨) سورة فاطر: آية ١٤.

«وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجيبُ لَهُ اِلىٰ يَوْمِ القِيامَةِ»(١).

بهذه الآيات يستدلّ الوهّابيّون على حرمة الاستغاثة بأولياء الله ودعائهم وندائهم بعد وفاتهم، وأن ذلك عبادة لهم وشرك بالله، فاذا قال رجل ـ عند قبر رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أو في مكان آخر ـ: «يامُحَمَّد» فقد عَبَده بهذا النداء والدعاء!!!

يقول الصنعاني ـ الوهّابي ـ:

«وقد سمّى الله الدعاء عبادة بقوله: «أُدْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ، إنَّ الَّذينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتي» ومَن هتَف باسم نبيّ أو صالحٍ بشيء، أو قال «إشفع لي الىٰ الله في حاجتي» أو «أستشفعُ بك الىٰ الله في حاجتي» أو نحو ذلك، أو قال «إقضِ دَيني» أو «إشفِ مريضي» أو نحو ذلك فقد دعا النبيَّ والصالح، والدعاء عبادة بل مُخُّها، فيكون قد عبد غير الله وصار مشركاً، إذ لا يتمّ التوحيد إلّا بتوحيده تعالىٰ في الإلٰهيّة(٢) باعتقادات لا خالق ولا رازق غيره، وفي العبادة بعدم عبادة غيره ولو ببعض العبادات، وعُبّاد الأصنام إنما أشركوا لعدم توحيد الله في العبادة»(٣).

---

(١) سورة الأحقاف: آية ٥.

(٢) لقد استعمل الصنعاني كلمة «الإلٰهيّة» بَدل «الربوبيّة» على خلاف عادة الوهابيّين.

(٣) كشف الارتياب: ص٢٧٤ نقلاً عن تنزيه الاعتقاد للصنعاني.

الجواب:

ممّا لا شكَّ فيه أن لفظ «الدعاء» -في اللغة العربية- معناه: النداء، وقد يُستعمل في معنى العبادة، إلّا أنه لا يمكن -بأيّ وجه- أن نعتبر الدعاء والعبادة لفظين مترادفين في المعنىٰ، فلا يمكن أن نقول: كلّ دعاء عبادة، وذلك للأُمور التالية:

الأول: لقد استعمل القرآن المجيد لفظ «الدعاء» في مواضع عديدة، ولا يمكن القول بأن مقصوده منه: العبادة، فمَثَلاً... يقول تعالىٰ:

«قالَ رَبِّ إنّي دَعَوْتُ قَوْمي لَيْلاً وَنَهاراً»(١).

فهل يصحّ أن يُقال: إن النبيّ نوحاً -عليه السّلام- قَصد من كلامه هذا أنه عَبد قومه ليلاً ونهاراً؟!

و اقرأ قوله تعالىٰ -عن لسان إبليس في خطابه للمذنبين يوم القيامة-:

«وَما كانَ لي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إلّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لي»(٢).

هل هناك من يحتمل أن معنىٰ دعاء الشيطان للمذنبين هو عبادته لهم؟! مع العلم أن العبادة -اذا تحقّقت- تكون من المذنبين للشيطان لا من الشيطان لهم.

---

(١) سورة نوح: آية ٥.

(٢) سورة إبراهيم: آية ٢٢.

في هاتين الآيتين ـ و آيات أُخرىٰ مماثلة نَصرف النظر عن ذِكرها ـ جاء لفظ «الدعوة» في غير معنىٰ العبادة، ولهذا لا يمكن القول بأن الدعاء والعبادة لفظان مُترادفان، وأن مَن دعا أحد الأنبياء أو الأولياء فقد عَبَده وأشرَك بالله، كلاّ، لأن الدعوة ـ والدعاء ـ أعمّ من العبادة وغيرها(١).

الثاني: إن معنى «الدعاء» ـ في الآيات التي استدلَّ بها الوهّابيّون ـ ليس مطلق النداء، بل معناه النداء على وجه يكون مُرادفاً للعبادة، لأن جميع هذه الآيات إنما نزلت في شأن عَبَدة الأصنام الذين كانوا يعتقدون بأنها آلهة صغيرة قد فُوِّض اليها بعض شؤون الكون، ولها الاستقلال في التصرُّف، فمن الواضح أن كلَّ دعاء ونداء لهذه الأصنام ـ سواء كانت آلهة كبيرة أو صغيرة، مع الاعتقاد بأنها مالكة الشفاعة والمغفرة ـ يُعتبر شركاً وعبادةً لها.

و أوضح دليل على أنَّ عَبَدة الأصنام كانوا يدعون أصنامهم باعتقاد اُلوهيَّتها هو قوله تعالىٰ:

«فَما أغنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيء(٢).

إذن: لا علاقة بين الآيات المذكورة وهذه المسألة إطلاقاً، لأن البحث حول استغاثة إنسان بإنسان آخر من دون الاعتقاد

---

(١) و على اصطلاح أهل المنطق، بين الدعاء والعبادة عموم وخصوص مِن وَجه، فالاستغاثة بأولياء الله ـ مع الاعتقاد بقدرتهم المستمدَّة من قدرة الله ـ دعاء لا عبادة، و بعض الفرائض الدينية كالركوع والسجود ـ المقرونين بالُوهيّة من تركع وتسجد له ـ عبادة لا دعاء، والصلاة ـ مثلاً ـ دعاء وعبادة.

(٢) سورة هود: آية ١٠١.

بربوبيّته واُلوهيّته ولا بمالكيّته ولا باستقلاله في التصرّف في اُمور الكون والدنيا والآخرة، بل باعتبار أنه عَبدٌ صالح ووجيهٌ عندالله، قد اصطفاه الله للنبوّة أو للإمامة، ووعد باستجابة دعائه في حقّ مَن يدعو له، كما قال تعالىٰ:

«وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوّاباً رَحيماً»(١).

الثالث: إنّ في الآيات ـ التي استدلَّ بها الوهّابيّون ـ دليلاً على أن المقصود من «الدعاء» هو العبادة لا مطلقاً.

تأمّل قولَه تعالىٰ:

«وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ، إنَّ الَّذينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرينَ»(٢).

لقد ذكر سبحانه لفظ «اُدْعُوني» ثم أتبعها بلفظ «عِبادَتي» ممّا يدلّ ـ دلالة واضحة ـ على أن المقصود من «اُدْعُوني» ـ هنا ـ: عبادة الله وترك عبادة غيره، ولهذا كان المشركون «يَسْتَكْبِرُونَ» عن دعائه وعبادته سبحانه.

يقول حفيد رسول الله الإمام زين العابدين ـ عليه السّلام ـ في دعاء له:

«... فَسَمَّيتَ دُعاءَكَ عِبادَةً، وَتَرْكَهُ اسْتِكْباراً، وَتَوَعَّدْتَ عَلىٰ تَرْكِهِ دُخُولَ جَهَنَّمَ داخِرينَ»(٣).

---

(١) سورة النساء: آية ٦٤.

(٢) سورة غافر: آية ٦٠.

(٣) الصحيفة السجّادية: دعاء رقم ٤٥.

و قد جاءت في القرآن الكريم آيتان بمعنىً واحد، استعمل في إحداها لفظ «العبادة» وفي الثانية لفظ «الدعوة».

فالأُولىٰ قوله سبحانه:

«قُلْ أتَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً»؟(١).

والثانية هي قوله سبحانه:

«قُلْ أنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا»(٢).

و يقول سبحانه:

«وَالَّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمير»(٣).

في هذه الآية جاء بلفظ «تَدْعُونَ» وفيها دلالة واضحة على أنَّ هذه الدعوة هي دعوة الأصنام، وكان المشركون يعتقدون بأنها آلهة «مِنْ دُونِهِ» تضرُّ وتَنفع، ولهذا ردَّ الله عليهم بقوله: «ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمير».

وجاء هذا المعنىٰ في آية مماثلة بلفظ «تَعْبُدُونَ» وهي قوله سبحانه:

«إنَّ الَّذينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً»(٤).

و في آية أُخرىٰ جاءت الكلمتان مُتقارنتان بمعنىً واحد، وهي قوله عزّوجل:

«قُلْ إنّي نُهيتُ أنْ أعبُدَ الَّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله»(٥).

---

(١) سورة المائدة: آية ٧٦.

(٢) سورة الأنعام: آية ٧١.

(٣) سورة فاطر: آية ١٣.

(٤) سورة العنكبوت: آية ١٧.

(٥) سورة الأنعام: آية ٥٦، وبهذا المضمون في سورة غافر: آية ٦٦.

أيّها القارئ الكريم: أرجو منك أن تقوم بمراجعة «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» مادّة: «عَبَد» و «دعا» كي ترىٰ بعينك كيف جاء لفظ «العبادة» ـ في آية ـ و «الدعوة والدعاء» ـ في آية أُخرىٰ ـ بمعنىٰ واحد ومضمونٍ واحد، ممّا يدلّ ـ أوضح دلالة ـ على أن المقصود من الدعوة والدعاء ـ في هذه الآيات ـ هي العبادة، لا مطلق النداء والدعاء.

فاذا تأمَّلتَ الآيات التي تَضمَّنت لفظ «الدعاء والدعوة» بمعنىٰ العبادة، لرأيت أن تلك الآيات تتحدّث عن الصراع بين الايمان والكفر، بين عبادة الله وتوحيد والايمان باُلوهيَّته وربوبيَّته وبين عبادة الطاغوت والأنداد والأصنام والاعتقاد بمالكيّتها للرزق والمغفرة والشفاعة والنفع والضرّ.

فاستدلال الوهابيّين بهذه الآيات ـ على حرمة نداء الأنبياء والأولياء والاستغاثة بهم ـ يدعو الى الإستغراب والتعجّب، نظراً لعدم علاقتها بهذه المسألة إطلاقاً.

و خلاصة ماثبت ـ من خلال هذا البحث ـ : إن قولك «ياعلي» ـ مخاطباً خليفة رسول الله ـ أو «ياحسين» أو «يازهراء» أو غيرذلك من أسماء أولياء الله الطاهرين لا إشكال فيه أبداً، بل هو نوع من الاستغاثة بهم ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ فهو محبوب مرغوبٌ فيه، ويعود على الانسان بالخلاص من الأزمات والفَرَج من الشدائد والنجاة من المهالك.

الفصل العشرون

الحجّ

موسم عبادي وملتقىٰ سياسي

جعل الله الكعبة البيتَ الحرامَ قياماً للناس وجعل الحجّ موسماً للعبادة، وفرصة لالتقاء المسلمين الوافدين من كلّ صقع وصوب ليتعارفوا، وليتعرّفوا على معالم دينهم ويطّلعوا على أحوالهم، فهذا هو -بعد العبادة- من أظهر مصاديق قوله تعالى «وليشهدوا منافع لهم»، وأيّ منفعة -بعد العبادة- اكبر من أن يلتقي الاخوة في الله في نقطة واحدة بعيداً عن جميع الاعتبارات الشخصية والاجتماعية والحواجز القومية والاقليمية والعرقية يُخيم عليهم ظِلال الدين، وتغمرهم مشاعر المحبّة والمودّة، وتجمعهم روح الاخوّة الصادقة الصافية؟

وأيّ مسألة أهمّ من أن يتعرّف المسلمون على الأخطار و المشاكل المحدقة بهم، و يتدارسوا حلولها المناسبة و يعملوا معاً و بيد واحدة، وعزيمة متضافرة لإزالتها، أو يخفّضوا من وطأتها وثقلها عن كواهلهم.

وأيّ مشكلة هي اكثر ضغطاً على المسلمين اليوم من مشكلة الاستعمار المتشكّل بأشكال مختلفة الذي يحتلّ بلاد المسلمين

عسكرياً أو يسيطرعليها سياسياً أو يغزوها ثقافياً، وينهب ثراوت المسلمين، ويثير الفتن بينهم، ويقتل أبناءهم، ويُفسدشبابهم، و.و.و.

أليس «الحجّ» خير مكان لإعلان الاستياء الاسلامي العام من هذا الإستعمار الخبيث البغيض وفي طليعته أمريكا وروسيا؟

واذا كان المسلمون المظلومون، المظطهدون في بلادهم لا يستطيعون الإعلان عن استيائهم وغضبهم على المستعمرين في عقر ديارهم ،لوجود حكومات عميلة تخنق الأصوات، وتكمم الأفواه، أفلا يكون الحجّ أنسب فرصة وأنسب مكاناً لإعلان هذا الاستياء والغضب جنباً الى جنب مع كافّة الاخوة المسلمين إلى جانب العبادة والخضوع والتضرّع والإنابة؟

أليس رفض ـ الطواغيت ـ التي يعتبر الخضوع لحكمها، والسير في ركابها، والركون اليها من مصاديق الشرك في الطاعة ـ من أبرزمظاهر التوحيد الذي جعل الله الحجّ تجسيداً له، وتحقيقاً لحقيقته؟.

ولقد أدرك المسلمون اليوم هذه الحقيقة، ومع تنامي الحركة الإسلامية وتصاعد الصحوة الاسلامية أدركواأن الحجّ هوالمكان المناسب والفرصة المناسبة لتوحيد صفوف المسلمين، وايقاضهم، وايقافهم على حقيقة الأحداث المأساوية التي يقف وراءها أعداء الاسلام: أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا وغيرهم من قوى الاستكبار والاستعمار.

لقد أدركوا أن الحجّ خير فرصة لإعلان الاستياء الاسلامي العام من الاستعمار البغيض جنباً الى جنب مع العبادة والإنابة امتثالاً لقوله تعالى «ليشْهَدوا مَنافِعَ لَهُم، ويَذكُرُوا اسمَ الله»(١) الذي يشير إلى فلسفة الحجّ المزدوجة: العبادة والسياسة وبُعديه الدنيويّ والأُخروي.

ومن أجل هذا كانت التظاهرات السياسية العظيمة التي بدأها المسلمون أيام الحجّ منذ سنوات، ويتقدّمهم الاخوة الايرانيون المسلمون.

و لكن مع الأسف نجد بعض من يدّعي العلم، ويتصدّر مقام الدعوة الى الاسلام يخالف بشدة هذه الحركة المباركة وهذه الخطوة العظيمة المؤثرة التي لا تهدف إلّا إنقاذ المحرومين والمظلومين، وشجب الاستعمار والاستعباد، وهو يسمع باستمرار أخبار المذابح والمجازر التي تودي بحياه آلاف الآلاف من أبناء الأُمّة الاسلامية كلّ يوم وبسبب مباشرمن استعمار في الهند وفلسطين ولبنان و أفغانستان وارتيريا، والحدود العراقية الايرانية، وغيرها وغيرها.

هذا البعض بدل أن يضمّ صوته الى أصوات بقيّة المسلمين المستنكرة لأعمال الاستعمار، الشاجبة لجرائمهم بحقّ الإسلام والمسلمين نجده يضمّ صوته إلى أصوات الدوائر الاستعمارية ويرفع عقيرته ضدّ المسلمين، ويستنكر غضبهم على الاستعمار المتمثّل اليوم في أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا الملطّخة أيديهم بدماء

---

(١) سورة الحج: آية ٢٨.

المسلمين المبنيّة قصورهم من جماجم أبناء الاسلام.

و أعجب من كلّ هذا تمسّكه لتحريم هذه الخطوة المباركة بقوله تعالى «لا رَفَثَ ولا فُسُوقَ ولا جِدالَ في الحجّ» الذي لا علاقة له بهذه المسألة أصلاً.

ذلكم هو الشيخ عبدالله خيّاط إمام وخطيب المسجد الحرام الذي اعتبر طرح مشاكل المسلمين السياسية في موسم الحجّ خروجاً عن مفاهيم الحجّ، واستدلّ لذلك بقول الله تعالى: «فَمَنْ فَرَضَ فيهِنَّ الحجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ ولا جِدَالَ في الحَجّ»(١)، وقال:

«و كما أرادها الرسول في قوله -ص- «من حَجّ وَلَمْ يرفِثْ ولَمْ يَفسِقْ عادَ كيومِ وَلَدَتهُ أُمّه»».

أمّا دعوة ايران الخميني التي يريد أن يحوّل الحجّ الى شعارات سياسية، والى مظاهرات دعائية، والى ممارسات فوضوية، فهي مرفوضة شكلاً ومضموناً لأنها تتنافىٰ مع تعاليم ديننا الحنيف، وتخرج عن مفاهيمه ومبادئه السمحة، ولأنها تقوّض ركناً من أركانه، ففيها انتهاك لحرمات الله، واجتراء على شعائر الله، وخروج على النهج الذي رسمه الله.

إن دعوة ايران الخميني تثير الفتنة وتشتّت الشمل وتحوّل المحبّة الى أحقاد، وتحوّل المشاعر المقدّسة الى ساحات لرفع الشعارات السياسية، ونشر الدعوات المشبوهة، فما من مسلم على وجه الأرض إلّا ويرفض هذه الدعوة ويستنكرها، لأن فيها خروجاً على الاسلام وانتهاكاً لشعائره.

(١) سورة البقرة: آية ١٩٧.

والحجّ لا يمكن أن يكون إلّا ملتقىً روحياً ومؤتمراً سنوياً يجتمع فيه المسلمون الوافدون من كلّ فجّ عميق»(١).

إن ما ورد في هذا الخطبة من العبارات والكلمات هي التي نسمعها من مرتزقة السعودية في كلّ عام، وفي كلّ خطاب، ومن كلّ خطيب، فهم لايتجاوزون عن تلاوة نفس الآية، وإتباعها بما قرأت من هذا الخطيب من الكلمات والعبارات الجوفاء.

و نحن ـ هنا ـ لا نقابل الشيخ إلّا بما أمرنا به سبحانه في قوله: «وجادلهم بالتي هي أحسن» فنشرح معنى الآية ونوضحه، حتىٰ يظهر المراد منها، ويعلم الجميع أن المظاهرات السياسية وإعلان البراءة من الكفّار وشجب أعمالهم المعادية للاسلام والمسلمين، ودعوة المسلمين الى الوحدة التي هي روح تلك المظاهرات التي أمر بها الإمام الخميني، ليست مصداقاً للجدال الوارد في الآية.

و إليك تفسير الآية و بيان المراد منها، قال سبحانه:

«الحجُّ أشهرٌ مَعْلومات، فَمَنْ فَرَضَ فيهِنَّ الحجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدالَ في الحَجّ»(٢).

١ ـ إن تكرار لفظ «الحجّ» في الآية ثلاث مرّات مضافاً الى أنه من قبيل وضع الظاهر موضع المضمر، فيه لطف الايجاز، فإن المراد بالحجّ الأول: زمان الحجّ، وبالحجّ الثاني: نفس العمل، وبالثالث: زمان الحجّ ومكانه، ولولا الإظهار لم يكن بدٌّ من

---

(١) مجلة رابطة العالم الاسلامي ـ السنة الحادية والعشرون ـ العدد الثاني عشر.

(٢) سورة البقرة: آية ١٩٧.

إطناب غير لازم.

قال في تفسير المنار لرشيد رضا:

«إن من بلاغة الايجاز في الآية التصريح في مقام الإضمار بذكر الحجّ ثلاث مرّات، المراد بأوّلها: زمان الحجّ كقولهم البرد شهران، وبالثاني: الحجّ نفسه المسمىٰ بالنسك، وبالثالث: مايعمّ زمان أدائه ومكانه وهو أرض الحرم ومايتبعها كعرفات»(١).

٢ ـ المراد من قوله: «فَمَنْ فَرَضَ فيهِنَّ الحَجَّ» أي ألزمَ نفسَه بالشروع في الحجّ بالنيّة قصداً باطناً، والإحرام فعلاً ظاهراً، وبالتلبية نطقاً مسموعاً(٢).

٣ ـ المشهور أن الرفث هو الجماع، وعن عبدالله بن عمر وطاووس وعطاء وغيرهم الرفث الإفحاش للمرأة بالكلام(٣) أو مطلق الفحش(٤) وقيل غير ذلك.

٤ ـ وفسّر الفسوق بجميع المعاصي كلّها، وقال ابن زيد ومالك: الفسوق الذبح للأصنام، وقال الضحّاك: الفسوق التنابز بالألقاب، وقال ابن عمر: الفسوق السباب، والقول الأول هو الأصح، لأنه يتناول جميع الأقوال.

وقد روي عنه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أنه قال:

---

(١) المنار: ج٢ ص٢٢٨.

(٢) تفسير القرطبي: ج٢ ص٤٠٦.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) تفسير الكشاف للزمخشري: ج١ ص٢٦٤.

«من حَجّ فلم يرفث ولم يفسق رَجَعَ كيوم وَلَدَتهُ أُمُّه» و«الحجّ المبرور ليس له جَزاءٌ إلّا الجنّة» أخرجه مسلم وغيره(١).

٥ ـ والجدال في اللغة هو المنازعة والمشاجرة والمخاصمة.

يقال: جدلت الحبّ فتلته، والجديل زمام البعير.

وسمّيت المخاصمة مجادلة لأن كلّ واحد من الخصمين يروم أن يفتل صاحبه عن رأيه.

والمهمّ في المقام هو تفسير قوله تعالى: «ولا جِدالَ في الحجّ» وتعيين المقصود منه، وقد اتخذه مرتزقة السعودية دليلاً على حرمة المظاهرات وإلقاء الخطب السياسية، والمناشدات الجماعية وإظهار البراءة من الكفّار والمنافقين.

ولا يتبيّن مقدار دلالة الآية على ما يرتئيه هؤلاء إلّا بنقل جميع الاحتمالات التي ذكرها الكبار من المفسّرين وإليك بيانها:

(ألف): ما ذكره القاضي البيضاوي ومال اليه الرازي(٢) من حمل قوله سبحانه «لا رَفَثَ ولا فسُوقَ ولا جِدالَ في الحجّ» على الخبر، ومعناه أن الحجَّ لا يثبت مع واحدة من هذه الخلال بل يفسد، لأنه كالضدّ لها، وهي مانعة من صحته، وعلى ذلك يجب أن يحمل الألفاظ الثلاثة على أعمال تفسد الحجّ، وتوجب القضاء من قابل اذا كان واجباً، فيفسّر «الرفث» بالجماع، و«الفسوق» بالزنا، لأنه مفسدة، ويحمل الجدال على خصوص الشكّ في الحجّ

---

(١) تفسير القرطبي: ج٢ ص٤٠٨.

(٢) مفاتيح الغيب: ج٢ ص١٧٥ ونقله عن القاضي أيضاً.

ووجوبه وصحة تشريعه وكونه عملاً موافقاً للعقل.

والحاصل: إن الظاهر هو حصول المضادّة بين هذه الأشياء والحجّ الذي أمرالله تعالى بها ابتداءً.

وعلى ذلك... فكما لا يمكن الأخذ بمطلق «الفسوق» إذ ليس كلّ فسوق مفسداً كالكذب والغيبة لا يمكن الأخذ بمطلق «الجدال» إذ ليس كلّ جدال مفسداً غير مجامع مع الحجّ بل جدالاً خاصّاً غير مجامع معه كالشكّ في وجوبه وصحة تشريعه، والقول بلغوية الطواف على الحجر والتراب والأخشاب.

وهذا المعنى الذي اختاره القاضي وجنح اليه الرازي في تفسيره هوالمختار لكثير من الفقهاء في بعض التراكيب مثل قوله: «لا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب» أو «لا صلاة إلّا بطهور» والمقصود نفي الصحة بدونهما، وأن حقيقتهما تتقوّم بهما، كما أن المقصود من الآية أيضاً نفي صحة الحجّ مع أحد هذه الأُمور الثلاثة.

فلو صحّ ذاك الاحتمال، فلا يصحّ الاستدلال معه على ما يرتئيه هؤلاء من حرمة مطلق الجدال، ومنه المظاهرات، إذ الآية بصدد بيان حرمة الجدال الذي لا يجتمع مع صحة الحجّ، وليس بصدد بيان حرمة كلّ جدال وإن جامع مع صحته.

والمظاهرات على فرض كونها جدالاً حراماً ليست مفسدة للحجّ بالضرورة.

(ب): التفريق بين الأُمور الثلاثة بحمل الأوّلين على النهي، وإن كان عدولاً عن ظاهر اللفظ أي: لا ترفثوا ولا تفسقوا، وحمل

الثالث على الخبر، أي أنه لا جدال ولا خلاف في وقت الحجّ ومكانه، وعلى هذا فالمراد: لاجدال ولا خلاف في وقت الحجّ ومكانه، وهذا المعنىٰ هو الذي أصرّ عليه ابن جرير الطبري في تفسيره(١) وذكره الزمخشري(٢) واستشهدا عليه بوجهين:

الأول: إن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ قال: «مَن حجّ لله ولم يرفث ولم يفسق رجع كهيئته يوم ولدته أُمّه» ولم يقل «ولم يجادل» وفي هذا دلالة على أن الأوّلين بمعنى النهي عن الرفث والفسوق، دون الثالث، وإلّا كان عليه عطف الثالث عليهما بصورة النهي، بل هو بمعنى الخبر والنفي عن الحجّ أن يكون في وقته و مكانه جدال ومراء، وأنه من ذينك الجانبين بمكان من الوضوح لا يليق أن يشكّ ويرتاب فيه.

الثاني: إن قريشاً كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام وسائر العرب بعرفة، وكانوا يقدّمون الحجّ سنة ويؤخّرونه سنة وهو النسيء فردّ الى وقت واحد، وردّ الوقوف إلى عرفة، فأخبر الله تعالى أنه قد ارتفع الخلاف في الحجّ، وقد أخبر الله عن النسيء زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً.

نعم رجع الحجّ الى زمانه ومكانه في حجة الوداع قال ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق

---

(١) تفسير الطبري: ج٢ ص١٦٢.

(٢) تفسير الكشاف: ج١ ص٢٦٤.

السماوات والأرض» وقال القرطبي: يعني رجع أمر الحجّ كما كان، أي عاد الى يومه ووقته، وقال -صلّى الله عليه وآله وسلّم- لمّا حجّ: «خذوا عَنّي مَناسِككُم» فبيّن بهذا مواقف الحجّ ومواضعه(١).

فلو قلنا بهذا الوجه لما كان لقوله تعالى صلة بما يرتئية الخطيب الخيّاط، إذ ليس هو بمعنى النهي حتىٰ يكون تكليفاً إلزامياً شاملاً لمطلق الجدال، بل هو كلام خبري، والخبر حقيقة تكوينية وأن أمر الحجّ -بعد عمل رسول الله وتحديده المواقف والمشاعر، وتثبيته في شهر خاصّ- أصبح كالشمس في رائعة النهار فهو أرفع من أن يحرم حوله الشكّ من حيث الزمان والمكان. فأيّ صلة لهذا الكلام بحرمة المجادلة أولاً وحرمة المظاهرات السياسية ثانياً، لو قلنا بأنها من مصاديق الجدال.

قال ابن جرير:

«وأعجب الأقوال اليّ في ذلك -إذ كان الأمر على ما وصفت- قراءة من قرأ «فلا رَفَثٌ ولا فُسوقٌ ولا جِدالَ في الحَجّ» برفع الرفث والفسوق وتنوينها، وفتح الجدال بغير تنوين، وذلك هو قراءة البصريين وكثير من أهل مكّه منهم عبدالله بن كثير، وابن عمرو بن العلاء(٢).

و إنما رفع الأوّلان ونصب الثالث حملاً للأوّلين على معنى

(١) تفسير القرطبي: ج٢ ص٤١٠.

(٢) تفسير ابن جرير: ج٢ ص١٦١.

النهي كأنه قيل: فلا يكوننّ رفث، ولا فسوق، والثالث على معنى الإخبار بانتفاء الجدال كأنه قيل: ولا شكّ ولا خلاف في الحجّ، أي في موعده وزمانه.

الثالث: ما اختاره كثير من المفسّرين هو حمل النفي على النهي والغاية هو النهي عن الأُمور الثلاثة، وعندئذٍ يتوهّم المستدلّ أن ظاهر الآية هو النهي عن مطلق الجدال ومنه المظاهرات السياسية.

غير أنه يجب على المريد للحقيقة وقفة قليلة حتىٰ يتبيّن أمران:

١ ـ إن الجدال ينقسم الى محرّم و مباح و مندوب، فهل المنهيّ عنه هو مطلق الجدال أو يختصّ بالقسم الأول منه، وكونه محرّماً في غير الحجّ لاينافي كونه محرّماً فيه أيضاً إذ تكون الحرمة آكد.

٢ ـ إن المظاهرات السياسيّة، وإلقاء الخطب، وإيقاظ المسلمين عن غفلاتهم، وإظهار البراءة من أعدائهم الشرقيّين والغربيّين، هل هي من مصاديق الجدال وموارده أو لا صلة لها بذلك أبداً، وإليك بيان الأمرين:

إن المراد بالجدال هنا هو المراء الذي يجب الاجتناب عنه في الحجّ وغيره، ولكنه في الحجّ أولىٰ.

قال الزمخشري:

«ولا جدال: أي ولا مراء مع الرفقاء والخدم والمكارين، وإنما أمر باجتناب ذلك، وهو واجب الاجتناب في كلّ حال لأنه في الحجّ اسمج كلبس الحرير في الصلاة، والتطريب في قراءة القرآن»(١).

(١) الكشاف: ج١ ص٢٦٣.

وقال في المنار:

«الجدال: المراء والخصام، فتكون هذه المناهي كلّها آداب لسانية، ويجب أن يكون المرء في أوقات العبادة والحضور مع الله سبحانه على اكمل الآداب وأفضل الأحوال»(١).

قال الجصّاص:

«الجدال: المراء، وقال ابن عبّاس: الجدال أن تجادل صاحبك حتىٰ تغيضه. ثم قال: إن المحرم منهي عن السباب والمماراة في أشهر الحجّ وفي غير ذلك وعن الفسوق، وإن كانت محظورة قبل الإحرام، فإن الله نصّ على حظرها في الإحرام تعظيماً لحرمة الإحرام، ولإن المعاصي في حال الإحرام أعظم واكبر عقاباً في غيرها منها»(٢).

ويوضّح ذلك اقتران «الجدال» مع «الفسوق» فهو يكشف عن كون الأمرين من قماشة واحدة وجنس واحد، فلا يصحّ تعميمه الى مطلق الجدال المباح أو المندوب في الشريعة.

وفي الشريعة الاسلامية أنواع جدال مباحة بل ومندوبة لا تعمّها الآية.

أمّا المباح منها فهو ما ورد في قوله سبحانه:

«قدسَمِعَ اللهُ قَولَ التي تُجادِلُكَ في زَوْجِها وَتشْتَكي إلى الله»(٣).

فلو اتفق مثل هذا الأمر في الحجّ لم يكن محرّماً لا من المتكلّم

---

(١) المنار: ج٢ ص٢٢٧و٢٢٨

(٢) أحكام القرآن للجصاص: ج١ ص٣٠٨.

(٣) سورة المجادلة: آية ١.

ولا من المستمع.

و يدلّ على أن المراد من الجدال هو الجدال الممنوع والمراء اللازم الاجتناب، أنهم فسّروا الجدال في الآية بأُمور لا تخرج جميعها عن الجدال والمراء الممنوع.

قال الرازي: «ذكر المفسّرون وجوهاً في هذا المجال:

١ ـ هو الجدال الذي يخاف منه الخروج الى السباب والتكذيب والتجهيل.

٢ ـ قال محمّد بن كعب القرضي: إن قريشاً كانوا اذا اجتمعوا بمنىٰ قال بعضهم: حجّنا أتمّ، وقال آخرون: بل حجّنا أتمّ، فنهاهم الله تعالى عن ذلك.

٣ ـ قال مالك في الموطّأ: الجدال في الحجّ أن قريشاً كانوا يقفون عند المشعر الحرام في المزدلفة بقزح وكان غيرهم يقفون بعرفات وكانوا يتجادلون يقول هؤلاء: نحن أصوب، ويقول هؤلاء: نحن أصوب، قال الله تعالىٰ: «**لِكلِّ أُمةٍ جَعْلنا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوه فَلا يُنازِعُنَّكَ في الأَمرِ وادْعُ إلىٰ رَبِّكَ إنَّكَ لَعَلَىٰ هُدىً مُسْتقيم وإن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ**»(١) قال مالك: هذا هو الجدال.

٤ ـ قال القاسم بن محمّد: الجدال في الحجّ أن يقول بعضهم: الحجّ اليوم، وآخرون: بل غداً، وذلك أنهم أُمروا أن يجعلوا حساب الشهور على رؤية الأهلّة.

٥ ـ قال القفّال: يدخل في هذا النهي ما جادلوا فيه رسول الله

---

(١) سورة الحجّ: آية ٦٧ و٦٨.

حين أمرهم بفسخ الحجّ الى العمرة فشقّ عليهم ذلك ، وقالوا: نروح الى منىٰ ومذاكيرنا تقطر منيّاً؟ فقال ـص ـ: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي ولجعلتها عمرة، وتركوا الجدال حينئذٍ.

٦ ـ قال عبدالرحمن بن زيد: جدالهم في الحجّ بسبب اختلافهم في أيّهم المصيب في الحجّ لوقت إبراهيم عليه الصلاة والسّلام.

٧ ـ إنهم كانوا مختلفين في السنين فقيل لهم: لا جدال في الحجّ فإن الزمان استدار وعاد الى ما كان عليه الحجّ في وقت إبراهيم.

فهذا مجموع ماقالهُ المفسّرون في هذا الباب»(١).

فهذه الأمثلة تفيد أن المراد من الجدال في الآية هو الجدال المنهيّ عنه سواء كان منهيّاً عنه بالنهي التحريميّ أو النهي التنزيهيّ الكراهيّ.

وجاء في «الفقه على المذاهب الأربعة»: ويحرم الخروج عن طاعة الله تعالى بأيّ فعل محرّم، وإن كان ذلك محرماً في غير الحجّ، إلّا أنه يتأكّد فيه وتحرم المخاصمة مع الرفقاء والخدم ونحوهم لقوله تعالى: «فَمَنْ فَرَضَ فيهِنَّ الحَجَّ فَلا رَفَثَ ولا فُسُوقَ ولا جِدالَ في الحَجِّ» والجدال: المخاصمة(٢).

---

(١) تفسير الإمام الفخر الرازي: ج١ ص١٧٥.

(٢) الفقه على المذاهب الأربعة: ج١ ص٥٢٤.

وعلى ذلك فالجدال المباح والمناقشة من غير أن يثير غضب الآخر كالجدال الوارد في قوله سبحانه: «قَد سَمِعَ اللهُ قَولَ التي تُجادِلُكَ في زوجها وتَشتَكي الى الله» خارج عن مصبّ الآية فلو كانت المرأة الشاكية محرمة، وقد رفعت أمرها الى النبي وطلبت حقّها من زوجها، لم يُعَدّ ذلك من الجدال المحرّم والمراء المنهيّ عنه والمخاصمة المبغوضة بل يعدّ طلباً للحقّ عن طريقه.

روى المفسّرون أن امَرأة من الأنصار بعد ما ظاهر منها زوجها جاءت الى النبي وقالت: إن زوجي تزوّجني وأنا شابة غانية ذات مال وأهل حتىٰ اذا اكل مالي وأفنى شبابي وتفرّق أهلي وكبر سنّي ظاهر منّي... الى آخر ما ذكَرَته.

فاذا كان الجدال المباح خارجاً عنها فالجدال المندوب أولىٰ بالخروج منه، كيف لا و قد أمر سبحانه نبيّه بالجدال المندوب في كتابه.

فلو طرحت في أثناء الحجّ مسألة فقهية أو عقائدية أو تفسيرية وعرض كلّ واحد رأيه في المسألة وجادله الآخر بالتي هي أحسن، فلا يكون ذلك حراماً محظوراً بل هو عمل بقوله: «أُدْعُ الى سَبيلِ ربّكَ بالحِكمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجادِلْهُم بالّتي هيَ أحْسَنُ»(١).

ولو اتفق أن وقع في مخيّمات عرفات بحث حول مسألة فقهية أو كلامية فأخذ أحد المسلمين موقفاً خاصّاً، ودافع عن معتقده بالدليل والبرهان من دون إبراز مخاصمة أو لجاج أو عناد فلا شكّ في جواز ذلك، ولا يعدّ ذلك داخلاً في الجدال الوارد في الآية.

---

(١) سورة النحل: آية ١٢٥.

هذا ما لدى القوم، وأمّا ما عند أهل البيت الذين هم أعدال الكتاب وقرناؤه في لسان النبيّ الأعظم(١) فقد فسّر الجدال المذكور في الآية بقول الرجل: لا والله وبلىٰ والله، فاذا حلف بثلاث أيمان متتابعات صادقاً فقد جادل وعليه دم، واذا حلف بيمين واحدة كاذبة فقد جادل وعليه دم(٢).

و أين هذا من تحريم مطلق الجدال الذي يدّعيه القوم، وإنما المحرّم حسب رواياتهم هو الجدال الخاصّ كما عرفت.

لنفترض أن الآية تعمّ جميع المجادلات المحرّمة في غير الحجّ والمباحة والمندوبة كافة، غير أن المراد هو مجادلة الحاج مع الحاج الآخر، وأمّا مجادلة الحاج مع من في الحرم، وأمّا المظاهرات التي تقوم بها جموع الحجّاج المسلمين وإعلان البراءة من الكفّار والغضب من ممارساتهم المعادية للاسلام والمسلمين، والدعوة الى الاتحاد والوحدة بين المسلمين لمواجهة الأخطار والتحدّيات، فليس شيء من ذلك من الجدال أصلاً. فليس في ذلك المحتشَد إلّا المسلمون وهم يد واحدة وليس في مقابلهم أحد من الكفّار والمنافقين حتىٰ يقع الجدال بين الطرفين.

ترىٰ هل يعدّ ما فعله الإمام عليّ ـ عليه السّلام ـ حيث قرأ آيات من سورة البراءة على الكفّار خلال موسم الحجّ بأمر رسول الله

(١) تواتر عنه ـ صلّى الله عليه وآله ـ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي أهل بيتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا» وقد نشرت دار التقريب بين المذاهب الاسلامية رسالة خاصة في تحقيق اسناده و متونه.

(٢) نور الثقلين: ج١ ص ١٦٢، ولاحظ كتب الحديث كالوسائل وغيره.

ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ جدالاً؟ أم أنه إعلان لبراءة الله ورَسولهِ من الكفّار والمشركين. و أيّ فرق بين المقامين.

و إن المظاهرات التي يقوم بها المسلمون الحجّاج خلال الحجّ بأمر من الإمام الخميني ـ حفظ الله ـ ليس إلاّ تجسيداً وتحقيقاً لماجاء في قول الله تعالى: «أشِدّاءُ عَلى الكفّار رُحَماءُ بَيْنَهُمْ»(١).

نعم إن السلطات السعودية هي التي توجد ـ بمنعها المسلمين من إعلان الغضب على الكفّار والإستياء من أعمالهم الإجرامية ـ جوّاً من الجدال الممنوع، لأنهم يمنعون المسلمين من أداء واجبهم الاسلامي، ويدفعونهم الى مناقشتهم ومجادلتهم، فتكون السلطات السعودية هي المجادلة وهي سبب الجدال.

فلو أُتيحت الفرصة لاتّفق الحجّاج على ضرورة المشاركة في هذه التظاهرات الشاجبة لأعمال الكفّار وجرائم الملحدين، ولا يوجد أيّ نقاش بينهم إلّا ما تثيره سلطات آل سعود، وفي الختام نسأل الخيّاط: أنه يقول في خطابه أن الحجّ مؤتمر سنوي يجتمع فيه المسلمون من كلّ فجّ عميق. لو كان الحجّ على ما زعم فماذا يجب أن يطرح في هذا المؤتمر من مسائل؟

هل يجب أن تلقىٰ كلمات بسيطة حول كراهة اكل البصل والثوم لمن يريد دخول المسجد أو غسل الأقدام والأحذية من الأتربة والعَرَق كما سمعناه مراراً من خطباء المسجد الحرام في أيام الحجّ و جمعاتها، و كأنه ليست هناك مسألة إسلامية

---

(١) سورة الفتح: آية ٢٩.

غير هذا.

فاذا تبيّن لك أيّها القارئ بطلان ما قاله الخيّاط وبطلان استدلاله، بل عدم علاقة الآية بالمقام، ينبغي أن نقف معاً على فلسفة الحجّ الحقيقية بصورة مفصّلة وفي ضوء الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والوقائع التاريخية من سيرة السلف وإليك ذلك إجمالاً.

ما ذا يهدف إليه الحجّ؟

الحجُّ عبادة أوّلاً:

لا شكّ أنَّ أوّلَ ما يهدف إليه الحجّ وأهم ما تقصده مناسكه هو المزيد من توجيه العبد إلى الله، ودفعه الى الخضوع له، وتمتين صِلاته به سبحانه، وتعميق الايمان في قلبه، وتكريس الاعتقاد بوحدانيته في ضميره.

و الأُخرىٰ أن نقول بإيجاز بأن الهدف الأهمّ من الحجّ هو العبادة والتعبّد، إبتداءً من الإحرام للعمرة ومروراً بالطواف بالكعبة المشرّفة فالصلاة فالسعي فالتقصير فالإحرام ثانية للحجّ فالوقوف بعرفة فالإفاضة الى المزدلفة والوقوف بها، فالذهاب الى منىٰ والمبيت بها ليالي، فالرمي فالنحر أو الذبح فالحَلق فالطواف بالكعبة المعظّمة أيضاً، وانتهاءً بالسعي بين الصفا والمروة، وما يتخلّل كلّ ذلك، أو يصاحبه من أدعية وأذكار، وامتناع عن محرّمات خاصّة، قربة الى الله سبحانه وتعالىٰ.

إنها العبادة في أفضل أشكالها.

و إنها إظهار العبودية في أعلىٰ مظاهرها.

و إنها الخضوع لذي الجلال في أسمىٰ صوره وأنماطه.

و إنها التضرّع إلى الله في أعمق أنواعه.

فالحجّ عبادة جامعة تتوفّر فيها كلّ عناصر إظهار العبودية، وكلّ أشكال الخضوع والطاعة للربِّ العظيم الكريم، من انقطاع عن الدنيا، وإعراض عن الشهوات وتضحية بالمال، وتذلّل وذِكر، وتهليل وتسبيح ، وتحميد وتكبير، وتوحيد لله في الطاعة والانقياد والخضوع والإلتماس، والاستعانة والعبادة، وخروج عن إطار الرغبات المادّية، وتناسٍ موقّت للمال والولد والأهل والوطن في سبيل الله، ومن أجل الله، وبأمر الله، وتقرّباً الى الله، وامتثالاً لحُكم الله، وتنفيذاً لإرادة الله، وتلبيةً لنداء الله وحده لاشريك له.

إنها عبادة ولا شكّ ، ولكن هل يتلخّص هدف الحجّ هذا المنسك العظيم في العبادة المحضة؟

و هل فرض الحجّ على عامّة المسلمين رجالاً ونساءً، شيباً وشبّاناً، و من كلّ لون وجنس، ليؤدّوا أمراً في مجال العلاقة بربّهم خاصّة، دون أن يكون لهذا الواجب المقدّس أيّ بُعد اجتماعي، وأيّ ارتباط بحياتهم وشؤونهم؟

و هل أصغر عمل عباديّ في الاسلام يخلو عن البُعد الاجتماعي، حتىٰ يخلو منه هذا المنسك العظيم، وهذه الفريضة الكبرى ذات الأجزاء والعناصر الكثيرة، وذات الطابع

الاجتماعي ـ كصلاة الجمعة ـ ؟

إن الآيات القرآنية، والسنّة الشريفة، وسيرة السَلف، وأقوال العلماء، كلّها تُجمع على أن هدف الحجّ لا ينحصر ولا يتلخّص في كونه طقساً عبادياً محضاً، وضراعة يُبديها العبد بحياته الاجتماعية، شأنه شأن غيره من الفرائض الاسلامية كالصلاة والصيام والزكاة والجهاد وغيرها التي لا تشتمل على الأُمور التعبّدية فقط بل تنطوي على أهداف اجتماعية وآثار سياسية في حياة المسلمين، أفراداً و شعوباً.

و هو أمر يؤيّده العقل السليم ويؤكّده المنطق المستقيم.

إن الاسلام دين شامل أي أنه نظام عباديّ وسياسيّ واقتصاديّ واجتماعيّ، وأنه على العكس من اليهودية والنصرانية الحاضرة والمبادئ البشرية الوضعية، ليس إلّا مجموعة متناسقة من المعتقدات والقوانين والأخلاق في شتّىٰ حقول الحياة، بل وكلّ جزء من هذا الدين هو الآخر خليط مدروس، ومزيج محسوب من الأبعاد المختلفة، وتركيب متوازن من الفرد والجماعة، والعبادة والسياسة والاقتصاد والصحة، والدنيا والآخرة.

بل العبادة في منطق هذا الدين يتسع نطاقها حتىٰ تشمل الحياة كلّها وتعمّ جميع الأعمال البشرية اذا كانت لأجل الله، فلا تقتصر على الشعائر التعبّدية المعروفة من صلاة وزكاة وحجّ، إنها تشمل كلّ عمل ترتقي به الحياة ويسعد به الناس.

و لهذا قال النبيّ الأكرم ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ لأبي ذر:

«ليكن لك في كلّ شيء نيّة صالحة حتىٰ في النوم»(١).

فالحجّ كما نكتشف ذلك من الكتاب والسنّة وسيرة السلف وأقوال العلماء المحققين لا يتلخّص في كونه موسماً عبادياً -بالمفهوم المألوف عند كثيرين- بل هو الى جانب ذلك مؤتمر سياسيّ عالميّ وملتقىٰ اجتماعيّ عامّ يوفّر للمسلمين القادمين من شتّىٰ أنحاء المعمورة فرصة التعارف والتآلف واللقاء والانتفاع بعضهم ببعض، ومداولة أُمورهم، وحلّ مشاكلهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية في جوّ من الأمن والقداسة والصفاء والمحبّة.

وهذا هو ما نبتغي استعراضه والتدليل عليه في هذه الصفحات القلائل مع الاعتراف بأن هذه المسألة ودراسة أبعاد الحجّ العبادية والسياسية والاجتماعية أوسع بكثير من أن تستوعبها هذه الدراسة الموجزة، ولهذا نأمل أن يكون ما جاء في هذا الفصل مجرّد دليل لا اكثر، وعلى المسلمين عامّة، والحجيج خاصّة أن يحاولوا -بأنفسهم- التعرّف على المزيد من الحقائق في هذا المجال وذلك بالتدبّر في هذه الفريضة ومناسكها، والتأمّل في الآيات والأحاديث الشريفة في هذا الصعيد.

أبعادُ الحجّ الإجتماعية والسياسية في القرآن

لقد وصف القرآن الكريم «الحجّ» في عدّة مواضع بأن فيه ما ينفع الناس ويضمن مصالحهم إذ قال تبارك وتعالىٰ:

(١) مدينة البلاغة في خطب النبيّ وكتبه ومواعظه: ج١ ص٤٦٩.

«وَأَذِّنْ في النّاسِ بالحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلىٰ كُلِّ ضامِرٍ يَأْتينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَميقٍ، لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُم ويذكُرُوا اسمَ اللهِ في أيّامٍ مَعلُومات علىٰ مارَزَقَهُمْ مِن بَهيمةِ الأنْعامِ فَكُلُوا مِنها وأطعموا البائسَ الفَقيرَ، ثُمّ ليقضُوا تَفَثَهُم ولْيُوفوا نُذُورَهُم وليطّوّفوا بالبَيْتِ العَتيقِ، ذٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ فَهُوَ خيرٌ لهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلّت لَكُمُ الأنعامُ إلّا ما يُتلَىٰ عَلَيْكُمْ فاجتَنِبُوا الرِّجسَ مِنَ الأوثانِ واجتَنِبُوا قَولَ الزُّور، حُنَفاءَ للهِ غيرَ مُشرِكينَ بِهِ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيرُ أو تَهوي بِهِ الرِّيحُ في مَكانٍ سحيقٍ، ذٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فإنّها مِنْ تَقوىٰ القُلُوبِ ، لَكُمْ فيها مَنافِعُ إلىٰ أجَلٍ مُسمّى ثُمّ مَحِلُّها إلىٰ البَيْتِ العَتيقِ»(١).

والملاحَظ في الآية الثانية من الآيات أُمورٌ ثلاثة:

أوّلاً: جعل المنافع إلى جنب ذكر الله وفي مقابله وهو يوحي بأن الحجّ ذو بُعدين: أحدهما عباديّ ويتجسّد في ذكر الله، والآخر غير عباديّ بالمعنى المصطلح المألوف ويتمثّل في المنافع.

ثانياً: تقديم «المنافع» على «ذكر الله» الذي يمثّل الجانب العبادي.

ثالثاً: جعل المنافع مطلقة غير مقيّدة، فلم يقل سبحانه: منافع اقتصادية، ممّا يوحي بأن هذه المنافع تشمل المنافع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وغيرها.

قال الإمام الراحل الشيخ محمّد شلتوت شيخ الجامع الأزهر

---

(١) سورة الحج: آية ٢٧ ـ ٣٣.

الأسبق في تفسير الآية:

«فالمنافع التي جُعِل الحجّ سبيلاً لشهودها والحصول عليها ـ وهي أول ما ذُكر في حكمة الحجّ ـ عامّة مطلقة لم تُقيَّد بنوع دون نوع، ولا ناحية دون ناحية، وهي بعمومها وإطلاقها يشمل كلّ ما ينفع الفرد والجماعة، وتصلح شأنها، فطهارة النفس والتقرّب الى الله منفعة، والتشاور في رسم خطط العلم والثقافة، وفي جمع الكلمة على تركيز الدعوة، والعمل على إظهار الاسلام وأحكامه الرشيدة منفعة، وإعداد العُدَد لنسج خيوط الشخصية الاسلامية من التحلّل والذوبان منفعة، وهكذا تتعدّد المنافع، وتتنوّع على حسب مقتضيات الأحوال التي توحي بها الأزمنة ومواقف الناس من الناس»(١).

و قال أيضاً:

«والحجّ باعتبار مكانته في الاسلام، وغايته المقصودة منه للفرد والجماعة جدير بأنه يتجه اليه رجال العلم والرأي، ورجال التربية والثقافة، ورجال النظام والادارة، ورجال المال والاقتصاد، ورجال الشرع والدين، ورجال الحرب والجهاد.

جدير أن تفد اليه الطبقات ذات الرأي والحزم، ذات النظر والاجتهاد، ذات الايمان الصادق والأهداف السياسية التي يجب أن يقصدها المسلمون في حياتهم، جدير أن يتجه اليه هؤلاء جميعاً فتراهم وقد نشرت مكّة أجنحتها عليهم، وجمعتهم بكلمة الله حول بيت الله يتعارفون ويتشاورون ويتعاونون ثم يعودون إلى بلادهم أُمّة واحدة

(١) الشريعة والعقيدة: ص١٥١.

متّحدة القلب، متّحدة الشعور والاحساس»(١).

هذا و الجدير بالذكر أن آيات الحجّ هذه تستمر حتى تنتهى وتتصل بقوله تعالى:

«إنّ اللهَ يُدافِعُ عَن الّذينَ آمَنُوا إنّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلّ خَوّانٍ كفُورٍ، أُذِنَ لِلَّذينَ يُقاتَلُونَ بِأَنّهُمْ ظُلِمُوا و إنّ اللهَ عَلىٰ نَصْرِهِم لَقَديرٌ، الّذينَ أُخرجُوا مِنْ ديارِهِم بِغَيرِ حَقٍّ إلّا أنْ يَقُولوا رَبُّنَا اللهُ وَلَولا دَفعُ اللهِ النّاس بَعضَهُمْ بِبَعضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذكَرُ فيها اسمُ اللهِ كَثيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إنّ اللهَ لَقويٌّ عزيزٌ»(٢).

و ليس من قبيل الصدفة ـ حاشا القرآن عن ذلك ـ أن تنتظم الآيات لهذا الشكل دون أن يكون بينها رباط.

إن وحدة السياق وتوارد هذه الآيات بهذا النحو يشعر بوجود صلة قويّة بين الحجّ والعمل السياسي ولا نريد القول بأن يتحوّل الحجّ الى ساحة قتال، ولكن أقلّ ما يوحي به السياق هو أن يكون الحجّ مرحلة للإعداد للمواجهة.

إن أقلّ ما يمكن استفادته من هذا النظم والسياق الذي جمع بين آيات الحجّ والجهاد، ومقاومة الظلم والنصر الإلٰهي للمظلومين هو أن الحجّ خير مكان لتعبئة المسلمين روحياً ونفسياً لمواجهة الظلم والظالمين، ومقارعة الاستكبار والمستكبرين، والاستعمار

(١) المصدر السابق: ص١٥٠.

(٢) سورة الحج: آية ٣٨ ـ ٤٠.

والمستعمرين.

إنه خير فرصة لأن يلوّح المسلمون المجتمعون هناك من كلّ قطر بما لديهم من قوّة وشوكة، ويعلنوا عن موقفهم السياسيّ الموحّد، ويلقّنوا الأعداء درساً لا ينسوه وإن كان هذا لا ينحصر في الحجّ، فمقارعة الظلم والظالمين والاعلان عن الاستياء ضدّ أعداء الله لا يخضع لحدود الزمان والمكان.

هذا و قد فسّر المفسّرون المنافع بما يعمّ أُمور الدنيا والدين، فعن ابن جرير الطبري بعد نقله أقوالاً في تفسير المنافع:

«و أولى الأقوال بالصواب قول من قال: عني بذلك «ليشهدوا منافع لهم» من العمل الذي يرضي الله والتجارة، وذلك أن الله عمّ منافع لهم جميع ما يشهد له الموسم، ويأتي له مكّة أيام الموسم من منافع الدنيا والآخرة ولم يخصّص شيئاً من منافعهم بخبر ولا عقل فذلك على العموم في المنافع»(١).

ثم ان القرآن الكريم يصف الكعبة المشرّفة بأنها جُعِلت قياماً للناس إذ يقول:

«جَعَلَ اللهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِياماً لِلنَّاس»(٢).

وقد وردت كلمة «قيام» في شأن المال أيضاً إذ يقول سبحانه:

«ولا تؤتُوا السُّفَهاءَ أموالَكُمُ الّتي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِياماً»(٣).

---

(١) تفسير الطبري: ج١٧ ص١٠٨.

(٢) سورة المائدة: آية ٩٧.

(٣) سورة النساء: آية ٥.

وهذا يوحي بوجه التشابه بين الحجّ والمال، فكما أن الاقتصاد والمال يقيم حياة الناس، ويضمن مصالح الأُمّة الاسلامية فكذلك الحجّ، وهذا يعني أن إطار الحجّ لا يقتصر على العبادة والتعبّد والضراعة بل يتّسع حتىٰ يشمل كلّ ماله ارتباط بمصالح المسلمين ممّا يقيم حياتهم وكيانهم، وأيّ شيء يقيم حياتهم أفضل من العمل السياسي الذي يعني مقاومة الاستعمار والاستعباد والاستغلال، وتحقيق الاستقلال في جميع المجالات، وتنبيه المسلمين باستمرار على ما يدور حولهم من مؤامرات وكيد ومكر، ودفعهم الى اتخاذ موقف واحد موحّد يجابه العدو ويصدّ المهاجِم.

ثم اذا كان المال لا يجوز إعطاؤه للسفهاء الذين لا يعرفون كيف يتصرّفون فيه لعدم رشدهم أو لنقصان عقولهم، فلا يجوز بطريق أولىٰ أن يُترَكَ الحجّ لمن لا يعرفون قيمته ووزنه وأهميّته في حياة الأُمّة الاسلامية.

وإليك ما قاله بعض المفسّرين في هذه الآية: قال ابن جرير الطبري:

«يقول تعالى ذكره: صيّرالله الكعبة البيت الحرام قواماً للناس الذين لا قوام لهم من رئيس يحجز قويّهم عن ضعيفهم ومسيئهم عن محسنهم وظالمهم عن مظلومهم، وجعلها معالم لدينهم ومصالح أُمورهم»(١).

وفي تفسير المنار:

«انه جعلها قياماً للناس في أمر دينهم المهذّب لأخلاقهم المزكّي

(١) تفسير الطبري: ج٧ ص٤٩.

لأنفسهم بما فرض عليهم من الحجّ الذي هو من أعظم أركان الدين لأنه عبادة روحية مالية اجتماعية.

و قال أيضاً:

«إن جعل الله تعالى هذه الأشياء -أي مناسك الحج- هو جعل تكوينيّ تشريعيّ معاً وهو عامّ شامل لما تقوم به وتتحقّق مصالح دينهم ودنياهم»(١).

ولو تغاضينا عن كلّ ذلك فهل يمكن أن نتغاضىٰ عن أن سورة «براءة» التي تعلن عن أوضح موقف سياسي تجاه المشركين نزلت لتتلىٰ في أيام الحجّ، وهو عمل سياسي بدون شك.

و لنستمع الى الذكر الحكيم وهو يقول:

«بَراءةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إلىٰ الّذينَ عَاهَدْتُم مِنَ المُشرِكينَ، فَسِيحُوا في الأرضِ أربعةَ أشهُرٍ واعلَمُوا أنّكُمْ غَيرُ مُعجزِى اللهِ وأنّ اللهَ مُخزِى الكافرين، وأذانٌ مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ إلى النّاسِ يومَ الحجِّ الأكبر أنّ اللهَ بَريٌ مِنَ المُشركينَ ورَسُولُهُ فإنْ تُبتُم فَهُوَ خيرٌ لَكُمْ وإنْ تَوَلَّيْتُم فاعلَمُوا أنّكُم غَيرُ مُعْجزِى اللهِ وَبَشِّرِ الّذينَ كَفَرُوا بِعذابٍ أليم»(٢).

و قد أمر النبيّ الأكرم -صلّى الله عليه وآله وسلّم- عليّاً -عليه السّلام- بأن يبلّغ هذا الإنذار والنداء إلى المشركين في أيام الحجّ ففعل الإمام عليّ -عليه السّلام- ذلك بشهادة كلّ المفسّرين والمؤرّخين والمحدّثين.

---

(١) تفسير المنار: للسيّد رشيد رضا ج٧ ص١١٩.

(٢) سورة التوبة: آية ١ - ٣ وبعدها.

ففي تفسير الطبري وفي حديث مسند:

«اذا كان يوم النحر قام عليّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- فأذّنَ في الناس بالذي أمره رسول الله -صلّى الله عليه [وآله] وسلّم- فقال: يا أيّها الناس أُمرت بأربع:

١ - أن لا يقرب البيت بعد العام مشرك.

٢ - ولا يطوف بالبيت عريان.

٣ - ولا يدخل الجنّة إلّا نفس مسلمة.

٤ - وأن يتمّ إلىٰ كلّ ذي عهد عهده، وفي رواية أُخرى: ومن كان له عهد عند رسول الله -صلّى الله عليه [وآله] وسلّم- فهو الى مدّته»(١).

و إن شئت قلت: إن قوله سبحانه: «براءةٌ مِنَ اللهِ وَ رَسُولِهِ إلىٰ الّذينَ عاهَدْتُم مِنَ المشركين» وقوله عزّ من قائل: «وأذانٌ مِنَ اللهِ ورسُولِهِ إلى النّاسِ يوَمَ الحجِّ الأكبر أنَّ اللهَ بريءٌ مِنَ المُشركينَ وَ رَسُولُهُ» إن البراءة في هذه الآيتين لا تختصّ بمشركي قريش أو مشركي الجزيرة العربية، وإنما البراءة فيهما هتاف إلٰهي يعمّ البراءة من مشركي العالم كلّه، الموجودين في عصر الرسالة ومن بعدهم الى يوم القيامة.

فالذكر الحكيم يؤدّب الأُمّة الاسلامية وينصّ على وظيفتهم الدينية ويلزمهم بإنشاء البراءة في كلّ زمان من المشركين عامّة،

(١) تفسير الطبري: ج١٠ ص٤٧. والحديث مكرّر بأسناد مختلفة ومتعدّدة. وتجد مثلها في مسند أحمد وتفسير ابن كثير والدرّالمنثور في تفسير الآيات وفي سنن الترمذي والبيهقي وغيرها.

وعلى ذلك فلو قام ضيوف الرحمٰن كلّهم بالبراءة من الملحدين والمشركين ـ المتسلّطين على رقابهم ـ لأدّوا واجبهم بشكل جماعي.

و ربما يتخيّل: إن البراءة والاستنكار الواردين في هذه الآيات مختصّان بعصر الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ ولا يتجاوز غيره. إنه قول بلا دليل، وهو نظير قول المبتلين الذين يريدون أن يخصّصوا رسالة الرسول ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وهداية الذكر الحكيم بعصر خاصّ دون غيره.

و لا أفتكر أن المسلم الحرّ يشكّ بأن الشيوعيين والملتفّين حولهم أسوء من المشركين الذين أوجب الوحي الإلٰهي البراءة منهم. كما لا أفتكر أن يشكّ المنصف في أن الشيطان الأكبر ـ أمريكا ـ أسوء من المشركين وأضرّ منهم. كما وقد جاء في كتب الفريقين: أن هشام بن عبدالملك حجّ في خلافة أبيه وطاف بالبيت فأراد استلام الحجر فلم يقدر عليه من الزحام فنصب له منبر فجلس عليه إذ أقبل عليّ بن الحسين وعليه أزار ورداء من أحسن النّاس وجهاً وأطيبهم رائحة وبين عينيه سجادة كأنها ركبة عنز فجعل يطوف بالبيت فاذا بلغ الحجر تنحّىٰ عنه النّاس حتىٰ يستلمه هيبةً له وإجلالاً، فغاظ ذلك هشاماً فقال رجل من أهل الشام لهشام: من هذا الذي قد هابه الناس هذه الهيبة وأفرجوا له عن الحجر؟ فقال هشام: لا أعرفه، لئلّا يرغب فيه أهل الشام فقال الفرزدق ـ وكان حاضراً ـ: لكني أُعرفه، فقال الشامي: من هو يا أبا فراس؟ فأنشأ قصيدة نذكر بعض أبياتها هنا:

هـذا الـذي تـعـرف الـبطـحـاء وطـأتـه
والـبـيـت يـعـرفـه والـحِـلُّ والحـرمُ
هـذا ابـن خـير عـبـاد الله كـلّـهـم
هـذا الـتقيّ الـنقيّ الطـاهـر الـعـلـمُ
هـذا الـذي أحمـد المختـار والـده
صـلّـىٰ عـلـيـه إلٰـهـي مـاجرى الـقـلـمُ

الى أن قال:

فـجـدّه في قـريش في أرومتهـا
محـمّـدٌ وعـلـيٌّ بـعـده عَـلَـمُ
بـدرٌلـه شـاهـدٌ والشِـعـب مـن أُحـد
والخـنـدقـان ويـومَ الـفـتـح قـد عُـلِـمـوا
وخـيـبر وحـنين يشـهـدان لـه
وفـي قـريظـة يـومٌ صـيـلـمٌ قـتـمُ (١)

و هكذا نجد هذا الشاعر الاسلامي الكبير يجابه ذلك الخليفة الجائر بهذه القصيدة الحماسية ويعرّف بالامام الحقّ من آل الرسول في مواجهة سياسية حامية، الأمر الذي يدلّ على شرعية هذا العمل في موسم الحجّ وجوازه لعدم إنكار أحد من المسلمين عليه، لا آنذاك ولا بعدئذٍ.

---

(١) الأغاني: ج٢١ ص٣٧٦ طبعة بيروت، ومناقب ابن شهراشوب: ج٤ ص١٦٩. وقد نقلت هذه القضية في كثير من الكتب التاريخية والأدبية لاحظ البيان والتبيين والعقد الفريد ومطالب السؤل، وتذكرة الخواص، ونور الأبصار.

و بعبارة أُخرى إنه يستغلّ تلك المناظرة السياسية القوية ليُعرّف الإمام أمام جموع الحجيج الوافدة الى بيت الله الحرام، باعتباره وارثاً محقّاً لآل رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ وهذه الحادثة تعطينا الدليل الناصع على أن العمل السياسي في موسم الحجّ يعتبر قانونياً وشرعياً، وذلك لأنه لم يتمّ منع أو تحريم أداء مثل هذه الممارسات سواء في تلك الأيام أو الأعوام التي أعقبت ذلك.

أبعاد الحجّ الاجتماعية والسياسية في السنّة

إن السنّة والسيرة النبوية الشريفة هي الأُخرى تشير الى أن النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ مارس الأعمال السياسية في الحج، هذا مضافاً إلى أن هناك أحاديث تفيد بأن الحجّ نوع من الجهاد لقوله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ:

«نعم الجهاد الحجّ»(١).

و قوله ـ عليه و على آله السلام ـ:

«الحجّ جهاد»(٢).

و قوله ـ صلوات الله عليه وآله ـ:

«الحجّ جهاد كلّ ضعيف»(٣).

و قوله ـ صلّى الله عليه وآله ـ في جواب نسوة استأذنّه في الجهاد:

---

(١) البخاري: الجهاد.

(٢ و٣) سنن ابن ماجه: المناسك، وسنن النسائي: الحج، ومسند أحمد بن حنبل.

«جهاد كنّ الحجّ»(١).

و في بعض الأحاديث قَرَنَ النبيّ -صلّى الله عليه وآله وسلّم- الحجّ بالجهاد دون بقية الفرائض إذ قال:

«الغازي في سبيل الله والحاج والمعتمر وفد الله دعاهم»(٢).

و هو يوحي بوجود الصلة وأوجه التشابه في الآثار والأهداف بين هاتين الفريضتين.

و إن شئت قلت: إن ذلك يوحي بأن الحجّ ليس مجرّد عبادة -بالمعنى المتعارف- بل عمل مشابه للجهاد في الآثار والأهداف، أي أنه عبادة وعمل سياسي، فهو موسم للعمل السياسي كما هو موسم للعبادة والضراعة والتوجّه الى الله بالتعبّد.

ثم أن السيرة تحدّثنا بأن النبيّ الأكرم -صلّى الله عليه وآله وسلّم- خطب في موضعين: عرفة(٣) ومنىٰ وأعلن في خطبتيه عن مواقف وأحكام اقتصادية وسياسية واجتماعية إسلامية هامّة نذكر هنا مقاطع منها:

---

(١) البخاري: الجهاد.

(٢) سنن ابن ماجه: المناسك، وسنن النسائي: الحجّ والجهاد.

(٣) في سنن الترمذي: عن جابر في باب حجّة رسول الله -صلّى الله عليه وآله- قال: لمّا كان يوم التروية وتوجّهوا الى منىٰ أهلّوا بالحجّ، فركب رسول الله -ص- فصلّى بمنىٰ الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح، ثم مكث قليلاً حتىٰ طلعت الشمس وأمر بقبّة من شعر فضربت له بـ«نَمِرَة» فسار رسول الله -ص- حتى أتىٰ عرفة فوجد القبّة قد ضربت له فنزل بها حتىٰ اذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له فركب حتىٰ أتىٰ بطن الوادي فخطب الناس فقال...

١ ـ إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا.

٢ ـ ألا وأن كلّ شيء من أمر الجاهلية موضوع تحت قدميّ هاتين.

٣ ـ و دماء الجاهلية موضوع وأوّل دم أضعه دم ربيعة بن الحارث.ـ وكان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل ـ.

٤ ـ و ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه ربا العبّاس بن عبدالمطّلب فإنه موضوع كلّه.

٥ ـ إن كلّ مسلم أخ المسلم، و إن المسملين اخوة، فلا يحلّ لامرىء من أخيه إلّا ما أعطاه عن طيب نفسه منه.

٦ ـ ثلاث لايُغِلّ عليهنّ قلب امرىء مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمّة الحق، واللزوم لجماعة المؤمنين.

٧ ـ الناس في الاسلام سواء. الناس طف الصاع ـ أي متساوون ـ لآدم وحواء لا فضل لعربيّ على عجميّ إلا بتقوىٰ الله.

٨ ـ إن المسلم أخ المسلم لا يغشه ولا يخونه ولا يغتابه، ولا يحلّ له دمه ولا شيء منه إلّا بطيبة نفسه.

٩ ـ لا ترجعوا بعدي كفّاراً مضلّين، يملك بعضكم رقاب بعض.

١٠ ـ إنكم مسؤولون فليبلغ الشاهدُ منكم الغائب.

ثم استشهدهم على ما بلّغ فشهدوا له بذلك (١).

---

(١) وقد وردت هاتان الخطبتان اللتان دمجناهما هنا في صحيح مسلم في حديث حجّ

←

و لعلّ ما جاء وصحّ عن الرسول ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ من الأدعية والأذكار في الحجّ ـ تلك التي تتضمّن معانٍ سياسية إلى جانب معانيها التوحيدية ـ خير شاهد على أن الحجّ موسم مناسب لأن يظهر فيه المسلمون موقفهم من أعداء الله والاسلام خاصّة واذا عرفنا أنه يستحب ترديد هذه الأدعية ضمن مناسك الحجّ مثل الدعاء التالي:

«لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له المُلك وله الحمد يحيي ويُميت وهو على كلّ شيء قدير».

«لا إله إلَا الله وحده وحده، أنجز وعده، ونَصَرَ عبده، وهَزَم الأحزابَ وحده»(١).

هذا مضافاً الى ما في مناسك الحجّ من رمزية، فكلّ منسك من هذه المناسك يرمز الى شيء اجتماعي وسياسي وأخلاقي مضافاً الى كونها عبادةً وانقياداً وإن لم يمكن الوقوف الكامل على كلّ ما تنطوي عليه هذه المناسك من معانٍ.

و قد أشار كثير من علماء الاسلام والمفكّرين الاسلاميّين إلى ما ترمز اليه هذه المناسك من أُمور معنوية واقتصادية واجتماعية وسياسية نحيل القارىء الكريم اليها رعاية للاختصار.

هذا مضافاً الى أن هناك ما يدلّ على أن النبيّ ـ صلّى الله

النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وفي سنن أبي داود، وسيرة ابن هشام وغيرها.

(١) البخاري: العمرة، ومسلم: الحج، و داود: المناسك، والترمذي: الحج، وابن ماجه: المناسك، والموطّأ لمالك: الحج، ومسند أحمد.

عليه وآله- مزج الأعمال العبادية بالأهداف والممارسات السياسية في الحج.

ففي البخاري عن سعد بن جبير عن ابن عبّاس قال:

«لمّا قَدِمَ النبيّ -صلّى الله عليه [وآله] وسلّم- لعامه الذي استأمن فيه قال: ارملوا-ليُري المشركين قوّتهم-»(١).

قال ابن الأثير في النهاية:

«أمر النبي -ص- برَمَل الطواف أصحابه في عمرة القضاء ليُري المشركين قوّتهم حيث قالوا: وهنتهم حرّيثرب وهو مسنون في بعض الأطواف دون بعض.

ولمّا استقرّ أمر الاسلام واستتبّ قال عمر: فيم الرَمَلان -أي: الطواف بتلك الكيفية- أو الكشف عن المناكب وقد أطّأالله الاسلام ونفى الكفر وأهله...».

قال ابن الأثير أيضاً:

«المراد بقول عمر «رَمَلان» الطواف وحده الذي سنّ لأجل الكفّار».

وهذا يشير الى أنه يجوز أن يضمّ الحاج إلى مناسكه مقاصد سياسية وأغراض جهاديه مثل إرهاب الأعداء واستنكار أعمالهم، وشجب مؤامراتهم وفضح خططهم.

ثم ألا يدلّ اختيار الرسول -صلّى الله عليه وآله وسلّم- لسورتي التوحيد «قل هو الله أحد» و الكافرون «قل يا أيّها الكافرون» في صلاة

(١) البخارى: ج ٥ ص ١٨١ باب عمرة القضاء.

الطواف(١) واستحباب قراءتها للمسلم الحاج، والحال أن هناك سوراً أُخرى أو آيات أُخرى قد تحتوي على معانٍ وأبعاد أخلاقية وتربوية اكثر، ويشهد على أن الحجّ هذا المشهد الاسلامي العالمي، وهذا المجمع العام خير وقت لإعلان الموقف السياسي الصارخ ضدّ قوىٰ الكفر والاستكبار، كما ويوحي بذلك أن عمر ابن الخطّاب كان يقول إذا كبّر واستلم الحجر:

«بسم الله والله اكبر على ما هدانا، لا إلٰه إلّا الله لا شريك له، آمنت بالله وكفرت بالطاغوت»(٢).

ثم أنّ الامام جعفر بن محمّد الصادق ـ عليه السّلام ـ قال في بيان فلسفة الحجّ ضمن ما قال:

«إن الله عزّوجل خلق الخلق لا لعلّة إلاّ أنه شاء ففعل فخلقهم الى وقت مؤجّل أمرهم ونهاهم مايكون من أمر الطاعة في الدين ومصلحتهم من أمر دنياهم، فجعل فيه الاجتماع من المشرق الى المغرب ليتعارفوا... ولتعرف آثار رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وتعرف أخباره ولا تُنسىٰ، ولو كان كلّ قوم إنما يتّكلون على بلادهم ومافيها هلكوا وخربت البلاد وسقط الجلب والأرباح، وعميت الأخبار ولم يقفوا على ذلك، فذلك علّة الحجّ»(٣).

---

(١) راجع صحيح مسلم: ج٤ ص٤٠ كتاب الحجّ باب حجّة النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله ـ.

(٢) تاريخ مكّة ج١ ص٣٣٩ طبعة مكّة المكرّمة عام ١٣٨٥هـ.

(٣) بحار الأنوار: ج٩٩ ص٣٣ عن علل الشرائع للصدوق.

و عنه ـ عليه السّلام ـ أنه قال أيضاً:

«ما من بقعة أحبّ الى الله من المسعىٰ، لأنه يذلّ فيه كلّ جبّار»(١).

أبعاد الحجّ السياسية والاجتماعية في سيرة السلف

إن التاريخ يحدّثنا أن السلف الصالح لم يقتصر في الحجّ على المناسك والعبادة بل استغلّوا هذا المناسبة للعمل السياسي كجزء طبيعي من هذه الفريضة لا كشيء زائد عليها أو أجنبي عنها.

فها هو الامام الحسين بن عليّ سبط الرسول و حفيده ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ يحتجّ على حاكم جائر من حكّام زمانه في منىٰ أيام الحجّ.

فقد جمع ـ عليه السّلام ـ بني هاشم و رجالهم ونسائهم ومواليهم من حجّ منهم ومن لم يحجّ ومن الأنصار من يعرفونه وأهل بيته، ثم لم يدع أحداً من أصحاب رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ ومن أبنائهم والتابعين ومن الأنصار المعروضين بالصلاح والنسك إلاّ جمعهم، فاجتمع عليه بمنىٰ اكثر من ألف رجل، والحسين ـ عليه السّلام ـ في سرادقه عامّهم التابعون وأبناء الصحابة، فقام الحسين ـ عليه السّلام ـ فيهم خطيباً فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال:

«أمّا بعد، فإن هذا الطاغية قد صنع بنا ما قد علمتم ورأيتم وشهدتم وبلغكم، وإني اُريد أن أسألكم عن أشياء فإن صدقت فصدّقوني،

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٩ ص٤٩.

وإن كذبت فكذّبوني، اسمعوا مقالتي واكتموا قولي ثم ارجعوا الى أمصاركم وقبائلكم من أمنتموه ووثقتم به فادعوهم الى ما تعلمون فإني أخاف أن يندرس هذا الحقّ ويذهب، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون»(١).

فما ترك الحسين شيئاً أنزل الله فيهم من القرآن إلّا قاله... وقال:

«أُنشدكم بالله رجعتم وحدّثتم به من تثقون به».

ثم نزل و تفرّق الناس على ذلك.

و ها هو عثمان بن عفّان يكتب الى جميع الأمصار الاسلامية أيام خلافته كتاباً قال فيه:

«إني آخذ عُمّالي -أي ولاتي- بموافاتي في كلّ موسم -أي موسم الحجّ- وقد سلّطت الأُمّة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يُرفَعُ عليَّ شيء ولا على أحد من عُمّالي إلّا أعطيته، وليس لي ولا لُعمّالي حقٌّ قِبَل الرعية إلّا متروك لهم، وقد رَفع إليّ أهل المدينه أن أقواماً يشتمون ويضربون فمن ادّعىٰ شيئاً من ذلك فليواف الموسم -أي فليأت إلى الحجّ- يأخذ حقّه حيث كان منّي أومن عُمّالي، أوتصدّقوا إن الله يجزي المتصدّقين»(٢).

بل ووجد غير المسلمين فرصتهم في الحجّ ليعرضوا على الخليفة شكاواهم، فيقوم الخليفة بإنصافهم في زمن الحجّ لا بعدئذٍ، فكلّنا يعلم قصّة ابن القبطي الذي سابق ابن والي مصر وفاتحها عمرو

(١) الاحتجاج للطبرسي: ص١٩، وكتاب سليم بن قيس: ص١٨٣.

(٢) راجع العبادة في الاسلام: للدكتور قرضاوي.

بن العاص فسبق القبطي فضربه ابن عمرو فأنهىٰ أبوه مظلمته الى عمر فاقتصّ منه في موسم الحجّ على مرأى ومسمع من الوف الحجيج، ثم قال للوالي عمرو بن العاص كلمته أمام شهود المؤتمر الكبير:

«يا عمرو متىٰ استعبدتم الناس وقد ولدتهم أُمهاتهم أحراراً»(١).

و يجدر هنا أن نشير إلى ما كتبه الكاتب الاسلامي المعاصر فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه القيّم «العبادة في الاسلام» في هذا الصدد:

«عرف الخلفاء قيمة هذا الموسم العالمي، فجعلوا منه ساحة لقاء بينهم وبين أبناء الشعب القادمين من كلّ فجّ عميق. وبينهم وبين ولاتهم في الأقاليم، فمن كانت له من الناس مظلمة أو شكاية فليتقدّم بها الى الخليفة ذاته بلا وساطة ولا حجاب، وهناك يواجه الشعب الوالي أمام الخليفة بلا تهيّب ولا تحفّظ، فيغاث الملهوف وينصف المظلوم ويردّ الحقّ إلى أهله، ولو كان هذا الحقّ عند الوالي أو الخليفة».

فاذا كان الحجّ موسماً لبيان الظلامات والشكاوىٰ من الحكّام والولاة المسلمين، أفلا يكون من الأولىٰ أن يجوز فيه الشكوى من الاستعمار وأذنابه وعملائه، واستنصار المسلمين عليهم؟ وهل يجوز أن نشكو الوالي المسلم اذا تعدّى حدوده، ولا يجوز أن نشكو المستعمر الظالم والأجنبيّ الغازيّ وهو يرتكب كلّ

(١) راجع: المصدر السابق، و كذلك كتاب «ماذا خسر العالم الاسلامي» لأبي الأعلى المودودي نقلاً عن تاريخ ابن الجوزي.

تلك الجرائم والمجازر؟

أبعاد الحجّ السياسية والاجتماعية في أقوال العلماء

لقد كتب العلماء والمفكّرون الاسلاميون الكثير عن أهمية الحجّ سياسياً واجتماعياً واعتبروه خير موسم وأفضل فرصة للمسلمين للتعبير عن قوّتهم وشوكتهم، ويقظتهم ووحدتهم بالقول والعمل بالشعار والشعور.

فها هو العلّامة محمّد فريد وجدي يكتب في دائرة معارفه، مادّة «حج» قائلاً:

«أمّا حكمة فرض الحجّ على المسلمين، فمّما لا يتسع لبيانه مثل هذا المؤلّف وممّا يتبادر الى الذهن من أمر الحجّ ان أصحاب السلطة في المسلمين لو أرادوا أن يستخدموه في إحداث الوحدة الاسلامية لنجحوا، فإن اجتماع عشرات الأُلوف من الوفود في صعيد واحد من سائر أقطار الأرض واتجاه قلوبهم وآذانهم في ذلك الموقف المهيب لكلّ ما يلقىٰ اليهم يستوجب أن يتأثر الكلّ بروح واحدة لا سيّما اذا دعوا الى ما فيه خيرهم، فاذا رجعوا الى أقطارهم وتشعّبوا في قراهم وأمصارهم أذاعوا ما تعلّموه بين اخوانهم وكانوا هم كأعضاء مؤتمر عامّ شكّل من جميع الأجناس والأجيال يجتمع أعضاؤه في كلّ عام مرّة، فأيّ أثر تقدّره لذلك الحادث الجليل في حياة هذه الأُمّة الضخمة وأيّ نتائج جليلة ترجوها منه اذا سوعد نهوض هذه الأُمّة من رقدتها، فسيكون الحجّ من اكبر عواملها ويسبقن الى فكرك أن الأمم

الأجنبية المحتلّة لبعض بلاد المسلمين تمنع رعاياها عن الحجّ إذ ذاك ، فإن حركة الحياة لودبّت في الأُمم فلا يستطيع أن يوقفها شيء ولله الأمر من قبل ومن بعد»(١).

وجاء في كتاب «الدين والحجّ على المذاهب الأربعة»:

«الحجّ سبيل التعارف والتآلف والتعادل وتوثيق العلاقات والروابط والصلات بين سائر الشعوب الاسلامية فتأتلف قلوبهم وتتّحد كلمتهم فيعملون ما يصلح شأنهم ويقوّم ما اعوجّ من أمرهم».

وكتب الاستاذ الجليل محمّد المبارك المستشار في جامعة الملك عبدالعزيز يقول:

«والتجرّد لمعنى العبادة الخالصة واضح في الحجّ بالإضافة الى المعنى الاجتماعي الرائع فهو مؤتمر عالمي يجتمع المشتركون فيه على صعيد واحد لعبادة إله واحد، ومع ذلك فإن هذه العبادة المتجرّدة الخالصة ليست منعزلة عن الحياة بل متصلة بها إذ يقولُ الله تعالى في كتابه الكريم «لِيَشْهَدوا مَنافِعَ لَهم ويَذكُروا اسمَ اللهِ في أيّامٍ معلومات» فشهود منافعهم معنى عامٌ يمكن أن يشتمل مختلف مصالح المسلمين».

فاذا كان العمل السياسي يجوز في الحجّ ـ كما عرفت من الكتاب والسنّة وسيرة السلف وأقوال العلماء الأجلّاء، بل أن الحجّ فرصة مناسبة لتخويف الأعداء وإرهابهم وشجب مؤامراتهم ـ فأيّ عدوّ أعدىٰ علينا من الولايات المتحدة التي تتآمر ضدّ الاسلام والمسلمين على الدوام وتنهب خيراتهم وتسرق بترولهم؟

---

(١) دائرة المعارف: ج٣ ص٣٥٠.

و أيّ عدوّ أعدىٰ علينا من إسرائيل التي اغتصبت أرضنا وشرّدت شعبنا وقتلت ولا تزال تقتل أبناء فلسطين وتستبيح دماءهم وأعراضهم ؟

و أيّ عدوّ أعدىٰ علينا من روسيا التى تعادي الاسلام والمسلمين في العقيدة وفي كلّ شيء وتحتلّ أرضنا في أفغانستان وتقتل أبناءها وتدمّر مدنها... ولا تزال؟

و أيّ عدوّ أعدىٰ علينا من بريطانيا التى أوجدت الدولة اللقيطة إسرائيل وتآمرت ولا تزال تتآمر ضدّنا في حقد صليبيّ عريق ؟

و أيّ عدوّ أعدىٰ علينا من فرنسا التى قتلت مئات الآلاف من شعبنا المسلم في الجزائر ولا تزال لها مجازر ومؤامرات هنا وهناك في بلاد المسلمين؟

و لماذا نفرّق بين الولايات المتحدة وروسيا وكلّهم ملّة واحدة في الكفر بديننا والتآمر البغيض علينا وقتل شعوبنا وسرقة ثرواتها؟

و لماذا نترك فرصة الحجّ العظيمة والاجتماع المليوني الفريد من نوعه والذي يتكون من ٤٠ قطراً إسلامياً يذهب أدراج الرياح دون أن نستثمره لإيقاظ المسلمين وإيقافهم على جرائم الغرب والشرقَ ضدّنا، وهل نحن عارفون بأحكام الحجّ اكثر من النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ والسلف الصالح من بعده الذين كانوا يخلطون في الحجّ بين العبادة والعمل السياسي ؟

و لماذا لا نفسح المجال في مكّة والمدينة وعرفات ومنىٰ لمظلومي فلسطين والفليبين والعراق وايران وأفغانستان وأفريقيا ولبنان واريتريا وغيرها ليبيّنوا ظلاماتهم ويوقفوا المسلمين على ما يلاقونه من ظلم وحيف وقتل وجناية الاستعمار وأذنابه وعملائه؟

و لماذا لا نفسح المجال في الحجّ لأن يتداول المفكّرون المسلمون من كلّ البلاد وجميع الطوائف مشاكل المسلمين ويبحثوا عن حلول مشتركة لما يعانونه من الطغاة؟

لماذا لا تفسح السلطات في مكّة والمدينة لأن تقام مؤتمرات وندوات لايقاف المسلمين على حقيقة الاستعمار الأمريكي والروسي والبريطاني والفرنسي وخططهم الجهنّمية، ويطلعوهم على ما يفعله هؤلاء الغزاة الأجانب من نهب وسلب وقتل واستغلال؟

الى متىٰ يعطّل الحجّ من آثاره الاجتماعية والسياسية نزولاً عند رغبة الأجانب؟

و الى متىٰ يجتمع هذا العدد الهائل من المسلمين من كلّ أنحاء العالم ثم ينفضّ دون أن يتعرّف الأخ على أخيه ودون أن يقف الأخ على آلام أخيه وآماله؟

و الى متىٰ نخسر هذه الفرصة العظيمة التى هيّأها الاسلام لهذه الاُمّة؟

و اذا فاتنا الحجّ فأين يمكن الحصول على مثل هذا الجمع الحاشد والعدد الهائل، وهذه الجماهير المؤمنة المهيّئة للعمل

والتجاوب مع أيّ نداء إسلامي يطلبهم للجهاد ويستحثّهم على النهوض؟

وكيف تسمح السلطات في الحجاز أن يهدروا هذه الفرصة العظمىٰ، ويحرموا المسلمين من الانتفاع بها كما أمر الله «ليشهدوا منافع لهم»؟

بل وكيف يسمح المسلمون لأنفسهم أن يتركوا فرصة الحجّ تذهب هدراً دون أن يستثمروها في سبيل قضاياهم الملحّة وحلّ مشكلاتهم؟

خاتمة المطاف

بقي هنا بحثان مهمّان نشير اليهما في هذه الخاتمة وهما:

أ ـ البكاء على الميّت قبل الدفن أو بعده.

ب ـ إضافة لفظ «العبد» الى المخلوق.

فربما تخيّل الجاهل بالأحكام الشرعية حرمتهما، وها نحن نبيّن حكمهما على ضوء الكتاب والسنّة فنقول:

أولاً ـ البكاء على الميّت:

لا عتب على العين والقلب عندما يقف المرء على قبر نبيّه والأئمة من أهل بيته ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ وخيار صحابته ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ أن تذرف الدموع ويحزن، تعبيراً عمّا يكنّ في النفس من المودّة والولاء والمحبّة والتعاطف والشوق والحنين، فإن هذا أمر تقتضيه الفطرة الإنسانية ولا يأباه التشريع الإلٰهي.

أمّا الفطرة: فالحزن والتأثّر مقتضىٰ العاطفة الإنسانية إذا ابتلي المرء بمصاب عزيز من أعزّائه أو فلذة من أفلاذ كبده وأرحامه، ومن عُدِمَ هذا الشعور عُدَّ شاذّاً عن الفطرة الإنسانية،

ولا أرى أحداً فوق أديم الأرض ينكر هذه الحقيقة إنكار جدٍّ وموضوعية.

و أمّا التشريع: فيكفي في ذلك بكاء النبيّ الأقدس -صلّى الله عليه وآله وسلّم- والصحابة والتابعين لهم بإحسان على موتاهم.

فهذا رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- يبكي على ولده العزيز «إبراهيم» ويقول: «العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلّا ما يرضي ربّنا، وإنّا بك يا إبراهيم لمحزونون»(١).

روىٰ أصحاب السِّيَر والتاريخ أنه لمّا احتضر إبراهيم ابن النبي جاء -صلّى الله عليه وآله- فوجده في حجر اُمّه، فأخذه و وضعهُ في حجره وقال: «يا إبراهيم إنّا لن نغني عنك من الله شيئاً -ثم ذرفت عيناه وقال: -إنّا بك يا إبراهيم لمحزونون، تبكي العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الربّ، ولولا أنه أمرٌ حقٌّ ووعدٌ صدقٌ فإنها ماشية لحزنّا عليك حزناً شديداً أشدّ من هذا».

و لمّا قال له عبدالرحمٰن بن عوف: أو لم تكن نهيت عن البكاء؟ أجاب بقوله: «لا، ولكن نهيتُ عن صوتين أحمقين وآخرين صوت عند مصيبة وخمش وجوه وشقّ جيوب ورنّة شيطان وصوت عن نغمة لهو، وهذه رحمة، ومن لا يَرحم لا يُرحَم»(٢).

و ليس هذا أول وآخر بكاء منه -صلّى الله عليه وآله وسلّم-

(١) سنن أبي داود: ج٣ ص٥٨، وسنن ابن ماجة: ج١ ص٤٨٢.

(٢) السيرة الحلبية: ج٣ ص٣٤٨.

عند ابتلائه بمصاب أعزّائه، بل هو كان يبكي على ابنه «طاهر» ويقول: «إن العين تذرف وإن الدمع يغلب والقلب يحزن ولا نعصي الله عزّوجل»(١).

و قد قام العلّامة الأميني في موسوعته الكبيرة «الغدير» بجمع موارد كثيرة بكىٰ فيها النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ والصحابة والتابعون على موتاهم وأعزّائهم عند افتقادهم، وإليك نصّ ماجاء ذلك المتتبع الخبير:

[و هذا هو ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ لمّا أُصيب حمزة ـ رضي الله عنه ـ وجاءت صفيّة بنت عبدالمطلب ـ رضي الله عنها ـ تطلبه فحالت بينها وبينه الأنصار فقال ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: دعوها، فجلست عنده فجعلت إذا بكت بكىٰ رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وإذا نشجت نَشَجَ، وكانت فاطمة ـ عليها السّلام ـ تبكي ورسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ كلّما بكت يبكي وقال: لن أُصاب بمثلك أبداً(٢).

و لـمّا رجع رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ من أُحد بكت نساء الأنصار على شهدائهم فبلغ ذلك النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فقال: لكن حمزة لا بواكي له فرجعت الأنصار فقلن لنسائهم: لا تبكين أحداً حتىٰ تبدأن بحمزة قال: فذاك فيهم

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي: ج٣ ص٨.

(٢) امتاع المقريزي: ص١٥٤.

إلى اليوم لا يبكين ميّتاً إلّا بدأن بحمزة(١).

و هذا هو ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ينعي جعفراً وزيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة وعيناه تذرفان(٢).

و هذا هو ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ زار قبر أُمّه وبكىٰ عليها وأبكىٰ من حوله(٣).

و هذا هو ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ يقبّل عثمان بن مظعون وهو ميّت ودموعه تسيل على خدّه(٤).

و هذا هو ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ يبكي على ابن لبعض بناته فقال له عبادة بن الصامت: ما هذا يا رسول الله؟ قال: الرحمة التي جعلها الله في بني آدم وإنّما يرحم الله من عباده الرحماء(٥).

و هذه الصدّيقة الطاهرة تبكي على رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وتقول: يا أبتاه مِن ربّه ما أدناه، يا أبتاه أجاب ربّاً دعاه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، يا أبتاه جنّة الفردوس مأواه(٦).

---

(١) مجمع الزوائد: ج٦ ص١٢٠.

(٢) صحيح البخارى: كتاب المناقب في علامات النبوّة في الاسلام، سنن البيهقي: ج٤ ص٧٠.

(٣) سنن البيهقي: ج٤ ص٧٠، تاريخ الخطيب البغدادي: ج٧ ص٢٨٩.

(٤) سنن أبي داود: ج٢ ص٦٣، سنن ابن ماجة: ج١ ص٤٤٥.

(٥) سنن أبي داود: ج٢ ص٥٨، سنن ابن ماجة: ج١ ص٤٨١.

(٦) صحيح البخاري: باب مرض النبي ووفاته، مسند أبي داود: ج٢ ص١٩٧، سنن النسائي: ج٤ص١٣، مستدرك الحاكم: ج٣ ص١٦٣، تاريخ الخطيب: ج٦ ص٢٦٢.

و هذه هي -سلام الله عليها- وقفت على قبر أبيها الطاهر وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عينها و بكت وأنشأت تقول:

ما ذا على مَن شمَّ تربة أحمد أن لا يشمّ مدى الزمان غواليا
صُبّت عليَّ مصائبٌ لو أنّها صُبّت على الأيّام صِرن لياليا(١)

و هذا أبوبكر بن أبي قحافة يبكي على رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- و يرثيه بقوله:

يا عين فابكي ولا تسأمي وحُقّ البكاء على السيّد

و هذا حسّان بن ثابت يبكيه -صلّى الله عليه وآله وسلّم- ويقول:

ظللت بها أبكي الرسول فأسعدت عيونٌ ومثلاها من الجفن أسعد

و يقول:

يُبكّون من تبكي السّماوات يومه ومن قد بكته الأرض فالناس أكمدُ

و يقول:

يا عين جودي بدمع منك إسبال ولا تملنَّ من سحّ و إعوالِ

و هذه أروى بنت عبدالمطّلب تبكي عليه -صلّى الله عليه وآله وسلّم- وترثيه بقولها:

ألا يا عين! و يحكِ أسعديني بدمعك مابقيت وطاوعيني
ألا يا عين! ويحك واستهلّي على نور البلاد وأسعديني

و هذه عاتكة بنت عبدالمطّلب ترثيه وتقول:

(١) الغدير: ج٥ ص١٤٧.

عينيَّ جودا طوال الدّهر وانهمِرا سكباً وسحّاً بدمع غير تعذير
ياعين فاسحنفري بالدّمع واحتفلي حتّى الممات بسجل غير منذور
يا عين فانهملي بالدّمع واجتهدي للمصطفىٰ دون خلق الله بالنور

و هذه صفيّة بنت عبدالمطّلب تبكي عليه وترثيه ـصلّى الله عليه وآله وسلّمـ و تقول:

أفاطمُ بكّي ولا تسأمي بصحبك ما طلع الكوكبُ
هو المرء يُبكىٰ وحقّ البكاء هو الماجد السيّد الطيِّبُ

و تقول:

أعينيّ! جودا بدمع سجمْ يبادر غرباً بما مُنهدمْ
أعينيّ! فاسحنفرا وأسكبا بوجدٍ وحزنٍ شديد الألمْ

و هذه هند بنت الحارث بن عبدالمطّلب تبكي عليه وترثيه وتقول:

يا عين جودي بدمع منك وابتدري كما تنزّل ماء الغيث فانثعبا

و هذه هند بنت أثاثة ترثيه و تقول:

ألا يا عين! بكّي لا تملّي فقد بكر النعيُّ بمن هويتُ

و هذه عاتكة بنت زيد ترثيه و تقول:

و أمست مراكبه أوحشت و قد كان يركبها زينها
و أمست تُبكّي على سيّد تردّد عبرتها عينها

و هذه أُمّ أيمن ترثيه ـصلّى الله عليه وآله وسلّمـ و تقول:

عين جودي فإنَّ بذلك للدمـ ـع شفاء فاكثري من بكاء

يقضي الله فيك خير القضاء — بدموع غزيرة منك حتىٰ(١)

وهذه عمّة جابر بن عبدالله جاءت يوم أُحُد تبكي على أخيها عبدالله بن عمرو قال جابر: فجعلتُ أبكي وجعل القوم ينهوني ورسول الله ـ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ـ لا ينهاني، فقال رسول الله ـ صلّى الله عليه [وآله] وسلّم ـ : أبكوه ولا تبكوه فوالله مازالت الملائكة تظلّله بأجنحتها حتىٰ دفنتموه(٢)] (*).

نعم روي عن عمر بن الخطّاب وعبدالله بن عمر أن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله ـ قال: «إن الميّت يعذّب ببكاء أهله» أقول: إن ظاهر هذا الحديث يخالف فعل الخليفة في مواطن كثيرة أثبتها التاريخ.

منها: أنه بكىٰ على النعمان بن مقرن المزني لمّا جاءه نعيه فخرج ونعاه الى الناس على المنبر ووضع يده على رأسه يبكي(٣).

ومنها: بكاؤه مع أبي بكر على سعد بن معان حتىٰ قالت عائشة: فوالذي نفس محمّدٍ بيده إني لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر، وإني لفي حجرتي(٤).

ومنها: بكاؤه على أخيه زيد بن الخطّاب، وكان صحبه رجل

---

(١) راجع طبقات ابن سعد : ص٨٣٩ ـ ٨٥٥، وسيرة ابن هشام: ج٤ ص٣٤٦.

(٢) الاستيعاب: في ترجمة عبدالله ج١ ص٣٦٨.

(*) الغدير: ج٣ ص١٦٥ ـ ١٦٧.

(٣) الاستيعاب: في ترجمة النعمان ج١ ص٢٩٧، العقدالفريد لابن عبد ربّه الاندلسي: ج٣ ص٢٣٥.

(٤) تاريخ الطبري: ج٢ ص٢٥٣.

من بني عدي بن كعب فرجع الى المدينة فلمّا رآه عمر دمعت عيناه وقال: وخلّفت زيداً قاضياً وأتيتني(١).

فالبكاء المتكرّر من الخليفة يهدينا الى أن المراد من الحديث -لو صحّ سنده- معنى آخر، كيف وأن ظاهر الحديث لو قلنا به فإنه يخالف الذكر الحكيم، أعني قوله سبحانه «ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرىٰ»(٢). فأيّ معنى لتعذيب الميّت ببكاء غيره عليه!!

قال الشافعي: «وما روت عائشة عن رسول الله -ص- أشبه أن يكون محفوظاً عنه -ص- بدلالة الكتاب والسنّة، فإن قيل: فأين دلالة الكتاب؟ قيل: في قوله عزّوجل «ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرىٰ» و«أنْ لَيسَ للإنسانِ إلّا ما سَعَىٰ»(٣) وقوله: «فَمَنْ يَعْمَل مِثقالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَهُ، وَمَنْ يَعمَل مِثقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه»(٤) وقوله: «لتُجزىٰ كلُّ نَفْسٍ بِما تَسعىٰ»(٥). فإن قيل: أين دلالة السنّة؟ قيل: قال رسول الله لرجل: ابنك هذا؟ قال: نعم، قال: أما أنه لا يجني عليك ولا تجني عليه. فأعلم رسول الله مثلما أعلم الله من أن جناية كلّ امرىء عليه، كما أن عمله لا لغيره ولا عليه»(٦).

---

(١) العقد الفريد: ج٣ ص٢٣٥.

(٢) سورة فاطر: آية ١٨.

(٣) سورة النجم: آية ٣٩.

(٤) سورة الزلزلة: آية ٧ و ٨.

(٥) سورة طه: آية ١٥.

(٦) اختلاف الحديث بهامش كتاب الأم للشافعي: ج٧ ص٢٦٧.

فقه الحديث

كلّ هذه النقول توقفنا على أن المراد من الحديث «إن الميّت يعذّب...» -إن صحّ سنده- غير ما يفهم من ظاهره، وقد كان محتفّاً بقرائن سقطت عندالنقل، ولأجل ذلك توهّم البعض حرمة البكاء على الميّت استناداً على هذا الحديث، غافلاً عن مرمى الحديث ومغزاه.

روت عمرة: أنها سمعت عائشة -رض- وذكرت لها أن عبدالله بن عمر يقول: إن الميّت ليعذّب ببكاء الحي، فقالت عائشة -رض- أما أنه لم يكذب، ولكنه أخطأ أو نسى إنما مرّ رسول الله -ص- على يهودية يبكي عليها أهلها، فقال: إنهم ليبكون عليها وأنها لتعذّب في قبرها(١).

و عن عروة عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله -ص-: إن الميّت ليعذّب ببكاء أهله عليه، فذكر ذلك لعائشة فقالت -وهي تعني ابن عمر-: إنما مرّ النبي -ص- على قبر يهودي فقال: إن صاحب هذا ليُعذّب وأهله يبكون عليه. ثم قرأت: «وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرىٰ»(٢).

هذا فقه الحديث و معناه، ولا يشكّ في صحة هذا المعنىٰ مَن

(١) صحيح البخاري: الباب ٣٢ من أبواب الجنائز ج٢ ص٨٠، اختلاف الحديث للشافعي: ج٧ ص٢٦٦، الموطّأ لمالك: ج١ ص٩٦، صحيح مسلم: ج١ ص٣٤٤، سنن النسائي: ج٤ ص١٧، سنن البيهقي: ج٤ ص٧٢.

(٢) سنن أبي داود: ج٢ ص٥٩، سنن النسائي: ج٢ ص١٧.

له إلمام ومعرفة بالكتاب والسنّة.

و هناك روايات أُخر تدلّ على أن رسول الله -صلّى الله عليه وآله- نهىٰ عمر عن منعه الباكيات لبكائهنّ على الميّت.

عن ابن عبّاس قال: لمّا ماتت زينب بنت رسول الله قال رسول الله: ألحقوها بسلفنا الخير عثمان بن مظعون،فبكت النساء، فجعل عمر يضربهنّ بسوطه، فأخذ رسول الله -ص- يده وقال: مهلاً يا عمر، دعهنّ يبكين، وإيّاكنّ ونعيق الشيطان -الى أن قال-: وقعد رسول الله على شفير القبر وفاطمة الى جنبه تبكي، فجعل النبيّ يمسح عيني فاطمة بثوبه رحمةً لها(١).

و أخرج البيهقي في السنن الكبرىٰ نظيره في موت رقيّة بنت رسول الله، وقال رسول الله -ص- مه يا عمر -ثم قال-: إيّاكنّ ونعيق الشيطان، فإنه مهما يكن من العين والقلب فمن الرحمة، وما يكون من اللسان واليد فمن الشيطان(٢).

و في رواية أُخرىٰ: فقال رسول الله: يا عمر دعهنّ فإن العين دامعة والقلب مصاب والعهد قريب(٣).

هذا ما نقلناه من الروايات يوقف القارىء الكريم على حكم الاسلام في مسألة البكاء على الميّت، سواء كان الميّت قريباً وحميماً

---

(١) مسند أحمد: ج١ ص٢٣٥ - ٢٣٧، مستدرك الحاكم: ج١ ص١٩١، وقال الذهبي في تلخيص المستدرك: سنده صالح.

(٢) السنن الكبرىٰ للبيهقي: ج٤ ص٧٠.

(٣) عمدة القارىء: ج٤ ص٨٧.

أو كان عزيزاً وصديقاً، فاذا جاز البكاء عليهم فالبكاء على رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وأهل بيته الأطهار وصحابته الأخيار أولىٰ بالجواز.

كيف لا وقد وردت في هذا المضمار روايات كثيرة من الفريقين في البكاء على النبي ومصائب آله لسنا بصدد ذكرها لخروجها عن الاختصار، ومن أراد الوقوف فليرجع الى كتاب «سيرتنا وسنّتنا سيرة النبيّ وسنّته» للعلّامة الكبير الشيخ عبدالحسين الأميني ـ رضوان الله عليه ـ وإن كان ما ذكرناه في هذه الصحائف مقتبساً عمّا حقّقه ـ رحمه الله ـ في هذا الباب.

ثانياً ـ إضافة لفظ «العبد» الى المخلوق:

قد تعارف لدىٰ محبّي أهل البيت ـ عليهم السّلام ـ تسمية أولادهم بـ «عبدالرسول» و «عبدعلي» و «عبدالحسين»... و نحوها، أي إضافة كلمة العبد الى أسمائهم ـ عليهم السّلام ـ.

و أثارت هذه التسمية قلقاً في بعض الأوساط خصوصاً الوهّابيّة، زاعمين أن تلك التسمية رمز الشرك، ولا توافق أُصول التوحيد، وقد جمعني والشيخ ناصرالدين الألباني ـ وهو مصحّح ومحقّق بعض كتب الأحاديث ـ مجلس في سوريا فرأيت فيه كراهة شديدة أن يتكلّم باسم عبدالحسين، وكان ذلك عند ما جاء الحديث عن العلّامة الحجّة السيد عبدالحسين شرف الدين العاملي ـ قدّس الله سرّه ـ ، صاحب المراجعات.

ولأجل رفع الستر عن وجه الحقيقة نقوم بتحليل المسألة من وجهة نظر القرآن والسنّة فنقول:

العبودية تطلق ويراد منها:

(أولاً) ما يقابل الأُلوهيّة، وهي بهذا المعنىٰ ناشئة من المملوكية التكوينية التي تعمّ جميع العباد، ويكون المالك هو الله سبحانه وتعالىٰ، وقد عرفت أن منشأ كون الانسان عبداً والله سبحانه هو المولىٰ، كونه خالقاً له من العدم، والمفيض والمعطي له كلّ ما يتعلّق به.

فالعبودية بهذا المعنىٰ ذاتية كلّ موجود، وجوهرة كلّ شيء، لا تنفكّ عنه أبداً، والى ذلك ينظر قوله سبحانه «إن كُلُّ مَن في السمٰواتِ والأرضِ إلّا اتي الرَّحمٰنِ عَبداً»(١). كما يشير اليه قول المسيح -عليه السّلام- «قال إنّي عَبدُالله آتاني الكتابَ وَجَعَلَني نَبيّاً»(٢) الى غير ذلك من الآيات. والعبودية بهذا المعنىٰ تستدعي حصر إضافتها بالله سبحانه وتعالى.

(ثانياً) تطلق ويراد منها الطاعة أو ما يقاربها، وقد صرّح بهذا المعنىٰ أصحاب المعاجم اللغوية.

قال في لسان العرب: التعبّد: التنسّك، العبادة: الطاعة.

وقال في القاموس المحيط: والعبدية والعبودية والعبودة والعبادة: الطاعة.

(١) سورة مريم: آية ٩٣.

(٢) سورة مريم: آية ٣٠.

وعلى هذا الأساس فالمراد من «عبدالرسول وعبد علي و...» هو مطيع الرسول ومطيع عليّ ولاغبار على ذلك، كيف لا وأن الله سبحانه وتعالى أمرنا بطاعتهما «أطيعُوا اللهَ وأطيعُوا الرَّسُولَ وأُولي الأمْرِ مِنْكُمْ»(١). فعرّف القرآن النبيّ مطاعاً والمسلمين مطيعين، ولا عتب على الانسان أن يظهر هذا المعنىٰ في تسمية أولاده ومحبيه.

نعم في حديث أبي هريرة «لا يقل أحدكم لمملوكه عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي» وعلّله ابن الأثير في كتابه «النهاية» بقوله: هذا على نفي الاستكبار عليهم وأن ينسب عبدويتهم اليه، فإن المستحقّ لذلك الله تعالىٰ هو ربّ العباد كلّهم».

والحديث بظاهره يخالف الذكر الحكيم. كيف لا وهو الذي نسب العبودية الى الناس الذين يملكونهم، قال سبحانه «وأنكِحُوا الأيامَىٰ مِنكم والصّالحينَ مِن عبادِكُم وإمائِكم إنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغنِهِمُ اللهُ مِن فَضلِه وَاللهُ واسِعٌ عَليمٌ»(٢). ترىٰ أنه سبحانه ينسب العبودية والامائية الى الذين يمتلكونهم، ولو كان في التعبير شيء من التكبّر للمولىٰ لما استعمل سبحانه هذا التعبير.

ثم أن أساس الشبهة أن المستشكلين لا يفرّقون بين العبودية التكوينية الحقيقية ـ التي لا تنفكّ عن الانسان منذ بدء وجوده الى أُخريات أيامه ـ وبين المملوكية العارضة على الانسان حسب الأحوال والشرائط، فيصير السيّد عبداً رقّاً، والعبد الرقّ سيّداً وحاكماً.

---

(١) سورة النساء: آية ٥٩. (٢) سورة النور: آية ٣٢.

هذا هو الفقه الاسلامي يحكم في أسرىٰ الحرب بجواز استرقاقهم رجالاً ونساءً، قال ابن قدامة في كتابه «المغني»: وإذا اسبىٰ الامام فهو مخيَّرٌ إن رأىٰ قتلهم، وإن رأىٰ منّ عليهم وأطلقهم بلا عوض، وإن رأىٰ أطلقهم على مالٍ يأخذه منهم، وإن رأىٰ فادىٰ بهم، وإن رأىٰ استرقّهم.

هذا و في الكتب الفقهية باب واسع لأحكام العبيد و الإماء، فلهم أحكام خاصّة يقف عليها العارف بالفقه الاسلامي، فيطلقون كلمة المولىٰ على السيّد الذي ملكهم بالأسر أو بالشراء، كما يطلقون كلمة العبد والأمة على الأسرىٰ الذين رأىٰ الحاكم استرقاقهم، ولم يرَ أحدٌ من الفقهاء في هذه التسمية حرجاً.

و ممّا يُقضىٰ منه العجب قول محمّد بن عبدالوهّاب «أن من قال لأحد مولانا أو سيّدنا فهو كافر»(١) مع أن القرآن الكريم يطلق كلمة السيّد على غيره ـ سبحانه وتعالى ـ قال «مصدقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ الله و سيِّداً وحَصُوراً» (٢) وقال ـ عزّوجلّ ـ «وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَ ألفيا سَيِّدَها لدىٰ البابِ»(٣) وقال ـ تعالى ـ «وَقالُوا رَبَّنا إنَّا أطعنا سَادَتَنا وَ كُبَرَاءَنا فأضَلُّونا السَبيلا»(٤).

أضف الى ذلك ما تواتر في الروايات من إطلاق السيّد على

---

(١) كشف الارتياب للسيد محسن الأمين: نقله عن خلاصة الكلام.

(٢) سورة آل عمران: آية ٣٩.

(٣) سورة يوسف: آية ٢٥.

(٤) سورة الأحزاب: آية ٦٧.

النبيّ والحسنين(١) حيث لا يشكّ في صحتها أحد.

وقد رثىٰ أبوبكر النبيّ الأعظم بأبيات أولها:

يا عين فابكي ولا تسأمي وحقّ البكاءُ على السيّدِ
على خير خندق عند البـ ـلاء أمسىٰ يغيب في الملحد(٢)

نعم أورد السيوطي في الجامع الصغير عن الديلمي في مسند الفردوسي عن عليّ «السيّدالله».

كما أورد العزيزي في شرح الجامع والصغير عن مسند أبي داود أنه جاء وفد بني عامر الى النبي فقالوا: أنت سيّدنا، فقال: السيّدالله.

فلو صحّ الحديثان فيجب أن يحملا على المعنىٰ الحقيقي للسيادة ـ أعني المالك والخالق ـ فإن السيادة بهذا المعنىٰ تختصّ بالله سبحانه.

كيف وقد أطلق رسول الله كلمة السيّد على سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ روىٰ الطبري: لمّا طلع سعد قال رسول الله: قوموا الى سيّدكم(٣).

فهذه المناهي الواردة حول كلمة السيّد محمولة على إرادة المعنى الذي ينافي إخلاص العبادة وتوحيدالله.

---

(١) المقصود «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة».

(٢) الطبقات الكبرىٰ لابن سعد: ج٢ ص٣١٩، والهمزة الأُولىٰ في البيت الثاني جزء من كلمة البلاء، وإنما يتلفظ بها في المصرع الثاني، ويسمىٰ هذا القسم في علم العروض بالشعر المدوّر، باعتبار امتزاج الصدر بالعجز.

(٣) الطبري: ج٢ ص٢٤٩.

و لعمري أن الحقيقة واضحة لا تحتاج الى التطويل، كيف وكلمات العرب والرسول والصحابة والتابعين والأئمة من آل الرسول وفقهاء الأُمّة مشحونة باستعمال هذه الكلمات في غيره -سبحانه-. ولم يرَ أحدٌ في إطلاقها على غيره -عزّاسمه- حرجاً، وقد نظروا الى هذه المسائل بصدر رحب وعين بعيدة المدىٰ، ولم يضيّقوا الأمر على المسلمين ووجدوا الاسلام شريعة سهلة سمحة تتبع المقاصد والأغراض لا الظواهر والألفاظ.

فالوهّابيّة -كالخوارج- ضيّقوا الأمر على أنفسهم وعلى المسلمين بما لم يضيّق به سبحانه، والطائفتان تسيران في عدّة من المسائل جنباً الى جنب.

ختامُهُ مِسك

حان الآن أيّها القارىء الكريم أن نختم هذا البحث الضافي حول عقائد الوهّابيّة وأُصولها وأهدافها بكلمة قصيرة نافعة للجتمع الاسلامي عامّة وللشباب المسلم الغيور خاصّة.

إن الاسلام بُنيَ على كلمتين: كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة، فيجب على الأُمّة الاسلامية أن تحفظ وحدة الكلمة وعُرىٰ الاخوّة، كما يجب عليها أن تحتفظ بكلمة التوحيد، فإنهما صنوان نابتان من أصل واحد.

فكما أن القرآن والسنّة حثّا على توحيده -سبحانه- ذاتاً وفعلاً وعبادةً، فقد حثّا أيضاً على الاعتصام بحبل الله ونهيا عن التفرّق

«واعتَصِمُوا بِحَبلِ اللهِ جَميعاً ولا تَفَرّقوا»(١) وقال عزّ شأنه «وَمَن يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعدِ ما تَبيَّنَ لَهُ الهُدَىٰ ويَتَّبع غَيرَ سَبيلِ المؤمِنينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ سَاءَت مَصيراً»(٢).

و قال الامام عليّ ـ عليه السّلام ـ «والزموا السواد الأعظم، فإن يدَ الله مع الجماعة، وإيّاكم والفرقة، فإن الشاذّ من الناس للشيطان كما أن الشاذّ من الغنم للذئب، ألا وَمَن دعا الى هذا الشعار فاقتلوه ولوكان تحت عمامتي هذه»(٣).

فإذا كان توحيد الكلمة بهذه المكانة العالية، فما حال من شقّ عصا المسلمين و بثّ فيهم الفرقة ومزّق صفوفهم وشتّت شملهم بغرس شكوك في أمور طالما اتفقت عليها الأُمّة الاسلامية قبل أن يتولّد باذر الشكوك ـ أعني ابن تيميّة ـ وساقيها ـ أعني محمّد بن عبدالوهّاب ـ.

أيّها القارئ العزيز: إن ما تلوناه عليك في هذه الصحائف هو مقتضىٰ نصوص الكتاب الحكيم وسنّة النبيّ الأكرم ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ونتيجة ما أجمعت عليه الأُمة الاسلامية طوال القرون، فأيّ قيمة لكلمة أو كلمات تضادّ كتاب الله وسنّة نبيّه ـ عليه وعلى آله الصلاة والسلام ـ وما اتفقت عليه الأُمّة.

يعزّ على الأُمّة الاسلامية وفي مقدّمتها علماؤها ومفكروها أن يوجد أُناس في «أُمّ القرىٰ» ومهبط الوحي يكفّرون الأُمّة جمعاء من سنّة وشيعة ولا يستثنون منهم إلّا شذّاد الآفاق من بلاد نجد.

(١) سورة آل عمران: آية ٨٤.

(٢) سورة النساء: آية ١١٥.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١٢٣.

و قد وقف الأعاظم من أبناء الأُمّة الاسلامية على خطورة الموقف وأضرار هذه الهواجس الشيطانية التي زرعها الشيخ ابن تيميّة حتىٰ قال الحافظ ابن حجر في كتابه «الفتاوىٰ الحديثية» في حقّه ما هذا نصّه:

«ابن تيميّة عبدٌ خذله الله وأضلّه وأعماه وأصمّه، وبذلك صرّح الأئمة الذين بيّنوا فساد أحواله وكذب أقواله، ومن أراد فعليه بمطالعة كلام الامام المجتهد المتّفق على إمامته وجلالته وبلوغه مرتبة الاجتهاد أبوالحسن السبكي وولده التاج والشيخ الامام العزّ من جماعة وأهل عصرهم من الشافعية والمالكية والحنفية، ولم يقصر اعتراضه -ابن تيميّة- على متأخّري الصوفية بل اعترض على مثل عمر بن الخطّاب وعليّ بن أبي طالب -رضي الله عنهما-.

و الحاصل: أنه لا يقام لكلامه وزن يرمىٰ في كلّ وعر وحَزَن، ويعتقد فيه أنه مبتدع ضالّ مضلّ غال عامَله الله بعدله وأجارنا من مثل طريقته وعقيدته وفعله -آمين-» الفتاوىٰ الحديثية: ص٨٦.

و الله أسأل أن يجعلنا من «الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه»

وصلّى الله على سيّدنا محمّدَ خاتم النبيّين

وآله الطيّبين الطاهرين وصحبه الأخيار المنتجبين

وآخِرُ دعوانا أن الحمدُلله ربّ العالمين.

جعفر السبحاني

قم المشرّفة

عيد الغدير- ١٨ ذي الحجّة ١٤٠٦

محتويات الكتاب

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

الفصل السادس عشر

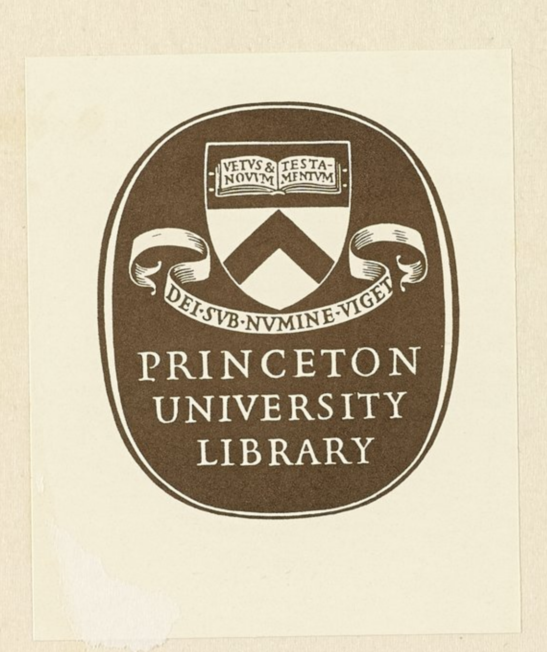
الفصل السابع عشر

الفصل الثامن عشر

الفصل التاسع عشر

الفصل العشرون

* * *





ثمن ۸۰ ریال